Digitized by Birzeit University Library

Acc. يوضع على
49760

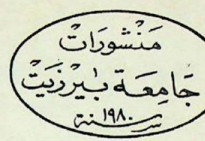

العربي العصري

المساعيد

مشاكل التطور والتحديث في العالم العربي

SPC
DS
63.6
A28
1980
BZU
C.2

125562

الدكتور واصف عبّوشي
بروفسور علوم سياسيّة في جامعة سنسناتي
وأستاذ زائر في جامعة بيرزيت.

Digitized by Birzeit University Library

الفهرس

الفصل الاول ـ ظاهرة التخلف	١١
اسباب التخلف : العوامل الخارجية	١٤
اسباب التخلف : العوامل الداخلية	٢٤
مراجع للفصل	٥٠
الفصل الثاني ـ ظاهرة العصرية	٥٧
عوامل الانتاج والتطور	٦٢
العصرية الغربية	٧٨
مراجع للفصل الثاني	٩١
الفصل الثالث ـ تخلف العرب وعصريتهم	٩٥
المادّة والروح المدرجيّة	١٠٤
التطور العصري في الخليج العربي	١١٧
مراجع للفصل الثالث	١٣٤
الفصل الرابع ـ نتائج التطور والتحديث ومعانيها السياسية	١٣٧
الاسلوب السلطوي	١٣٩
النموذج الديمقراطي	١٥٠
النموذج الشيوعي	١٦١
مراجع للفصل الرابع	١٨٧
الفصل الخامس ـ القومية العربية والتطور	١٩١
مراجع للفصل الخامس	٢٣٥
الفصل السادس ـ البيروقراطية والايديولوجية والاحزاب في التطور	٢٣٩
البيروقراطية	٢٣٩
الايديولوجية والحزبية	٢٥٧
مراجع للفصل السادس	٢٧٨

Digitized by Birzeit University Library

الفصل السابع ـ سيكولوجية التطـــــور
وعواملها الاجتماعيـــة ٢٨١
وسيلـة التطـــــور ٢٩٧
العـائلـــة العربيـــة ٢٩٩
مراجع للفصل السابـع ٣٢٧

Digitized by Birzeit University Library

المقدمة

في عام ١٩٧٧ عدت الى الضفة الغربية بعد غياب خمس وعشرين سنة لادرس في جامعة بيرزيت كأستاذ زائر ، وذلك لشعوري بضرورة عودة اصحاب الاختصاص والعلم الى ارض الوطن ليطوروه ويساعدوا في تخليصه من مشاكله العظمى . وقد كانت زيارتي مقدرة لسنة واحدة ولكنني مددتها سنة ثانية، ولولا أن جامعة سنسناتي في ولاية اوهايو الامريكية لا تسمح لاساتذتها بالغياب اكثر من سنتين لبقيت في بيرزيت سنة ثالثة . ولولا استحالة بقائي في الضفة الغربية بسبب الموانع السياسية لأطلت اقامتي فيها لتكون دائمة .

ولا اريد أن اعطي القارىء الفكرة بأن غيابي عن الوطن كان طويلا وغير متقطع فقد كنت دائما على اتصال به وكنت ازوره كل سنة في الصيف وعندي في الجامعة في امريكا طلاب عرب ومنهم الفلسطينيون من جامعة بيرزيت . ولكن لا بديل لوجود المتعلم في بلاده وانني آمل ان تتاح لي الفرصة لأن اعود الى وطني لأسكنه دوما .

تكونت فكرة هذا الكتاب في ذهني قبل وصولي ارض الوطن ؛ ففي جامعة سنسناتي كنت ادرس موضوعات عن مشاكل التطور والتحديث في العالم الثالث وتوصلت الى نتيجة أن هذه المشاكل يجب ان تدرس في اطار التطور العربي ووضع العالم العربي الحضاري . ومن هنا جاءت فكرة تصنيف هذا الكتاب .

وانني آمل ان انجح في اثارة الجدل حول المواضيع التي اطرحها في هذا الكتاب وأن امكن القراء من التساؤل والبحث عن مشاكل التطور في العالم العربي وعن نوع الحياة التي يريدونها لانفسهم ولامتهم . ففي الكتاب انتقادات بناءة

Digitized by Birzeit University Library

لنواح عديدة من الحياة العربية . وبعض انتقاداتي ستكون غير مقبولة لعدد كبير من الناس . ولكنني اومن بأن الانتقاد والتحليل الموضوعي يفيدان القارئ اكثر من تحليل بدون نقد ، تحليل يفترض أن كل شيء هو على ما يرام . وعلى الرغم من أن من اهدافي في هذا الكتاب الاسهام في اعادة بناء الامة العربية على اساس أيدولوجي صحيح ، ومساعدة القارئ على فهم مشاكل العرب التطورية ، فانني لا افضل أيدولوجية على أيدولوجية ولا اؤيد حزبا ضد آخر ولا زعيما ضد زعيم ولا كيانا ضد كيان عربي . ومن اهدافي الاخرى أن أمكن اصحاب الأيدولوجيات ورؤساء الاحزاب والحركات السياسية والكيانات العربية من أن يصلحوا اخطاءهم ان وجدت وأن يسيروا في موكب التطور العصري عن طريق فلسفة تطورية جديدة . والقومية العربية ، في رأيي ، بحاجة ملحة الى أيدولوجية عصرية تحتوي نظرة جديدة للحياة . وانه ان لم تكتمل الوحدة العربية سياسيا واجتماعيا ونفسيا فستظل الامة العربية ضحية الصراع الدولي والاستعمار . وفي الحقيقة أن حالة الامة العربية اليوم حالة محزنة للغاية وليس لها من خيار الا اعادة تركيب بنيتها على اسس جديدة وفلسفة حياتية جديدة .

هذا الكتاب يقول إن العروبة ليست تقاليد ولا هي دين خاص . فالعربي ؛ في رأيي ، سيظل عربيا ولو ذهب الكثير من تقاليده ، وسيظل عربيا حتى ولو تغير دينه ، لأن العربي الصحيح هو من يفصل طريقته عن هويته فيغير طريقته ويتمسك بهويته حتى يتسنى له الوجود في طليعة الامم الحضارية والاستمرار في خدمة مصالحه القومية عن طريق نظرة انسانية شاملة .

والتطور الذي ابحثه هنا ينطلق من حقيقة فشل الامة

Digitized by Birzeit University Library

العربية للوصول لاهدافها القومية . وقد كنت من الناس الذين يلومون الاستعمار على فشل هذه الامة ولكنني اليوم أومن بأن الاستعمار يستمد قوته من ضعف الامم التي يستعمرها. فلا يمكن أن يكون الاستعمار هو السبب الاساسي لفشل العرب لأن السبب الاساسي هو العرب انفسهم. وان لم يغيروا طريقتهم وينهضوا كأمة واحدة لها اهداف واحدة فسيظلوا تحت تأثير الاستعمار الذي يلعب بمصيرهم ليبقوا مغلوبين على امرهم. ونهوض العرب لن يكون على اسس قديمة ولا على اسس غريبة مستوردة .

هذا الكتاب مدين لاشخاص ومؤسسات عديدة . اذكر منهم صديقي الدكتور عبد اللطيف برغوثي ، رئيس دائرة اللغة العربية في جامعة بيرزيت ، الذي صحح اخطاءه اللغوية وجعله قابلا للقراءة والاستيعاب من قبل القراء الكثيرين ممن يحسنون اللغة اكثر مني . كما انني اريد أن اشكر مجلس الابحاث ولجنة تافت في جامعة سنسناتي (اوهايو ، الولايات المتحدة) على المساعدات المالية التي قدموها لي اسهاما منهم في اعداد هذا الكتاب . وكذلك جامعة بيرزيت التي اعطتني الفرصة لأكون في الضفة الغربية ولأكتب هذا الكتاب وأنا بين اهلي وخلاني .

جامعة بيرزيت
١٩٧٩

المؤلف

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الأول

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

ظاهرة التخلف

في عام ١٩٧٤ كان اكثر من نصف سكان العالم البالغ عدده ٤ر٣ بليون نسمة يعيشون في العالم الثالث ، وحسب الاحصاءات تنبأ اصحاب الاختصاص بأن هذه النسبة ستزيد في الجيل القادم (١). ويوجد في العالم الثالث ١١٢ قطرا ستة وعشرون منها في امريكا اللاتينية وثلاثة وعشرون في آسيا والباسفيك وتسعة عشر في الشرق الاوسط وشمال افريقيا واربعة واربعون في افريقيا جنوب الصحراء (٢). ويزيد عدد سكان هذه البلدان عن ٢ر٢ بليون نسمة او حوالي ٥٢ بالمئة من مجموع سكان العالم .

هذا العالم الثالث لا يكون وحدة منسقة لا سياسيا ولا اقتصاديا ولكن من الوجهة الجغرافية تقع جميع بلدانه في النصف الجنوبي من الكرة الارضية . وربما سمي العالم الثالث لانه لا يقع في العالم الاول الذي يحتوى البلاد الغربية الصناعية ولا هو من ضمن العالم الثاني الذي يحتوى البلاد الماركسية السلطوية . ومهما كان سبب تسميته فاننا نجد ان الفقر هو المشكلة التي تشترك فيها جميع بلدانه .

ولكي تكون لدينا فكرة واضحة عن فقر بلدان العالم الثالث ، علينا ان نتمعن في الارقام الحسابية لعام ١٩٧٤ . فالاقتصاديون يقدرون ان ٨٠ بالمئة من مجموع سكان العالم الثالث يعيشون في بلدان معدل دخل الفرد السنوي فيها اقل من ٥٠٠ دولار . ويقدرون بالاضافة ان ١٥ بالمئة من سكان هذا العالم فقط يعيشون في بلاد يتراوح معدل دخل الفرد فيها بين ٥٠١ الى ١٠٠٠ دولار بينما خمسة بالمئة يعيشون في بلاد معدل الدخل الفردي فيها فوق الالف دولار . واذا اخذنا الاثنتي عشرة دولة الاكثر غنى في العالم الثالث

Digitized by Birzeit University Library

وجدنا ان سبعا منها سبب غناها هو انتاج المواد الخام العامة كالبترول مثلا وهذه البلاد هي جابون والكويت وليبيا وقطر والامارات العربية المتحدة وفنزويلا والمملكة العربية السعودية [٣].

ورغم تخلف العالم الثالث نجد ان بعض التقدم قد حصل فيه. فاذا قارنا احصائيات عام ١٩٧٤ المذكورة اعلاه باحصائيات ١٩٦٥ نجد ان هناك فرقا لا بأس به. ففي هذا العام الاخير كان ٩٠ بالمئة من سكان العالم الثالث في المستوى الاسفل اي الفقير جدا (دخل فردي سنوي اقل من ٥٠٠ دولار) بينما ستة في المائة في المستوى (الدخل) المتوسط واربعة بالمئة فقط في الدخل العالي (فوق الألف دولار [٤]).

ولكن هذا التقدم المتواضع يصير تافها اذا ما قارنته بالتقدم الحاصل في العالم الاول [٥] ففي فترة السنين العشر المذكورة اعلاه زاد معدل الدخل الفردي السنوي في الخمس والستين دولة الاكثر فقرا في العالم الثالث، من ٢٠٩ الى ٢٢٣ دولارا، اي اربعة عشر دولارا فقط، بينما الزيادة خلال نفس الفترة كانت اكثر بكثير في الخمس والعشرين دولة المنتمية للعالم الاول، من ٣١٠٧ الى ٤٠٣٥ دولارا، اي الف دولار تقريبا [٦]. فالفجوة بين المستوى المادي للعالم الاول والمستوى المادي للعالم الثالث تزداد مع الوقت ومعنى ذلك ان المستقبل سيكون اكثر سوادا للعالم الثالث.

بالاضافة الى ذلك علينا ان نتذكر ان التقدم الاقتصادي الذي يحصل في العالم الثالث لا يكون موزعا بالتساوي او متعادلا بين بلدانه بل يكون مركزا في عدد ضئيل من دوله كما كان الحال في فترة السنين العشر المذكورة اعلاه حيث كان التقدم النسبي ظاهرا في الجزائر والصين الوطنية والسان

Digitized by Birzeit University Library

دومينكان وماليزيا بالاضافة الى دول النفط المعروفة وعدد هذه البلاد التي حصل بها التقدم لا يزيد على اثنتى عشرة دولة . والحقيقة المُرة هي ان الاكثرية الساحقة من بلاد العالم الثالث لم تتقدم ولم تتأخر بينما يزداد التقدم والغنى في بلاد العالم الاول ازديادا ملحوظا من فترة الى فترة .

ويتوقع الاخصائيون ان يتضاعف في نهاية القرن الحالي معدل الدخل الفردي في الخمس والعشرين دولة الغنية من العالم الاول من ٤٠٠٠ دولار تقريبا الى ٨٠٠٠ دولار تقريبا ،كما يتوقعون ان يزيد المعدل في بلاد العالم الثالث من ٢٢٣ الى ٣٥٠ دولارا خلال المدة نفسها .

ورغم الفارق العظيم بين العالمين فان علاقات الاعتماد المتبادل بينهما ستزيد في نهاية القرن الحالي . ويقدر الاخصائيون ان عدد المواد المهمة للصناعة هو اثنتا عشرة مادة بالاضافة الى مادة البترول وان الولايات المتحدة الاميريكية ستحتاج لاستيراد القسط الاكبر من حاجياتها لهذه المواد . واذا استعملنا اسعار سنة ١٩٧٠ كأساس فستكون قيمة ما ستستورده الولايات المتحدة من هذه المواد حتى نهاية القرن اربعة وستين بليون دولار .

ورغم احتياج العالمين لبعضهما البعض نجد العالم الاول اقوى بكثير من العالم الثالث وهذا صحيح ليس من الوجهة العسكرية فقط بل ، وهذا الاهم ، من الوجهة الاقتصادية ايضا . ولذلك فان علاقات العالمين الاقتصادية تكون عادة في صالح العالم الاول . فخذ مثلا قوة الشركات الدولية الاقتصادية حيث هناك شركات عالمية اقوى بكثير من دول مستقلة لها حكوماتها وجيوشها وشعوبها . ففي عام ١٩٧٢

Digitized by Birzeit University Library

قام الخبير لستر براون Lester Brown باعداد دراسة لمقارنة "حجم" الشركات الدولية بحجم الدول السياسية وذلك بمقارنة الانتاج القومي العام لعدد من الدول مع مجموع المبيعات السنوي لعدد من الشركات العالمية . وكانت نتيجة الدراسة مهمة للغاية لأن لستر براون وجد ان شركة جنرال موترز هي اكبر حجما من سبع وثلاثين دولة على اساس الحجم . ولا يتفوق على جنرال موتورز في الكبر الا اثنتان وعشرون دولة في العالم ، والشركة هذه هي اكبر من بلاد كسويسرا والباكستان وجنوب افريقيا . ويتبعها بالحجم بين الشركات العالمية شركة ستاندرد اويل (نيو جيرزي)التي كانت في المرتبة ٢٧ في اللائحة المذكورة وهي اكبر حجما من الدانيمارك . وتليها شركة فورد موتور التي جاءت في المرتبة التاسعة والعشرين وهي اكبر حجما من كل من النمسا ويوغسلافيا واندونيسيا وبلغاريا والنرويج والمجر . وتلي فورد في اللائحة شركة رويال دتش / مجموعة شل التي جاءت في المرتبة السادسة والثلاثين وهي اكبر حجما من كل من الفلبين وفنلندة وايران وفنزويلا واليونان وتركيا .وهناك عدد آخر من الشركات تتفوق على دول كثيرة فشركة جنرال الكترك تتفوق على كوريا الجنوبية وشركة آي بي ام على تشيلي ، وكل من شركة موبيل اويل وشركة كرايزلر على كولومبيا ومصر . وبلاد كفيتنام الجنوبية وليبيا تتفوق عليهما اثنتان وثلاثون شركة دولية (٧) .

أسباب التخلف : العوامل الخارجية

النظريات التي تبحث في اسباب تأخر العالم الثالث كثيرة ومنها النظريات التي تقول ان اكثر هذه الاسباب خارجة عن المجتمع المتأخر وهي تركز اللوم على الآخرين او على

Digitized by Birzeit University Library

المجتمعات المتقدمة ومنها ما يركزه على النظام الدولي . والماركسيون هم لا شك في طليعة المفكرين والحركات السياسية التي تلوم الانظمة الرأسمالية لتأخر العالم الثالث و استغلاله ؛ فبالنسبة لماركس نفسه الاستعمار هو السبب .

وهذا الاستعمار يأتي كآخر مرحلة في نظام اقتصادي متقدم يكون عنده الفائض من الرأسمال ويحتاج الى استثمار هذا الفائض في البلاد المتأخرة (٨) . ويقول ماركس انه عندما تنخفض نسبة الربح بسبب تكديس الرأسمال الكبير large accumulation بالنسبة لقوة العمل labor force يضطر صاحب الرأسمال ان يفتش عن طرق جديدة لاستثمار الرأسمال الفائض خارج بلاده فيجد هذه الفرص في البلاد المتخلفة حيث الرأسمال ضئيل والايدي العاملة كثيرة . ولكن بعد مرور الزمن تتقلص هذه الفرص الموجودة في البلاد المتخلفة فيضطر الرأسمالي ان يضغط على حكومته لتساعده . وحيث ان الدولة في النظام الرأسمالي تعكس مصالح الطبقة الرأسمالية وترضخ لسيطرتها يتحرك جهاز الدولة اي الحكومة لحماية مصالحها في العالم المتخلف . وحيث ان هناك رأسماليين من دول متقدمة عديدة يتنافسون على اسواق البلاد المتخلفة نفسها فان التصادم يقع بين الدول التي تمثل هؤلاء الرأسماليين ومصالحهم . والحروب بالنسبة لماركس هي نتيجة هذا التنافس اي انها نتيجة هذا التوسع الاقتصادي الاستعماري (٩) .

وحتى الحرب العالمية الاولى كان الماركسيون متفقين في افتراضهم ان اخلاص العمال هو لطبقتهم لا لقوميتهم ، وان اتجاههم سيكون دوليا واتحاديا ، ولكن احداث الحرب خلقت مشكلة كبيرة للماركسيين لان العمال اظهروا ولاءهم لقوميتهم . ففي المانيا مثلا صوت الحزب الديموقراطي

Digitized by Birzeit University Library

الاجتماعي وهو حزب تألف من ماركسيين ثوريين لدعم الامبراطور ماليا وقام الاشتراكيون في فرنسا للدفاع عما سموه بالحرب "الديموقراطية" (١٠) .

وظهرت تناقضات اخرى ازعجت الماركسيين واهمها أن ماركس كان قد توقع ازدياد فقر الطبقة العمالية في البلاد الرأسمالية المتقدمة مع العلم ان حالة هذه الطبقة المادية لم تكن تسير للوراء بل بالعكس كانت تتحسن مع الوقت (١١).

وكان اكثر الماركسيين احساسا بهذه التناقضات هو لينين الذي كتب مؤلفه الصغير "الامبريالية هي اعلى اشكال الرأسمالية" Imperialism:The Hightest Stage of Capitalism ليوضح التناقض في النظريات الماركسية (١٢) . ويقول لينين في هذا الكتيب ان "الرأسمالية تطورت لتكون نظاما عالميا استغلاليا كولونياليا يخنق الاكثرية الساحقة من سكان العالم لصالح اقلية صغيرة من دول العالم المتقدم "وان برجوازية هذه الاقلية تستخدم الربح الكبير الذي تسرقه من المناطق المتخلفة "لترشو به زعماء العمال والطبقة العليا من الارستقراطية العمالية" في بلادها . وبهذه الطريقة "يصدر" رأسماليو العالم المتقدم "الاستغلال" للعالم المتخلف مشفوعا بدعم البرجوازية العمالية في بلادهم . ولم يكن لينين اول من تحدث عن وجود برجوازية عمالية في البلاد الرأسمالية المتقدمة فقد سبقه الى ذلك انجلز صديق ماركس الشهير ، ففي عام ١٨٥٨ لاحظ انجلز ظهور هذه الجماعة في انجلترا وكتب لماركس عنها . وفي نفس الرسالة وصف انجلز بلاد الانجليز بأنها اكثر الدول برجوازية وبأنها الدولة التي "تستغل العالم كله" (١٣).

ولكن ظل بين المفكرين من لم يقتنع بنظرية لينين

Digitized by Birzeit University Library

التي توضح اسباب استمرار الازدهار المادي في حياة العامل الرأسمالي في البلاد المتقدمة ومنهم من يعتقد ان السبب الرئيسي هو قدرة النقابات العمالية في هذه البلاد على الحصول على قسط اوفر من الانتاج . وادرك بعض المفكرين الماركسيين الاميريكيين ان نظريات ماركس ولينين بحاجة الى التجديد العلماني . فعمل ثلاثة على تطويرها وهم بول بَرَّان Paul Baran وبول سويزى Paul Sweezy وهارى ماجدوف Harry Magdoff (١٤) . في كتاب "رأس المال الاحتكارى" Monopoly capital يقول بران وسويزى ان الفائض الزائد Excess surplus سببه حتمية التوسع والنمو في رأس المال الاحتكارى monopoly capitalism اي ان فلسفة العمل التجاري العصري في البلاد الرأسمالية تشدد على ضرورة نمو الشركات وتوسعها في الاسواق ، والشركات التي لا تسير على هذه الفلسفة لا يمكن ان تعيش مدة طويلة . ولهذا السبب تتجه الشركات نحو الاندماج mergers وتشكيل الاوليجوبليات Oligopolies على الصعيد الاهلي والشركات الدولية على الصعيد الاجنبي (الدولي) . ورغم زيادة حصة العمال من الانتاج في الدول الصناعية فان الربح او الفائض ، في نظريات بران وسويزى ، يزداد بسرعة كبيرة لدرجة أن يخلق مشكلة للمستثمر الرأسمالي الذي لا يستطيع التخلص منه الا في اسواق البلاد المتخلفة .

ومن اجل استغلال اسواق العالم المتخلف ، تحاول الشركات الدولية السيطرة على اقتصاد بلدان هذا العالم فتلجأ الى طرق عديدة منها محاولة عدم دفع ضرائب الاستيراد وازالة العراقيل امام دخول بضائعها الاسواق الخارجية ، ومحاولة منع الشركات المحلية من الظهور خوفا

Digitized by Birzeit University Library

من منافستها وذلك بوضع الصعوبات امام هذه الشركات المحلية للحصول على رؤوس اموال كافية للاستثمار . ولزيادة الطلب على بضائعها ومنتوجاتها في سوق العالم المتخلف تلجأ هذه الشركات للدعاية عن طريق وسائل الاعلام التي يسيطر عليها العالم الغربي كأفلام السينما والتلفزيون والاذاعات .

وتحاول الشركات الدولية الضغط على حكومات العالم الثالث لعدم تشجيع وجود النقابات العمالية وتضغط عليها لمنعها من التدخل بعملياتها التجارية والاستثمارية ولمنعها من وضع الضرائب على ارباحها . وللوصول للاهداف المنشودة تتعاون هذه الشركات الدولية مع حكومات الدول الغربية وخصوصا حكومة الولايات المتحدة لقمع الحركات الاصلاحية في العالم المتخلف لكونها تستهدف الحد من حرية العمل للشركات الدولية .وهذا، حسب قول الماركسيين ، هو ما حدث في كثير من بلدان العالم المتخلف ويستعملون هذا التحليل لتفسير ما حدث للرئيس ألندى Allende في تشيلي عام ١٩٧٣ ولاربنز Arbenz في غواتيمالا ولمصدق في ايران عام ١٩٥٣ ولكاسترو في كوبا عام ١٩٦١ ولعبد الناصر في مصر عام ١٩٥٨ (١٥) .

والماركسيون ليسوا الوحيدين في تعليل التخلف بنسبته لأسباب خارجة عن العالم المتخلف ، فهناك من يعتقد ان من اهم اسباب التخلف "الضرورة العسكرية" The military imperative التي تتصف بها لعبة القوى العظمى السياسية . وحسب هذه النظرية game الاستعمارية تهدف الدول العظمى الى ابقاء العالم الثالث فقيرا اقتصاديا وضعيفا عسكريا حتى يتسنى لها استعمال اراضيه مسرحا لصراعاتها ولعبها السياسية بدلا من اراضيها هي . وتنفيذ هذا الهدف او هذه الاستراتيجية اصبح امرا ممكنا بعد الحرب العالمية الثانية وذلك لتطور الاسلحة النووية التي

Digitized by Birzeit University Library

جعلت الحرب المباشرة بين الدول العظمى خطرة للغاية فأي هجوم مسلح على اراضي اية دولة عظمى من شأنه استخدام الاسلحة النووية وهذا ما لا تريده الدول العظمى لنفسها . فاليوم نجد ان الحروب التقليدية conventional تحدث في بلاد متخلفة ضعيفة بعيدة عن حدود الدول العظمى القومية. والامثلة على هذه الحروب كثيرة : كوريا وفيتنام والفلبين والملايو ، والشرق الاوسط ولبنان وقناة السويس والكنجو Congo ونيجيريا وانجولا وروديسيا وتشيلي وكوبا وغواتيمالا وجمهورية الدومنيكان .

وتقول النظرية العسكرية ان الدول العظمى كانت تستغل المشاكل الداخلية المحلية في جميع هذه المناطق المذكورة اعلاه ، ففي بعض الاحيان تكون البلد عاجزة عن حكم نفسها للانقسامات الداخلية او لوجود مشاكل حدود بينها وبين جيرانها فتسنح الفرصة للتدخل الخارجي من قبل الدول العظمى. فالدول العظمى "تمتحن" بعضها البعض في ارض الآخرين أي على حساب بلاد ليس لها مصلحة في الحرب على الاقل من وجهة كون الحرب امتحان قوى عظمى . والغريب ان الدول العظمى تدعي عادة ان اهتمامها بالخلافات المحلية هو لدعم الاستقرار واثباته من اجل المصلحة الدولية والنظام الدولي. ولايجاد هذا الاستقرار يتوسع الاقتصاد القومي للدول العظمى لتزويد مثل هذه الحروب بالمعدات والسلاح والجيوش والطعام واللباس والاعداد الكبيرة من الناس المشتركين في الحرب . وطبعا في جميع هذه الحروب تجدُّ وسائل الاعلام في الدول العظمى لتصور للعالم ان هذه الحرب او تلك انما هي من ابتداع منافستها ، فالامريكان يصورون الروس والشيوعية بانهم خطر على الدول "الحرة" وبانهم يطمعون في التوسع . وتتهم روسيا امريكا بانها استعمارية . وفي الشرق

Digitized by Birzeit University Library

الاوسط تهدد امريكا بالتدخل اذا هوجمت السعودية ، من قبل من لا نعرف ، وتعطي سببا صريحا لتهديداتها : مصالحها الاقتصادية اي حاجتها وحاجة حلفائها الملحة للبترول.وهذا غريب فعادة لا تكون الدول العظمى صريحة في اعطاء اسباب التدخل الحقيقية مما يدل على ان فكرة التدخل نفسها لم تعد "لعبة" بل اصبحت تميل لكونها سياسة Policy على الاقل في مناطق حساسة كالشرق الاوسط .

والجدير بالذكر هو أن الدول المتخلفة ليس لها صالح في الصراع الدولي او الحرب الباردة الناشبة بين موسكو وواشنطن ولكن لضعفها الداخلي ووضعها الجغرافي العسكري تقع ضحية لالعاب الدول الكبرى . ونظرية "الحتمية العسكرية" تصف الدول العظمى ، بغض النظر عما اذا كان نظامها الاقتصادي رأسماليا او اشتراكيا ، بأنها كلها استعمارية لانها قوية ولأنها دول عظمى . وهذا معناه ان كل دولة عظمى تصير استعمارية حال اكتمال قوتها العسكرية ايما كانت واينما كانت .

وربما كان باستطاعتنا انتقاد نظرية "الحتمية العسكرية" بقولنا ان القوة العسكرية لها ارتباط بالتطور الاقتصادي في عصرنا الحاضر فالدولة القوية عسكريا هي دولة قوية اقتصاديا واننا لا نفصل بين القوة العسكرية والقوة الاقتصادية على الصعيد الدولي وفي مجال الصراع الدولي . ورغم اننا لا نوافق على النظرة الماركسية التي هي حتمية مادية اقتصادية الا اننا نوافق على ان العوامل الاقتصادية مهمة للغاية في المصالح الدولية والعلاقات الدولية ولكنها ليست دائما سبب الاستعمار وسبب الحروب . ففي مصر عام ١٨٨٢ كان سبب الاحتلال البريطاني للبلاد اقتصاديا اكثر منه عسكريا او سياسيا ولكن علاقة اميركا باسرائيل منذ

Digitized by Birzeit University Library

بداية الحرب العالمية الثانية لم تكن علاقة اقتصاد استعماري ابدا ولو كانت كذلك لما قبلت امريكا الاعتراف باسرائيل عام ١٩٤٨ ولا بدعمها ماليا وعسكريا فيما بعد وحتى يومنا هذا . وبالاضافة الى ذلك ، فاننا نعتقد أن الاستعمار هو من شأن القوي سواء كان اشتراكيا أو رأسماليا ، والقوي هو الذي يملك الاقتصاد القوي . وفي رأينا انه لا فرق بين الاتحاد السوفياتي وامريكا والصين الشيوعية فكل هذه الدول الكبرى هي دول استعمارية . واننا نعتقد ان الاستعمار يمكن وجوده في علاقات الدول الصغرى ايضا فالقوي نسبيا يحاول استعمار الضعيف نسبيا ما دامت العلاقات بين هذين البلدين غير متأثرة بقوى اكبر منهما وهذا ممكن في حالات استثنائية كالتي بين الهند وجاوه Goa او بين الهند وبنجلادش Bangladesh.

ورغم اختلاف المفكرين في اسباب التخلف فانهم مجمعون على نقطة واحدة وهي أن النظام الدولي يحتاج الى تعديلات جذرية تضمن مصلحة البلاد المتخلفة وتساعدها على التطور . ولكن عندما يطرح السؤال عن الحل اي عن طريقة التعديل الجذري فاننا مرة ثانية نجد الاختلاف في النظريات فالماركسي لا يجد حلا الا بالثورات على الانظمة الرأسمالية التي هي سبب الاستعمار ، وانشاء الانظمة الاشتراكية التي، حسب نظرته ، لا يمكن ان تكون استعمارية لانها الوحيدة التي تضمن عدم الاستغلال كما تضمن الاستقرار الابدي .

ومن المفكرين من يقترح تعديل النظام الدولي بخلق مؤسسات دولية جديدة تنسق العلاقات الاقتصادية الدولية على اساس الحاجة والمنفعة فتعطي او تنقل المواد الخام للبلاد المتقدمة والرأسمال والتكنولوجية للبلاد المتخلفة وتنظم العلاقات المالية والجمركية بطريقة منتجة آخذة

Digitized by Birzeit University Library

بعين الاعتبار مصلحة البلاد الضعيفة والبلاد القوية على السواء . ومن هؤلاء المفكرين الاقتصادي السويدى الشهير جانر ميردل Gunnar Myrdal(١٦) والانجليزية باربره وورد Barbara Ward(١٧) وسيرل بلاك Cyril E. Black الامريكي (١٨).

ومعظم هؤلاء المفكرين ينظرون الى النظام الدولي وكأنه يعمل بطريقة اوتوماتيكية وغير شخصية impersonal ولكنه مبني على اساس غير عادل بحق البلاد التي تصدر المواد الخام لان نصيبها من الانتاج يكون دائما ضئيلا وبالاضافة فهم ينظرون الى النظام الدولي وكأنه يعمل لصالح البلاد المتقدمة صناعيا .

والقليلون من مفكرى اليوم يوافقون على نظرية آدم سميث Adam Smith (١٧٧٦) التي تقول ان السوق الحر هو الذى يضمن ايجاد نظام دولي متوازن يحفظ مصالح الامم الاقتصادية عن طريق التخصص . وهذا التخصص معناه ان كل بلد تركز على الانتاج الاقتصادى الذي يعطيها فائدة نسبية لا فائدة مطلقة . وآدم سميث واتباعه يؤمنون بأن السوق الحر يتيح الفرصة للبلاد الصناعية لتصدير انتاجها الصناعي ولبلاد المواد الخام لتصدير ما عندها من هذه المواد ويضمن لكل منها المنفعة القصوى اكثر من اي نظام آخر . وطبعا يتطلب السوق الحر حتى يكون حرا عدم تدخل الحكومات به وذلك بفرض الضرائب والتعريفات الجمركية وباعطاء المنح المالية . ويفترض آدم سميث واتباعه ان جميع المصالح الاقتصادية في العالم متناسبة طبيعيا وأن تدخل الحكومات هو الذي يسبب التضارب وعدم الانسجام بينها . ويسمي آدم سميث هذا النظام باليد الخفية invisible hand والتي معناها ان حاصل مجموع القرارات الاقتصادية الخاصة هو

Digitized by Birzeit University Library

النافع العام لجميع الاطراف المشتركة في النظام الحر .

الخطأ الذي يجده الكثيرون من المفكرين واصحاب الاختصاص في نظرية سميث هو قوله إن السوق الحر يعمل لصالح جميع الاطراف . ومن هؤلاء الناقدين الاقتصادي الأرجنتيني راؤول بريبش Raul Prebisch الذي كان سكرتير اللجنة الاقتصادية لاميركا اللاتينية ، التابعة لهيئة الامم . فقد كتب عام ١٩٤٩ يقول ان نظام السوق الحر يعمل لصالح الدول الصناعية وليس لصالح دول المواد الخام وان السبب هو طبيعة النظام الدولي وتركيبه الخاص . ويقول ايضا ان توزيع الثروات العالمية ليس متساويا لأن موارد الكرة الارضية هي ايضا غير متساوية (١٩).

بالنسبة لبريبش فان قوة اسعار السلع الصناعية في الاسواق (الاهلية والدولية) اكبر من قوة المنتوجات الزراعية والمواد الخام وذلك لان النقابات العمالية في البلاد الصناعية قوية ولأن الشركات الدولية تستعمل نفوذها الكبير للمحافظة على الاسعار العالية للمنتوجات الصناعية . وبالاضافة الى ذلك يجد بريبش ان علاقة الدخل بالطلب هي علاقة ليست في صالح اسعار المواد الخام فكلما ارتفع الدخل ارتفعت النسبة المخصصة منه لشراء المنتوجات الصناعية ارتفاعا اكثر بكثير من النسبة المخصصة منه لشراء المواد الغذائية والمواد الخام . وحيث ان الدخل يرتفع في البلاد الصناعية والبلاد المتخلفة فانا نجد ان الطلب على المنتوجات الصناعية يزيد في كلا العالمين اكثر من الطلب على المنتوجات الزراعية والمواد الخام التي هي من اختصاص العالم المتخلف ، وهذا الفارق يكون عادة ضد مصلحة العالم المتخلف .

ويتضح لنا من هذه الدراسة أن الاسباب الخارجية

Digitized by Birzeit University Library

للتخلف معقدة للغاية ورغم اننا لا نشك في اهميتها وفي علاقتها الوثيقة باوضاع العالم الثالث الا اننا نؤمن بأن الاسباب الداخلية للتخلف هي الاهم . وباستطاعتنا القول ان تطور العالم الثالث يعتمد على قوته الداخلية رغم الموانع والعراقيل التي تأتي من الخارج .

أسباب التخلف : العوامل الداخلية

اسباب التخلف الداخلية كثيرة ومعقدة فمنها الاقتصادية ومنها الاجتماعية ومنها الثقافية وكذلك السياسية وحتى السيكولوجية . وتعدد انواع الاسباب سببه ان ظاهرة التخلف كظاهرة عصرية هي غير محددة في ناحية معينة او نشاط معين في ظاهرة كلية . فالمجتمع المتخلف فقير اقتصاديا اي ان مستوى المعيشة فيه منخفض وانتاجه ضعيف وتوزيع دخله القومي سيء وهو مجتمع زراعي لا صناعي . وهو فقير ثقافيا اي ان المستوى الثقافي فيه ضعيف ونسبة الامية فيه عالية ولغته متأخرة بالنسبة للتطورات العلمية الحديثة وعادة تكون بحاجة الى اعادة التركيب وللتحديث ورغم انه من الممكن ان يكون تراثه غنيا من وجهة تاريخية الا انه متخلف في الفنون العصرية كالموسيقى والرقص والرسم وفي معظم حقول المعرفة العلمية والابحاث . وهو بالاضافة يفتقر الى المؤسسات السياسية الفعالة ومن مشاكله الكبرى عدم مقدرته على التنظيم المنتج وعدم الاستقرار . وهو يعاني من التفسخ الاجتماعي وعدم التناسق في كثير من نواحي حياته الاجتماعية . واخيرا نجد ان مثل هذا المجتمع يرضخ لحكم التقليد وهو يعيش وفق اساليب حياة عتيقة الى حد كبير ، ونظرته للحياة هي ايضا قديمة فهو يميل الى القيم الدينية الى المبهمات والروحانيات .

Digitized by Birzeit University Library

مُشكلة السكان : قبل عام ١٧٠٠ كان عدد السكان العالمي يزداد بنسبة عشرين بالمئة فقط ولم يتعد مجموعه نصف البليون ولكن بعد الثورة الصناعية صار يزداد بنسب عالية (٢٠)، ففي عام ١٨٥٠ صار ١ر٣ بليون وزاد الى ١ر٦ بليون في عام ١٩٠٠ و ٣ر٦ بليون في عام ١٩٧٠ والى اكثر من اربع بلايين في منتصف السبعينات . ويتنبأ الديموغرافيون بأن عدد سكان العالم سيستمر بالتزايد حتى نهاية القرن القادم ولكن بنسب تنخفض تدريجيا الى أن يستقر بين ٨ – ١٥ بليون نسمة . هذه الظاهرة المعروفة بالتفجر السكاني تحدث في المجتمعات الانتقالية transitional وهي البلاد غير المتطورة المعروفة بالعالم الثالث .

وهناك ثلاث مراحل ديموغرافية تمر بها المجتمعات حسب درجة تطورها نحو العصرية : المرحلة الاولى التي تتصف بها المجتمعات التقليدية الفقيرة ماديا يكون عدد السكان فيها على مستويات منخفضة وثابتة بسبب ارتفاع نسب الوفاة والولادة فهي تتراوح في هذه المجتمعات بين ٣٠ و ٤٠ في الالف للوفاة وبين ٤٠ و ٥٠ في الألف للولادة ، وهذا يعني ان نسبة زيادة السكان السنوية تكون واحدا بالمئة تقريبا وأن المجموع يتضاعف كل سبعين سنة .

المرحلة الثانية هي المرحلة التي تمر بها البلدان الانتقالية اي بلدان العالم الثالث ومنه طبعا العالم العربي وفي هذه المنطقة تكون نسبة الوفاة بين ٢٠ و ٣٠ في الألف بينما تكون نسبة الولادة بين ٤٠ و ٥٠ في الألف واذا دققنا في هذه الارقام فانا سنأخذ فكرة صحيحة عن العالم المتخلف ووضعه التطوري ، فنسبة الوفاة انخفضت فيه أما نسبة الولادة فقد ظلت عالية بالضبط كما هي في المجتمعات التقليدية اي ان ارقام الوفاة فيه تشبه ارقام الوفاة في

Digitized by Birzeit University Library

العالم العصري اما ارقام الولادة فهي تشبه مقابلها في العالم التقليدي . وباستطاعتنا القول ، على سبيل الفكاهة ان "الوفاة" عصرية في العالم الثالث اما الولادة فهي تقليدية . والسبب ان العالم الثالث تعلم من العالم الاول المتقدم وسائل الصحة والطب ، فاستطاع الحد من الوفيات خصوصا بين الاطفال، ولكنه لم يتعلم ضرورة الحد من حجم العائلة لانه غير متعلم ومستوى ثقافته غير عال واقتصاده زراعي تقليدي يركز على كثرة العدد من اجل الانتاج . والكثرة لها معان دينية ايضا . ففي العالم العربي يظن الناس ان الدين يشجع على الكثرة العددية والعائلة الكبيرة . واذا سألت المسلم العربي لماذا الكثرة في الابناء وكيف سيعيل هذه الاعداد الكبيرة منهم تجد انه يؤمن بأن الله يحب الكثرة للمسلمين وبأن الله يتكفل بهم ويحميهم وتسمعه يقول "الله يرزقهم". حتى بين اللاجئين نجد حجم العائلة كبيرا مع ان الامكانية المادية قليلة جدا . ومن اسباب كبر العائلة بين بعض اللاجئين ما يلي :

(١) الشعور بالأمان والارتياح النفسي . (٢) الاشتراك بالحياة مع اناس من نفس الدم والقرابة يشعرون نحو بعضهم كما يشعرون نحو انفسهم . (٣) رغبة الأب بتأمين مستقبله فهو يظن ان الاولاد (لا البنات !) سيدعمونه ماديا عند الشيخوخة . وهناك التفكير بأن الكثرة هي الأحسن لانها تضمن نسبة محترمة من الاولاد ممن يستجيبون لرغبة الأب في سن الشيخوخة . وهذا السبب هو في الحقيقة الاهم رغم ان الاسباب السابقة تحظى في البداية بأهمية كبرى من الناحية العاطفية ، وبالنسبة لحاجة الأب والأم الى الأمان النفسي في المرحلة الاولى من حياتهما . (٤) استمرار حياة الأب عن طريق الاولاد والاعتقاد بأن الاجيال القادمة خصوصا ابناء العائلة الممتدة ستتذكر الأب بعد موته . (٥) لأن العربي ،بعكس

Digitized by Birzeit University Library

الغربي ، لا يطيق الحياة دون أناس حوله على ان يكونوا من دمه او له علاقة شخصية بهم . (٦) بين بعض الناس كثرة الابناء معناها ان الأب قوي جنسيا وهذا معناه انه رجل بكل معنى الكلمة .

وربما كانت بعض هذه الاسباب تنطبق على العالم الثالث والمجتمعات التي تمر في المرحلة الديموغرافية الثانية حيث يزداد عدد السكان بنسبة ٢ الى ٣ بالمئة سنويا ويتضاعف كل ٢٥ الى ٣٥ سنة .

اما المرحلة الثالثة فتظهر في العالم المتقدم الصناعي اي العالم الاول حيث تكون نسبة الوفاة بين ٢٠ و ٣٠ في الالف وهي النسبة الموجودة في العالم الثالث المتخلف وتنزل نسبة الولادة الى نفس نسبة الوفيات ، ولكن لا تصل زيادة عدد السكان الى الصفر الا تدريجيا وعندما تصل الصفر تتوقف الزيادة ويصبح عدد السكان ثابتا . وهذا ما ستتوصل اليه الولايات المتحدة الاميريكية في مدة قريبة . ولهذا الحال معان ديموغرافية مهمة لها علاقة بمستقبل البلاد الاقتصادي والاجتماعي .

كما قلنا فان معظم بلدان العالم الثالث هي في المرحلة الثانية حيث تتراوح نسبة الوفاة بين ٢٥ر٢ و ٥٠ر٢ بالمئة سنويا . واكثر نسبة زيادة سكان موجودة في امريكا الجنوبية ، حوالي ٩ر٢ بالمئة . اما في العالم الاول المتقدم فان عدد السكان يزداد بنسبة سنوية هي اقل من واحد بالمئة . ويتوقع الديموغرافيون انه اذا استمرت هذه النسبة على ما هي عليه حتى سنة ٢٠٠٠ فسيكون في القارة الاسيوية ٤٠ بالمئة من سكان العالم وفي افريقيا ١٢ بالمئة وفي امريكا الجنوبية ١٠ بالمئة . أما اوروبا فستنزل نسبة سكانها الى ستة بالمئة من المجموع العالمي والاتحاد

Digitized by Birzeit University Library

السوفييتي الى اربعة بالمئة وامريكا الشمالية الى ٤٫٥ بالمئة .

ومن الضروري الاسهاب في درس معنى مشكلة السكان فهي مشكلة ينجم عنها مشاكل اخرى عديدة . على اساس النسبة الحالية يزداد عدد سكان العالم ب ٧٥ مليون نسمة كل سنة وهذا العدد من الناس يحتاج الى ٢٠ مليون طن من القمح لتغذيته اي ما يعادل كل ما تنتجه كندا من القمح سنويا .

وهناك مشكلة اسكان الزائد من الناس فخذ مثلا مصر فهي بحاجة لبناء مدينة جديدة كل سنة بحجم مدينة واشنطن لاستيعاب الزائد السنوي من سكانها . وفي البلاد التي يزيد عدد سكانها بسرعة توجد مشكلة ال Age distribution اي توزيع السكان حسب العمر فنسبة السكان القادرين على العمل تنخفض لأن الصغار بالسن يتزايد عددهم بسرعة تفوق سرعة تزايد عدد الكبار في السن . ففي عام ١٩٦٥ مثلا كان الوضع في القارة الافريقية سيئا من هذه الناحية لأن نسبة القادرين على العمل (من ١٥ سنة الى ٦٥ سنة) لم تكن تزيد على ٥٤ بالمئة من مجموع السكان . وحيث ان نسبة المنتجين فعلا هي اقل من نسبة القادرين على العمل ولا تزيد على ٤٠ بالمئة في افريقيا فاننا نستطيع ان نفهم معنى هذه المشكلة للاقتصاد الافريقي . وفي الحقيقة ان نسبة المنتجين في افريقيا تنخفض تدريجيا مع الزمن .

وزيادة السكان بهذا الشكل تزيد الضغوط على القطاعات المنتجة من الاقتصاد القومي وهذا يظهر جليا في عملية التمدين السريع rapid urbanization حيث يزداد عدد سكان المدن في العالم الثالث بنسبة اعلى من نسبة ازدياد المجموع السكاني في البلاد . ففي افريقيا وامريكا اللاتينية نجد زيادة سكان المدن هي ضعف زيادة المجموع السكاني في القارتين . وهذا معناه ان المدن تخلق المشاكل للمجتمع

Digitized by Birzeit University Library

والحكومات فزيادة السكان الكبيرة فيها تتطلب معالجة مشاكل الصحة والنظافة والتغذية وبناء المساكن الجديدة والمدارس والطرق وايجاد وسائل النقل ومعالجة مشاكل الامن العام بسبب ازدياد الجرائم بالاضافة الى المشاكل الناتجة عن قلة الخدمات العامة كالكهرباء والمياه وما الى ذلك .

وللأسف الكبير يرى علماء الاجتماع ان مستقبل العالم الثالث لا يبشر بالخير . وقد حاولت الحكومات والمنظمات الدولية والجمعيات الخصوصية الحد من زيادة السكان ولكن يظهر انها فشلت فوسائل منع الحمل birth control لا تكفي للوصول الى هذا الهدف اذ ان اكثر الطرق فعالية هي الثقافة ورفع المستوى المعاشي في البلاد المكتظة بالسكان . ولكن زيادة دخل الفرد السنوي معناه زيادة الاستهلاك للثروات القومية . فالدراسات الحديثة تومىء الى ان الولايات المتحدة تعاني من الاستهلاك الاضافي للطاقة energy الناجم عن ارتفاع الدخل الفردي اكثر مما تعاني من الاستهلاك الناجم عن زيادة عدد السكان ، فاذا اخذنا الفترة ما بين ١٩٤٧ و ١٩٧٣ نجد ان ٦٠ بالمئة من الاستهلاك للطاقة سببه الوفرة والبحبوحة بينما ٤٠ بالمئة فقط سببه زيادة السكان . ويقدر ان الغني يكون عبأ على الثروات القومية بمقدار خمسة اضعاف الفقير . ومعنى ذلك انه اذا كانت الطريقة الوحيدة لتخفيض نسبة زيادة السكان هي زيادة الدخل الفردي فان النتائج ستكون سلبية على العالم كله متقدمه ومتخلفه .

مشكلة الزراعة ومضاعفاتها : ان كثرة السكان تزيد الحاجة الى المواد الغذائية بالطبع ، ولسوء الحظ فان العالم الصناعي هو اكثر انتاجية لهذه المواد من العالم الثالث الزراعي . ولفهم هذه الظاهرة علينا ان نتذكر ان المتطور يكون عادة متطورا في معظم النواحي اما المتخلف فهو متخلف في معظم

Digitized by Birzeit University Library

نشاطات الحياة . واذا نظرنا الى الماضي نظرة تفاؤلية وجدنا ان الانتاج الزراعي في العالم الثالث ككل بقي ثابتا ، اي انه لم يزد ولم ينقص ، مع العلم انه زاد في بعض المناطق كالشرق الاوسط وافريقيا ونقص في مناطق اخرى كأمريكا اللاتينية وآسيا (بدون الصين) . من وجهة أخرى نجد ان الوضع الزراعي في العالم الثالث هو لا شك سيء خصوصا لأن انتاجه الرئيسي هو الزراعة اذ انه يستوعب فيها من ٥٠ الى ٧٠ بالمئة من الايدي العاملة . ومع هذا فان انتاجه الزراعي محدود وذلك لأن تكنولوجيته الزراعية ضعيفة للغاية (٢١) .

أما في العالم الحديث فالعكس صحيح ورغم انه عالم صناعي الا ان انتاجه الزراعي قوي . والغريب انه لا يستخدم لهذا الانتاج الزراعي الكبير اكثر من خمسة الى سبعة بالمئة من قوته العاملة . والفرد في العالم الصناعي المتقدم يستهلك ما بين ٣٠٠٠ و ٤٠٠٠ سعر Calorie في اليوم بينما لا يستهلك الفرد في العالم الثالث اكثر من ٢٠٠٠ سعر وهو الحد الصحي الادنى .

ولان الانتاج الزراعي في العالم الثالث ضعيف فاننا نجد الكثيرين من سكان الريف ينزحون الى المدينة وقد كان لهذه العملية التأثير الكبير على الحياة في المدينة . ففقر الريف ادى الى فقر المدينة لأن الاعداد الريفية النازحة الى المدينة اصبحت جزءا من البروليتارية المدنية الفقيرة ؛ فمعظمها لا يجد العمل في المدينة والكثير منها يصبح عالة على المجتمع . وفي العادة يكون اكثر الهجرة الريفية الى العاصمة وذلك لأنها مركز الحكومة والنازحون دائما يأملون بمساعدة الحكومة لهم . والحقيقة ان اكثرهم يشعر بخيبة الامل لأن الحكومات في العالم الثالث متخلفة وقدرتها على المساعدة

Digitized by Birzeit University Library

محدودة ونتيجة لهذا تكثر البطالة في المدن وخصوصا في العواصم . ومن نتائج الهجرة الريفية ان مستوى المدينة الحضاري ينخفض فالمدينة في العالم الثالث منظرها بائس لكثرة الفقراء فيها . وفي بعض المدن كعاصمة سوريا مثلا تجد المستوى الحضاري اعلى في الماضي منه في الحاضر . فمن يتذكر دمشق قبل نزوح ابناء الريف اليها يتذكرها مدينة "ارقى" منها اليوم . ولكن هناك اسباب اخرى لهذا التطور فالهجرة الريفية ليست هي السبب الوحيد اذ ان الانقلابات العسكرية والتغيرات السياسية هي اسباب مهمة في وجود دمشق ومدن اخرى مماثلة في وضعها الحالي السيء .

فقد كان من نتائج تلك الانقلابات هرب الطبقة البرجوازية وانخفاض المستوى المادى والثقافي للمدينة . وبسبب هجرة البرجوازية المدنية تجد ان الاحياء الغنية ذات المنظر الجميل اصبح مستواها منخفضا ومنظرها فقيرا بالنسبة لما كانت عليه . ويلاحظ الشخص ان اماكن التسلية كالنوادي الليلية والمقاهي الراقية والمطاعم والدكاكين والشوارع التي كان الاثرياء يرتادونها تأثرت سلبيا بسبب نزوح البرجوازية وازدادت المدينة قذارة .

والحقيقة انه لو كان بالامكان رفع المستوى المادي الثقافي للمدينة والبلاد لما تأثرت المقاييس الاجتماعية - المادية بهجرة البرجوازية . وبالطبع لا بد من بقاء المشاكل التي ذكرناها لفترة ، ربما كانت مدتها طويلة ، بعد خروج البرجوازية المدنية لان رفع المستوى الثقافي - المادي لا يحدث في مدة قصيرة . ولكن في كثير من بلدان العالم الثالث تبع هجرة البرجوازية المدنية فشل كلي فيما يتعلق برفع المستوى المعاشي - الثقافي للبلاد . في هذه الاحوال نجد ان انحطاط مستوى المدينة ليس مرحليا .

Digitized by Birzeit University Library

وهناك نقطة اخرى يجب ان نتفهمها وهي ان مدنا كالقاهرة كان مستواها منخفضا قبل نزوح بعض ابناء البرجوازية الى خارج البلاد . ولكن قبل قدوم عبد الناصر كانت فيها حارات وشوارع تجارية يرتادها ميسورو الحال والاغنياء وهذه الاماكن انخفض مستواها بعد تأثر البرجوازية بالاصلاح الزراعي الناصري . ويظهر أن هذه البرجوازية قد عادت الى القاهرة في عهد السادات . ولكن فترة من الزمن ستمر قبل ظهور اسلوب الحياة البرجوازي القديم في مدينة القاهرة . وباستطاعتنا القول ان البرجوازية في مصر لم تختف حتى في عهد عبد الناصر الا انها تغيرت من حيث الاشخاص والاماكن والنوعية .

وكذلك يجب ان نعلم ان دمشق والمدن المشابهة لها لم يكن مستواها الثقافي ـ المادي عاليا قبل خروج البرجوازية منها . اننا في الحقيقة نتحدث عن احياء في المدينة كان مستواها عاليا نسبيا وانخفض بعد خروج البرجوازية . اما المدينة ككل فنزول مستواها كان بسبب النازحين من الريف وزيادة الفقر فيها .

مُشكلة ملكيّة الأرض : ومن مشاكل التطور المهمة ، خصوصا من الوجهة الاقتصادية ، مشكلة ملكية الارض ، فالانظمة التقليدية السائدة في معظم بلدان العالم الثالث ليست في صالح الانتاج رغم اختلافها وتنوعها من بلد الى بلد . فالدافع incentive للانتاج ضعيف كما أن حجم الوحدة الزراعية size of holding غير اقتصادي وكذلك توزيع الارض فهو ايضا ليس في صالح الانتاج . اضف الى ذلك كون حق الملكية في الارض Land title غير ثابت في حالات كثيرة مما يعرقل الانتاج ويمنع تطوير الارض لصالح الزراعة المنتجة . وتوزيع الملكية ونوعها لهما علاقة بتوزيع القوى

Digitized by Birzeit University Library

السياسية والنفوذ الاجتماعي ؛ ففي البلاد التي يكون فيها التوزيع لصالح الاقلية يكون النفوذ السياسي والاجتماعي لهذه الاقلية ، ومن البديهي ان تعارض هذه الاقلية كل تغيير او تطور ليس لصالحها . وهذه المشكلة موجودة في كثير من بلدان العالم الثالث بما فيه البلدان العربية ، ولكنها اكثر وضوحا في امريكا اللاتينية .

أما في افريقيا جنوب الصحراء وفي معظم الاقطار الاسيوية فاننا نجد انواعا من نظام الاراضي تختلف عن باقي المناطق في العالم الثالث . ففي افريقيا يقع الكثير من الاراضي الزراعية تحت نظام جماعي communal أي ان الفرد لا يملك ولكن تخصص له حصة يزرعها ثم ان الناتج من جميع الحصص يعود للجماعة ويصير من حقها . تقول باربرة وورد Barbara Ward الانجليزية ان الناتج يذهب الى عدد كبير من ابناء الحمولة kinship group الذين لا يعملون قطعيا . ونظام تعدد الزوجات في افريقيا يزيد عدد غير المنتجين في الحمولة ، وبالتالي نجد ان هذه الاعداد غير المنتجة تؤثر على المنتجين اذ انها تسلبهم الدافع للانتاج (incentive) الى ان يصل هذا الانتاج الى الصفر (٢٢) .

أما في مصر فهناك مشكلة كبيرة في توزيع الارض وملكيتها ولكن لا يوجد مشكلة انتاج اذ ان انتاج الوحدة الزراعية يعتبر من اعلى مستويات الانتاج في العالم (٢٣) . المشكلة في مصر هي قلة الارض الزراعية وكثرة السكان . فحسب احصاءات ١٩٦١ ، لم تكن الارض الزراعية تزيد عن اربعة بالمئة من المساحة الارضية للبلاد التي تقدر بـ ٣٨٦٫٠٠٠ ميل مربع . وقبل الاصلاحات الزراعية الناصرية كان ستون بالمئة من مجموع السكان (٢٤) يسكنون هذه الارض الزراعية

Digitized by Birzeit University Library

(اي الاربعة في المائة) ويزرعونها .

وقد كان نظام الملكية في مصر سيئا للغاية في عهد فاروق . فاحصاءات عام ١٩٥٢ توحي بأن مجموع عدد الملاكين للارض كان ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ مالك ولكن كل واحد من مليونين من هؤلاء كان يملك اقل من فدان واحد ، ونصف المليون من المجموع كان الواحد منهم يملك اقل من خمسة افدنة . والحقيقة المرة هي ان ١١٫٠٠٠ شخص فقط كانوا يملكون ثلث مجموع الاراضي القابلة للزراعة . فهذه الاقطاعية كانت من اسوأ الاقطاعيات في العالم (٢٥) .

وحتى بعد الاصلاح الزراعي لعام ١٩٥٢ والاصلاح الزراعي لعام ١٩٦١ ظلت المشكلة قائمة اذ ان ٤٥٫٢ بالمئة من الارض بقيت في ايدي ٦٫٥ بالمئة من الملاكين بينما ٥٩ بالمئة من مجموع الملاكين لم يكونوا يملكون اكثر من ثمانية بالمئة من الارض (٢٦) . والاكثر سوءا هو ان ٢٣ بالمئة من مجموع سكان الريف المصري لم يملكوا ارضا ابدا . ورغم كل هذا كان المزارع المصري يفلح ارضه بنشاط ولكنها لم تكن كافية لاعالته لانها قليلة ولان المالك كان يستغله . ولم تكن هناك وسيلة لزيادة الانتاج الزراعي المصري الا عن طريق الري واحياء الاراضي التي لم تكن صالحة للزراعة ولهذا نفذ عبد الناصر مشروع سد اسوان ومشاريع اخرى ترمي لنفس الغاية ، ولكن مشكلة الملكية لم تحل لا في عهد عبد الناصر ولا بعده .

ومن المشاكل التي توجد في الكثير من بلدان العالم العربي هي ان الملاك في كثير من الاحيان ليس هو المزارع اي انه يملك الارض ولا يعمل في الزراعة . فالملكية والزراعة منفصلتان الواحدة عن الاخرى . ففي الضفة الغربية نجد هذا الوضع السيء سائدا منذ العهد التركي ومرتبطا بالاقطاعية

Digitized by Birzeit University Library

العائلية وفي كل منطقة من فلسطين كان يوجد عدد من العائلات الاقطاعية معظمها حصلت على ملكيتها باسعار بخسة في فترات من الزمن عجز فيها الملاكون الصغار عن دفع الضرائب على ارضهم . وفي تلك الفترات كان جابي الضرائب التركي يحصل على معاشه من الضرائب بنسبة معينة مما يحصل عليه . وكان هناك تعاون بينه وبين آمر القوات العسكرية في منطقته وبين اصحاب المال الراغبين في شراء الاراضي . ونظام الضرائب السائد كان يقوم على اساس الحصة او النسبة المئوية فكل مستوى حكومي كان يفرض المبلغ السنوي على المستوى الواقع تحته ويعطي له الحرية في اخذ الفائض عن القيمة المطلوبة منه . والمستوى الاسفل كان يفرض المبالغ التي يريدها فيعطي المبلغ المطلوب للمستوى الاعلى ويبقى الزائد عنده . وهذا النظام كان كله يضغط على صاحب الارض لانه في قاعدة الهرم ومنه تأتي جميع الاموال لجميع المستويات الحكومية من المستوى المحلي الى الوالي الى الحكومة المركزية في استنبول . والجدير بالذكر ان الملاك الكبير كان له النفوذ السياسي ولذلك فقد كان باستطاعته حماية نفسه من الضرائب الباهظة ، اما الملاك الصغير فلم يكن له مثل حظ الملاك الكبير ولهذا قلنا ان النظام كله كان مجحفا بحقه وكانت نتيجته بيع الارض التي يملكها للاغنياء . وهكذا تكونت الاقطاعية في فلسطين ومن الاقطاعيين عائلات لبنانية عندما كانت ولاية بيروت تحتوي القسم الشمالي من فلسطين ومن هذه الاملاك ما بيع لليهود في مطلع عهد الانتداب الانجليزي .

ولكن اقطاعية فلسطين لم تكن غنية كاقطاعيات العراق وسوريا ومصر لصغر البلاد وكثافة سكانها نسبيا . ومن يدرس الضفة الغربية ويقارنها مع البلاد العربية يجد انها لا تحتوي غنى فاحشا ولا فقرا مدقعا ؛ ففنيها اقل

Digitized by Birzeit University Library

غنى من اغنياء العرب الاخرين وفقيرها ايسر حال من فقراء العرب الاخرين وهي تتميز بعدم التطرف في الجهتين .

العائلة الممتدة الاقطاعية كانت تعيش كلها من ملكها واعضاؤها لم يكونوا يعملون بالزراعة وعادة كانوا يسكنون في المدينة رغم ان معظم ملكهم موجود في القرية . وكانت علاقتهم بالزراعة عن طريق "القسمة" او عن طريق استئجار عمال الزراعة سموهم الفلاحين . والفلاحون كانوا يسكنون في بيوت فقيرة مع الدواب في كثير من الاحيان ويراقب عملهم الزراعي احد افراد العائلة التي تملك الارض وعلاقتهم مع المالك كانت تشبه علاقة الاقطاعي الاوروبي مع "اقنان ارضه". وما زالت مثل هذه العلاقة ومثل هذه المعيشة ملحوظة بين الفلاحين الفقراء حتى يومنا هذا . واعتقد ان اسوأ الاحوال في الضفة الغربية ما زالت في القرية التي تملكها العائلة الاقطاعية . أما القرى الاخرى التي يملكها اهاليها فقد حصل فيها تطور نسبي .

مع الزمن صارت الملكية العائلية لا تكفي افراد العائلة وذلك بسبب الوراثة وكثرة الوارثين . وفي يومنا هذا نجد ان الضغوط الاقتصادية كبيرة على ابناء العائلات التقليدية الكبيرة لبيع حصصهم من الملك العائلي . وما زال الكثيرون منهم لا يعملون بالزراعة وهم سبب مهم في قلة الانتاج الزراعي خصوصا في الفترات الماضية قبل نشوء الدولة اليهودية .

ونظام "القسمة" ما زال قائما حتى يومنا هذا وقد كان في السابق يعطي للمالك الثلثين وللشريك الثلث ، اما اليوم فالمالك يتسلم النصف والشريك النصف الاخر . وهذا النظام مضر للانتاج الزراعي لان الارض التي هي مسؤولية المالك تكون مهملة الا من الاساسيات . والشريك يشعر بالضغط ، والنظام أو الطريقة تغريه فيسرق المالك . وفي السنين الاخيرة صار في

Digitized by Birzeit University Library

الضفة الغربية تطور غير تقليدي وهو نظام الأجار . وحسب هذا النظام يدفع المستأجر للمالك نقدا مبلغا سنويا لكل دنم يستأجره . وقد اصبح هذا النظام دارجا لأنه من وجهة العائد النقدي اكثر منفعة للمالك . ولكنه نظام مضر للارض لان المستأجر لا يحترم الملك وهدفه هو تجريد الارض من منفعتها بأسرع وقت ممكن .

وفي المدة الاخيرة ارتفعت الاراضي في الضفة الغربية وزاد عدد الناس من ابناء العائلات التقليدية الراغبين في البيع ، وصار المجال لجمع الملكية والزراعة في نفس الشخص . ولكن لسوء الحظ صار بيع الارض تجارة ليس لها اهداف زراعية . واننا نحتاج الى وقت طويل لنعرف كيف تستقر الاحوال في الضفة وماذا سيحصل لهذه الاراضي واذا كانت ستعود للزراعة على ايدى المالك او على ايدى المزارع المالك. وانني اعتقد ان الزراعة ستبقى منفصلة عن الملكية لأن دمج الاثنتين معا يحتاج الى قوانين من حكومة قومية تقدمية .

ونوع ملكية الارض هو مشكلة كبيرة ؛ ففي الضفة الغربية يوجد الملك الخاص وملك الدولة وملك المشاع . اما ملك الدولة فهو في الوقت الحاضر تبتلعه سلطات الاحتلال . والمشكلة الكبيرة هي المشاع الذي معناه ان عددا كبيرا من الناس يملكون قطعة الارض الواحدة على اساس حصص غير مفروزة . وهذا النوع من الملكية يخلق مشاكل كثيرة لأن بيعه صعب وهو يخلق العداوات بين الملاكين الذين هم في كثير من الاحيان من العائلة نفسها او اقرباء . وفي الحقيقة ان الارض تسبب الكراهية في العائلة الممتدة التي كثر عدد افرادها . وهناك مشاكل في المحاكم بين الاخوة وابناء العم على الارض خصوصا بسبب قانون الوراثة وعلاقته

Digitized by Birzeit University Library

بالانظمة التقليدية .

والاقطاعية العائلية تفسخت في فلسطين وضعف نفوذها السياسي ولكنها لم تتلاش كليا وما زال نفوذها السياسي موجودا في بعض المناطق رغم ان قوتها الاقتصادية كجماعة قد قلت . وستأخذ وقتا حتى يتبع التفسخ والضعف الاجتماعي، اي تفسخها كجماعة ومجموعة ولاء ، تفسخها الاقتصادي الذي حصل منذ الستينات .

والعائلات الاقطاعية لها عقلية خاصة وثقافة خاصة ونظرة خاصة ؛ فمن وجهة الخصال والقيم الشخصية مستواها اعلى من المعدل العام في المجتمع . فأمور كالكرم والنخوة والصدق والاخلاص والشعور بالصداقة والولاء والوفاء كلها على العموم خصال قوية في معظم افرادها خصوصا بين نخبتها أي زعامتها . وفي هذه النخبة ، نجد ان هذه الخصال تكلفها ماديا لان العائلات المتوسطة في غناها او التي كبرت عدديا في تطورها تجدها مدينة فالدين مشكلتها الكبيرة . ولكن يجب ان تعلم ان هذا الدين هو فقر نقدي cash poor يصحبه غنى ارضي land rich . ومعنى ذلك ان الارض تدعمه ولذلك تتراكم الديون عليه وتصير حياته صعبة حتى يبيع الارض للخلاص من الدين ومنهم من يموت مدينا ويبيع ابناؤه الارض ليخلصوا من الديون .

وهذه العقلية الاقطاعية لا تكون مهيأة لاي عمل انتاجي مفيد كالتجارة مثلا فعندما تتفسخ الجماعة الاقطاعية وتضعف اقتصاديا تجدها تمر في مرحلة صراع صعبة للغاية . فمن ناحية تجدها تخجل من وضعها الاقتصادي وتمانع في الدخول في المجالات الانتاجية الاخرى كالتجارة مثلا ومنها من يحافظ على كرامته باستعمال ما تبقى من نفوذ العائلة لايجاد اعمال حكومية ومراكز سياسية تعطيه دخلا ، ومنها من

Digitized by Birzeit University Library

يبيع الارض ويقيم بثمنها مباني في المدينة يؤجرها ليعيش على اجرتها وهذا اقرب حل يناسب وضعه التقليدي اذ باستطاعته ان يعيش دون ان يعمل بيديه او بعقله عملا منتجا . والقليل من هذه العائلات التقليدية من يدخل التجارة وعادة تجد هؤلاء بعيدين عن مركز الثقل العائلي أي انهم ليسوا من النخبة والزعامة العائلية .

ولكن هناك ناحية عملية تجذب هذه العائلات التقليدية وهي التعليم الجامعي لابنائها . ففي الماضي كان العلم بالنسبة لافرادها ثقافة لا اكثر ولا اقل لانهم لم يكونوا بحاجة مادية له ، اما اليوم فالعلم مهم لهم ماديا أي معاشيا فتجدهم يهرعون اليه قبل ضياع الفرصة فالاب يرسل ابناءه الى الجامعة ويقول لهم ان الارض لم تعد تكفيهم للمعاش . وحتى في الجامعة تجد هؤلاء الناس لا يعرفون كيف يعيشون في حدودهم المادية ، والذي يكمل تعليمه منهم هو الابن الذي يدعمه أب يقدر العلم ويصمم على تخليص ابنائه من الفقر الذي سيتهددهم عما قريب .

ومن الاسباب التي ادت الى اضعاف قوة هذه العائلات السياسية وجود اللاجئين من مدن فلسطين الداخلية فحيث تجد اعدادهم كثيرة وحيث تجدهم داخل المناطق البلدية تجدهم سببا مهما في اضمحلال نفوذ العائلات القديمة . والعكس صحيح اي ان تأثيرهم يقل في البلدان التي لا يسكنون فيها ضمن الحدود البلدية او في البلدان التي تكون اعدادهم فيها قليلة . فاللاجئون ليس لهم ولاء للمؤسسات المحلية التقليدية فبعد خسارتهم مؤسساتهم في بلدانهم تجدهم لا يخضعون بسهولة لمؤسسات جديدة في اي مكان جديد .

واذا استمر الاحتلال الاسرائيلي للضفة فانا سنجد تأثيرات اقتصادية ـ سياسية تلغي كليا الاقطاعية العربية

Digitized by Birzeit University Library

التقليدية . فارتفاع قيمة الارض المادي هو دافع لاستعجال اصحاب الاراضي لبيع ارضهم خصوصا للبرجوازية الجديدة التي بدأت تظهر في الضفة وللعمال الذين يعملون في المصانع الاسرائيلية . ولكن لسوء الحظ مستقبل هذه الاراضي الزراعية ليس جيدا لأن البرجوازية الجديدة تنظر للارض نظرة تجارية لا نظرة زراعية والعامل يهدف لبناء بيت عليها . ولكن هناك تطور لا بأس به في الاراضي التي لا تملكها العائلات التقليدية يتلخص في زيادة انتاجها باستعمال الطرق الزراعية الحديثة . وهناك تطور اخر لا بأس به في الاراضي القروية خصوصا التي اشتراها العمال بهدف زرعها لا بهدف البناء عليها . وطبعا هناك اقلية صغيرة من ابناء العائلات التقليدية - صاروا مزارعين حديثين واختقلوا من وضعهم التقليدي كملاك الى وضع جديد كمزارعين ولكن كما قلنا عددهم قليل فهم الشواذ وليس القاعدة العامة - واذا قررت اسرائيل ضم الضفة الغربية اليها وتطبيق جميع قوانينها الضرائبية عليها فسيضطر الكثير من الناس خصوصا الملاك غير المنتجين - وهذا معناه العائلات التقليدية - لبيع اراضيهم لدفع الضرائب المستحقة عليها . واذا حصل هذا الامر فعندها نستطيع القول ان الاقطاعيين قد خسروا ارضهم بنفس الطريقة التي حصلوا بها عليها ، ولكن بفارق مهم هو انهم خسروها تحت سيطرة عدوهم السياسي .

وهذه النتيجة محتملة ايضا اذا عادت البلاد الى السلطة العربية ، شريطة ان تكون هذه السلطة تقدمية تسمح للقوى العصرية ان تطور وان تضع الضرائب التي ستجبر هذه الفئة على البيع او الانتاج . ومهما كان المستقبل فهو ليس في صالح هذه العائلات التقليدية ولا في صالح اسلوب حياتها غير المنتج ماديا . هذا الاسلوب لا شك كان من الاسباب المهمة لضياع فلسطين عام ١٩٤٨ واحتلال ما تبقى منها عام ١٩٦٧ (٢٧).

Digitized by Birzeit University Library

وتفصيل ذلك ما يلي :-

الوطن هو ارض وعندما تملك العائلات الكبيرة الارض يصير الوطن لها لا للشعب . وان لم يكن الوطن لأهله اي للشعب فانه لا يجد القوة الكافية للدفاع عنه . وهذا ما حدث لفلسطين وما قد يحدث لاي بلد آخر في نفس الوضع وتحت نفس الظروف .

التركيب الطبقي وتوزيع الدخل: لاسباب اقتصادية تدعمها تقاليد قديمة نجد في العالم المتخلف تركيبا طبقيا يحد من امكانيات البلاد الاقتصادية ويمنع تطورها الكلي . طبعا كل بلاد متطورة او غير متطورة فيها طبقات متميزة بالفوارق المادية والاجتماعية بغض النظر عن نظامها الاقتصادي اذا كان اشتراكيا او رأسماليا . المشكلة هي ليست في وجود الفوارق المادية - الاجتماعية اذ ان هذه الفوارق عالمية universal ولا يوجد في العالم مجتمع ليس فيه طبقية . المشكلة ، كما اراها ، هي في نوعية الطبقية وهذه النوعية ترتكز على الامور التالية : اولا ، هل هي ثابتة ؟ اي هل يمكن للاشخاص ان يتحركوا من طبقة الى طبقة بسهولة نسبية ؟ مثلا هل يمكن للفقير ان يصبح غنيا . والطبقات الثابتة هي عادة تطلب لعضويتها صفات طبيعية مثل الحسب والنسب او الدين او الجنس او اللون او العرق أو الوراثة . في مثل هذا التركيب الطبقي لا يمكن للفرد اقتحام الحواجز الطبيعية الا بازالتها لانه لا يستطيع تغيير لونه او جنسه او عرقه او حسبه ونسبه وحتى دينه لان الأخير هو في معظم الاحيان "وراثي" ليس بالمعنى العلمي بل في الواقع . والفوارق المادية المرتبطة بفوارق طبيعية او قانونية او سياسية هي فوارق ثابتة تمنع تطور المجتمع ككل وهي كغيرها يجب ان تزول اذا اراد المجتمع ان يتطور .

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية

Digitized by Birzeit University Library

ثانيا ، هل هي منتجة ؟ فاذا كانت الطبقية ثابتة وغير منتجة فلا يحصل التطور الجماعي . والاقتصاد المنتج الذي يصلح للتطوير هو الاقتصاد الصناعي . اما الاقتصاد الزراعي فهو ميال للتقليد ومقدرته محدودة فيما يتعلق بالانتاج الكافي للمجتمعات الكبيرة عددا .

ويظهر ان العالم الثالث يرزح تحت تركيب طبقي غير مرن وهو طبعا عالم زراعي . وهناك دراسات كثيرة عن الوضع الطبقي في العالم الثالث واننا نعرض احداها لتكون عند القارىء فكرة عن حجمها ونوعيتها . حسب دراسة الكاتب الفرنسي جندارم R. Gendarme يتبين ان النموذج model الموجود في كثير من بلدان العالم هو كما يلي (٢٨): في اسفل التركيب الاجتماعي توجد البروليتاريا المدنية الدنيا urban sub-proletariat وهذه الطبقة هي اقل الطبقات حظا وهي مكونة من العاطلين عن العمل ومن النازحين من القرية ، وهم اناس غير معتادين على اسلوب الحياة المدني وهم دائما يفتشون عن العمل ، ومن العمال البسطاء كالحمالين والزبالين وبائعي السلع على العربات وعلى الارصفة وسائقي العربات وماسحي الاحذية . وفي هذه الطبقة يوجد الخدم الذين يعملون عند الاغنياء والذين يقدر جاندارم نسبتهم بعشرة بالمئة من سكان المدن .

وفي اسفل السلم الاجتماعي يوجد المزارعون الذين لا يملكون ارضا وهؤلاء لا يجدون العمل الدائم وعملهم لذلك متقطع وهم يعيشون على مستوى سد الرمق فقط . وكما قلنا سابقا فان عشرين بالمئة تقريبا من مجموع سكان الريف في مصر هم من هذه الفئة التي لا تملك الارض . وحسب رأي جندارم فان ٦٠ بالمئة من العائلات الريفية في ايران لا تملك ارضا .

Digitized by Birzeit University Library

وفوق البروليتاريا الدنيا sub-proletariat هناك جماعة بروليتارية اخرى حالها احسن من حال الجماعات السابقة وهؤلاء هم اصحاب الصناعات وعمال الأجرة wage earners اما اصحاب الصناعات فهم من المجتمع التقليدي القديم كالخياطين وصانعي الاحذية والحدادين . اما عمال الاجور الذين يعملون في المصانع فهم عصريون ومتعودون على النظام الميكانيكي . ولا تزيد نسبتهم عن ٣٠ بالمئة من مجموع عدد المنتجين في القطر المتخلف . قارن هذه النسبة مع النسب في الدول الصناعية حيث تكون اقل النسب ٦٠ بالمئة .

وفوق جماعات البروليتارية التي ذكرناها يوجد ما يشبه الطبقة الوسطى في العالم الصناعي وهي تحتوي العاملين في الخدمات المدنية والبيروقراطية الحكومية وضباط الجيش . ويقول جندارم ان الكثيرين من خريجي المدارس الثانوية والجامعات يرغبون في العمل مع الدولة لانها عصرية . ونحن نقول ان هذه الرغبة لا تكون طوعية في معظم الاحيان لأن خريجي المدارس انما يعملون في الحكومة لانه لا يوجد بديل افضل منها . وحسب تقدير لويد P. C. Lioyd فان ٤٠ بالمئة من الايدي العاملة في بلاد غانا Ghana يعملون في الحكومة . وهذه النسبة ترتفع الى ٥٠٪ تقريبا في دول غربي افريقيا . وانني اعتقد ان هذه الظاهرة عامة في جميع بلاد العالم المتخلف وسببها ان الاقتصاد الانتاجي ضعيف خصوصا في القطاع الخاص Private sector . كما انه يجب ان نلاحظ ان موظفي الحكومة والخدمات المدنية لا يمكن ان يكونوا جميعا في الطبقة "الشبيهة بالطبقة الوسطى" لأن نسبة عالية من موظفي الحكومة يتقاضون معاشات ضئيلة وحالهم المادي لا يختلف كثيرا عن بعض الجماعات البروليتارية .

ويضع جندارم على قمة الهرم التسلسلي الطبقات

Digitized by Birzeit University Library

البرجوازية والارستقراطية وهو يعتبرها غير متجانسة رغم اشتراكها في الدخل العالي والمكانة الاجتماعية العالية . ويدخل في صفوفها العصريون والتقليديون ، ومن العصريين يوجد اصحاب المهن كالمحامين والاطباء والمهندسين واصحاب العمل والتجار الكبار واصحاب البنوك وغيرهم ممن هم في طليعة النشاطات الاقتصادية الحديثة . ومن التقليديين نجد ملاك الاراضي الكبار الذين هم في العالم الثالث نسبة ضئيلة من سكان الريف يملكون القسط الاكبر من مساحة الاراضي الريفية وفي هذه الجماعة الارستقراطية القديمة من يرجع تاريخ وجوده الى ما قبل العهد الكولونيالي وهو عادة يفتخر بالحسب والنسب .

من وجهة التطور ، لا يكفي ان نعرف هوية الناس الموجودين في كل طبقة اذ علينا ان نتساءل عن معنى الطبقية التطورية اي ما هي المشاكل التي تخلقها للتطور . الطبقة الرأسمالية التقليدية هي مانع قوى لتطور المجتمع ، وقد ذكرنا بعض الاسباب لهذه المشكلة ، فهي رغم غناها قلما تستثمر رؤوس اموالها واذا استثمرتها فهي لا تستثمرها في النشاطات الاقتصادية النافعة للمجتمع ككل الا في النادر . لذلك فهي طبقة غير منتجة وهي غير تطورية لأنها لا توظف عددا كبيرا من العمال في نشاطاتها ولا تدخل الكثير من النشاطات الاقتصادية العصرية . وهذه الطبقة قوية للغاية ونفوذها كبير في معظم بلدان العالم الثالث . وحيث انها زراعية فغناها اساسه ملكية الارض ، وحيث ان مساحة الارض محدودة وملاكها غير منتجين ولا يستثمرون اموالهم فاننا نجد ان تأثير هذه الطبقة على البلاد سلبي في كثير من معانيه . وهي تضر بالبلاد لأنها تتحكم في الارض ولا تنتج ما يكفي المجتمع . وغناها هو فقر الاخرين فنظامها

Digitized by Birzeit University Library

هو نظام حرمان denial system لأن كثرة الارض التي تملكها لا تترك للأخرين كفايتهم لأن الارض محدودة . هذا النوع من الطبقية غير المنتجة هو من اسباب هزيمة البلاد العربية امام الاستعمار وامام العدو الاسرائيلي لأنه من اسباب ضعف البلاد الاقتصادي ووقف امكانية تطورها .

اما البرجوازية الحديثة فحجمها صغير وفعلها قليل . ورغم ان نشاطها عصري ويظهر بأنه تطوري لكن اساليبها وتنظيماتها ما زالت تقليدية فهي ما زالت تعمل فرديا وعلى اساس عائلي - محلي فالاستثمار الذي يكون عن طريق الشركات محدود للغاية في نوعيته ومقداره . والجدير بالذكر ان البرجوازية الرأسمالية هي التي قادت التطور في العالم الغربي الصناعي اما في العالم الثالث فما زالت هذه الطبقة ضعيفة وثقافتها العملية محدودة .

وعلى العموم فالاغنياء في العالم الثالث يهتمون بالاستهلاك اكثر من الاستثمار وهذا صحيح في كثير من البلدان العربية حيث يعتمد الاستهلاك على الانتاج الاجنبي نظرا لأن الانتاج العصري المحلي محدود للغاية .

واذا اردت ان تتأكد من نوعية التطور العربي فأنت لا تحتاج الى معرفة قوية في الاقتصاد ولست بحاجة الى رؤية الارقام ، وكل ما تحتاجه هو عيناك فان زرت العواصم العربية ترى التطور بمظهره الجسمي . اذا زرت عمان مثلا تجد الفيلات والشوارع في الاحياء الغنية على الجبال تضاهي نظيراتها في عواصم البلاد الصناعية وتجد ان الطبقة الغنية لها اماكنها الخاصة مثل المحلات التجارية والنوادي والمقاهي. وعالم هذه الطبقة منفصل عن عالم الناس . فاذا ابتعدت مسافة قصيرة عن هذه الاحياء الجميلة خصوصا اذا نزلت الى الاودية فانك تجد الشعب الاردني بفقره وتعاسته . واذا

Digitized by Birzeit University Library

خرجت من العاصمة وجدت ان عدم التوازن التطوري في البلاد بالاضافة الى كونه طبقيا هو ايضا جغرافي ، فكلما ابتعدت عن العاصمة كلما رأيت فقرا اكثر فكأن نظر الدولة قصير لا ترى به الا من حولها ومن تعرفهم فقط . واذا نظرت الى الفنادق فانك ترى مسرحية ثانية ؛ هذه الفنادق مبنية للغني وللاجنبي وحتى لو كنت من الطبقة المتوسطة فانك لن تستطيع البقاء في مثل هذه الفنادق اكثر من يومين او ثلاثة ثم تجد نفسك في حيرة لانك اذا حاولت الذهاب الى الفنادق الرخيصة وجدتها قذرة فاما ان تدفع اسعار الفنادق الغالية وتقصر زيارتك او تنام في فنادق لا يمكنك الارتياح فيها ، وفي كلتا الحالتين تجد نفسك تخرج من المدينة بسرعة هائلة الا اذا كان هنالك بعض الاقارب ممن يمكنك ان تنزل في بيوتهم .

وهناك نقطة اخرى مهمة للتطور وهي ان الطبقة الوسطى صغيرة في بلدان العالم المتخلف ومعنى ذلك ان التطور فيه فجوات حيث القليل يملك الكثير والكثير يملك القليل . في مثل هذا المجتمع لا يوجد استقرار سياسي الا بالقوة والقوة لا تدوم . وهذا المجتمع هو عرضة للثورات والثورات تقودها الطبقة المتوسطة وتدعمها الطبقة الدنيا . وحيث ان الطبقة الوسطى في العالم العربي تشعر بضغوط الحياة اكثر من الطبقة الدنيا التي ربما اعتادت على فقرها او لأن ثقافتها محدودة فالاولى هي التي تثور اولا . وشأنها شأن الجائع الذي يشم الاكل ويراه امام عينيه ولكنه لا يأكله ولا يشبع حتى اذا صح له ان يأكل القليل منه . فهو يعرف معنى الحياة "الطيبة" لأنه تذوق القليل منها ولأنه قرأ عنها ورآها ولكنه محروم منها ولذلك فهو لا يستكفي بالقليل بل يطلب المزيد دائما . والطبقة الوسطى لا تتطلع الا الى فوق ، واذا تطلعت الى اسفل فهدفها هو الثورة على الاعلى والحصول على

Digitized by Birzeit University Library

الاكثر . وبالرغم من ان التطور محدود وليس منتشرا بين السكان وعلى سعة البلاد فان القليل منه قد تسرب الى بعض الناس في الطبقة الدنيا ويظهر في نوعية الاستهلاك كالتليفزيونات والراديوهات التي من شأنها اثارة الرغبات لمستوى استهلاكي اعلى . ومعنى هذا ان الطبقة الدنيا قابلة للحركة نفسيا وان لم تشبع رغباتها فهي عرضة للهيجان والنقمة .

كل مجتمع فيه طبقات ، ولكن المجتمعات التي تكون فيها الطبقة الدنيا كبيرة ومعدمة هي مجتمعات لا تتطور بسهولة . ففي العالم المتقدم ، الطبقة الوسطى كبيرة والطبقة الدنيا مستواها المادي عال نسبيا اي بالنسبة لمستوى الطبقة الدنيا في العالم المتخلف . وهناك في العالم المتقدم جماعات فقيرة جدا ، ولكن نسبتها للمجموع السكاني ليست كبيرة كما هو الحال في العالم المتخلف . والفجوة التي تفصل الغني عن الفقير في البلاد المتخلفة هي اوسع بكثير من الفجوة التي تفصل الغني عن الفقير في العالم المتقدم (باستثناء الجماعات المعدمة في هذا العالم الاخير) .

وهذه الفوارق تظهر في توزيع الدخل . فحسب دراسة خاصة عن عينة من البلاد المتخلفة نجد ان ٢٠ بالمئة من سكانها يحصل على ما يقارب ٥٠ بالمئة من الدخل القومي و ٢٠ بالمئة اخرى لا تحصل على اكثر من ثلاثة الى خمسة بالمئة من الدخل القومي . وفي لبنان عام ١٩٦٠ كان الحال اسوأ حيث كان ٢٠ بالمئة من السكان يحصلون على ٦٠ بالمئة من الدخل القومي (٢٩). هذه الارقام توحي بحقيقة ما ذكرناه سابقا عن الطبقية والفوارق في العالم الثالث .

التفسّخ والانقسامات الاجتماعيّة. اكثر مجتمعات العالم ان كانت عصرية او تقليدية لا يوجد فيها انسجام وتجانس كلي

Digitized by Birzeit University Library

ولكن التجزؤ الاجتماعي يكون بنسب مختلفة وعلى درجات متفاوتة ، وحسب دراسة خاصة عن الأثنية القومية Ethnonationalism هناك في العالم ١٤ امة فقط لا يوجد عندها مشكلة اقليات كبيرة واكثرها عددا هي اليابان (٣٠). وحسب هذه الدراسة فان اربعة بالمئة من سكان العالم يعيشون في امة ـ دولة nation-state متجانسة فيها جماعة اثنية واحدة . وفي عام ١٩٧٣ كان في العالم ٥٨ قطرا تعاني من خلافات داخلية سببها تعدد الجماعات الاثنية .

بالاضافة الى الانقسامات الاثنية نجد في العالم الثالث انقسامات على اساس اختلاف اللغة . فغانا مثلا فيها خمس لغات والهند فيها ثماني لغات رئيسية و ٨٠٠ لهجة ، والفلبين ليست فيها لغة واحدة يتكلمها ثلث السكان ، وفي زئير يستعمل الاوروبيون والسكان اربع لغات للتفاهم وتستعمل اربع لغات اخرى في التعليم الابتدائي وثلاث لغات تستعمل محليا (٣١) .

وهناك بلاد تعاني من الانقسامات الدينية وربما كان لبنان المثل الكلاسيكي لهذا النوع من التناقض الداخلي حيث توجد ست طوائف دينية رئيسية : الموارنة وهم ٢٣ بالمئة من السكان والروم الارثوذكسي (٧٪) والارمن (٥٪) والمسلمون السنيون (٢٦٪) والمسلمون الشيعيون (٢٧٪) والدروز (٧٪) . وفي العالم العربي يكون الدين مشكلة عندما يتطور الى قومية كالموارنة في لبنان واليهود في فلسطين وعندما تصير له ارتباطات خارجية .

ان عدم التجانس الاجتماعي يشكل ـ من وجهة التطور ـ خطرا على البلاد التي تنتقل من المرحلة التقليدية الى المرحلة العصرية اكثر من خطره على البلاد الصناعية اذ يرى علماء الاجتماع ان عملية التطوير نفسها تزيد من حدة

Digitized by Birzeit University Library

الانقسامات الاثنية واللغوية والدينية والقبلية اي انه في مرحلة التطوير تزيد الانقسامات في المجتمع . وهم يقولون بالاضافة ان التطوير السريع ربما سبب عودة الناس الى التقليد والروحانيات والصوفية mysticism لشعورهم بتهديد العصرية لتقاليدهم واديانهم . والتطوير المادي يطرح السؤال عن الفوائد والمصالح الجديدة وعن حظ كل جماعة منها . فمن الجماعات من تستفيد اكثر من غيرها ومنها من لا تستفيد ابدا ومنها من تخسر فلذلك نجد ان التطوير يؤثر على التركيب الاجتماعي التقليدي ويخلق جماعات جديدة ومصالح جديدة وعلاقات جديدة ، وتتنافس هذه الجماعات لزيادة نفوذها ومصالحها وان لم تدرك الدولة خطورة الموقف حصل الانفجار نتيجة لهذه المنافسة . وفي كثير من الاحيان يختلط توزيع الفوائد مع الفوارق الدينية او الاثنية او اللغوية او القبلية فيزيد من حدة هذه الفوارق ويحصل الانفجار .

Digitized by Birzeit University Library

(١) العالم الثالث يحتوي على الدول المستقلة في امريكـــــا الجنوبية وامريكا الوسطى وال Caribbean والشـــرق الاوسط وشمال افريقيا وجنوب Sub-Saharan الصحراء الافريقية وآسيا والباسفيك . ويستثنى من هـــــذه المناطق البلاد الشيوعية واليابان واسرائيل .

(٢) Robert P. Clark, Power And Policy In The Third World (New York: John Wiley and Sons, 1978,)p. 29.

(٣) U.S. Arms Control and Disarmament Agency, World Military Expenditures and Arms Transfers 1965 - 1974 (Washington : USGPO, 1976).

(٤) المصدر السابـــق .

(٥) العالم الاول يحتوي الدول الغربية الصناعية .

(٦) المصدر السابـــق .

(٧) Lester R. Brown, The Interdependence of Nations (New York: Foreign Policy Association, 1972), pp. 14 - 15.
تقـــدير الحجم على اساس ارقام عام ١٩٧٠ .

(٨) William Ebenstein, Today's Isms (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice - Hall, Inc., 1958), p. 7.

(٩) نفس المصدر ، صفحة ٣٣ .

(١٠) A. James Gregor, A survey of Marxism (New York: Random House, 1965), p.228.

Digitized by Birzeit University Library

(١١) John A. Armstrong, Ideology, Politics, and Government in The Soviet Union (New York: Praeger Publishers,1967), pp. 32 - 33.

(١٢) Lenin, Imperialism: The Highest Stage of Capitalism (New York, The Vanguard Press, 1929).

(١٣) A. James Gregor, A survey of Marxism, p. 230. وقد اقتبسها هو من : Engles to Marx, October 7, 1958, Brief-Wechscl ... 11, 290.

(١٤) Paul Baran and Paul Sweezy, Monoploy Capital (New York: Monthly Review Press, 1966). Harry Magdoff, The Age of Imperialism (New York: Monthly Review Press, 1969).

(١٥) clark, power and policy, p. 37.

(١٦) Gunnar Myrdal, Assian Drama (New York: Pantheon, 1968).

The Challenge of World Poverty (New York: Vintage, 1970).

(١٧) Barbara Ward and René Dubus, Only one Earth (New York: Norton,1972). Alsoby Barbara Ward, The Rich Nations and The Poor Nations (New York: Norton, 1962).

Digitized by Birzeit University Library

(١٨) Cyril E. Black, The Dynamics of Modernization (New York: Harper and Row, 1966).

(١٩) انظر الى مقالة في :
United Nations Economic Commission for Latin America, The Economic Development of Latin America and Its Principal Problems, UN Department of Economic Affairs, Lake Success, N.Y. 1950.

(٢٠) الاحصائيات الكافية مأخوذة من :
Clark, Power, pp. 40 - 43.

(٢١) الاحصائيات التي لم تؤخذ من مصادر اخرى جاءت من المصدر السابق.

(٢٢) Barbara Ward, The Rich Nations and The Poor Nations (New York: Norton, 1962), pp. 88 - 89.

(٢٣) Malcolm H. Kerr, Egypt Under Nasser (New York: Foreign Policy Association, 1963), p. 18.

(٢٤) Georgiana G. Stevens, Egypt: Yesterday and Today (New York: Holt, Rinehart & Winston, 1963) p. 135.

(٢٥) W. F. Abboushi, Political Systems of the Middle East. (New York: Dold, Mead & Co., 1970), p. 167.

(٢٦) Clark, power, p. 45.

Digitized by Birzeit University Library

(٢٧) W. F. Abboushi, The Angry Arab (philadelphia, The Westminster Press, 1974).

(٢٨) المعلومات هذه مأخوذة من :
Clark, power, pp. 46 - 48.
واخذها كلارك من :
R. Gendarme, "Reflections in Approaches to The problems of Distribution in Underdeveloped Countries," in Jean Marchal and Berrard Ducros, eds., The Distribution of National Income (London: Maemillan, 1968), pp. 361-388.

(٢٩) اخذ كلارك هذه المعلومات من :
Elias Gannage, "The Distribution of Income in Underdeveloped countries," in Jean Marchal and Bernard Ducros, eds., The Distribution of National Income (London: Macmillam, 1968).

(٣٠) Walker Connor, "The Politics of Ethnonationalism," Journal of International Affairs, 27 (1) (1973), pp. 1 - 21. Also Clark, p. 48.

(٣١) كلارك ، صفحة ٤٩ وايضا
Rubert Emerson, From Empire to Nation (Cambridge, Mass: Harvard, 1960).

Digitized by Birzeit University Library

(١٧) Cyril E. Black, The Dynamics of Modernization (New York: Harper & Row, 1966).

(١٨) [illegible]

United Nations Economic Commission for Latin America, The Economic Development of Latin America and [illegible] Problems [illegible] Affairs, [illegible]

Clark, power, pp. [illegible]

(١٩) [illegible]

Barbara Ward, The Rich Nations and The Poor Nations (New York: [illegible] (1962), pp. 88 - [illegible]

Malcolm H. Kerr, Egypt Under Nasser (New York: Foreign Policy Association, 1963), p. 28.

Georgiana G. Stevens, [illegible] and Today (New York: [illegible] Winston, 1963), p. [illegible]

(٢١) [illegible]

W. F. Abboushi, [illegible] the Middle East (New York: [illegible] Mead & Co., 1970), p. [illegible]

Clark, power, p. 45.

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثاني

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

ظاهرة العصرية

كلمات كالعصرية والتحديث والتطوير والانماء يستعملها الكتاب والعلماء دون تحديد معان ثابتة لها . ويقول البروفسور بلاك C.E. Black ان التحديث Modernization هو اصطلاح عام يعني عملية تغيير سريع في العلاقات والشؤون الانسانية وهو استعمال يرجع تاريخة الى الثورة العلمانية ولهذا فهو ليس قديما في التاريخ (١) . ولكن كلمة "عصرى" او "حديث" اى modern بمعنى صفة خاصة بفترة تاريخية معينة لم يظهر استعمالها الا عن طريق اللاتينية في القرن السادس . وكانت تستعمل باللغة اللاتينية وبعدها باللغة الانجليزية لتميز الكتاب المعاصرين contemporary عن الكتاب القديمين ancient ولكن كلمات مثل العصرية modernity والعصريين modernizers والتحديث modernization كانت تستعمل في القرن السابع عشر بمعان مختلفة ومحدودة من الوجهة التقنية .

وكان لكلمة "العصرى" معنى سيء في الماضي القديم وكان شكسبير يستعملها لتعني التافة والعادى . واستعملها بمعناها السيء الكتاب الانجليز في ذكر زعماء الثورة الأفرنسية . واستعملت الكلمة في القرن السابع عشر من قبل المؤرخين الاوروربين بعد ترك التقييم المسيحي للفترات التاريخية واستبداله باصطلاحات جديدة تميز ثلاثة عصور تاريخية فقط : القديم ، الوسيط ، المعاصر . اما التاريخ الحديث فقد كان الناس يعتبرون انه بدأ بسقوط القسطنطينية وذلك وقت طلوع الشمس يوم ١٤٥٣/٥/٢٩ او باكتشاف امريكا الساعة الثانية صباحا في ١٤٩٢/١٠/١٢ . واليوم يستكفي الكتاب بالقول ان التاريخ الحديث بدأ حوالي عام ١٥٠٠ .

Digitized by Birzeit University Library

ولكن كلمة العصرية لم تستعمل لتمييز خصائص البلاد المتقدمة تكنولوجيا الا في الجيل السابق فقط . وهذا ايضا صحيح بالنسبة لاستعمال كلمة التحديث modernization بمعنى عملية الحصول على هذه الخصائص . ولكن " التحديث" لم تكن الكلمة الوحيدة المستعملة بمعنى عملية التغيير . ففي بعض الاحيان كانت تستعمل كلمات مثل Westernization و Europeanization. ففي الأدب الاولي عن عملية الانماء والتطور تجد أن الارتباط بين التحديث modernazation والاوربة Europeanization كان وثيقا لدرجة ان احدى الكلمتين كانت تستعمل مرادفا للاخرى . وكان الباحثون والكتاب في علم التطور والانماء منقسمين في مقارنة البلاد المتخلفة بالبلاد المتقدمة على اساس نمط التطور الاوروربي European model وفي هذه المقارنة كانوا يستعملون نظرية "مرحلة الاقلاع" take-off stage في التطور ،وهي نظرية تدرس الوضع الأوروبي قبل عملية التحديث وطريقة اقلاعه نحو العصرية وتقارنه بالوضع المتخلف في بلد ما وتجد الاسباب لتخلف هذا البلد وتضع الحلول لتقدمه ولوصوله "العصرية" على اساس الخبرة في التطور الأوروبي .

ولكن تطور علم الانماء نفسه يرفض المنهاج الاوروبي ونظرية "مرحلة الاقلاع" المتعلقة به ومن ابرز العلماء في هذا التطور هو جانر ميردل Gunnar Myrdal السويدى . فقد ذهب على رأس فرقة ابحاث الى جنوب شرقي آسيا ووضع مؤلفه الكلاسيكي Asian Drama بعد بحث ودراسة استغرقت عشر سنين(٢) . ومن نتائج بحثه قوله ان اوروبا في مرحلة الاقلاع لم تكن تشبه جنوب شرقي آسيا اليوم ، ولذلك فالمقارنة بين المنطقتين لا تجدى ووضع الحلول على

Digitized by Birzeit University Library

اساس المنهاج الاوروبي لا يفيد بل بالعكس فهذه المقارنات تسبب الاخطاء الكثيرة في دراستنا للعالم المتخلف . وقال ان اوروبا في مرحلة الاقلاع كان حظها كبيرا لان نسبة السكان للمساحة الارضية كانت منخفضة بينما نجد هذه النسبة عالية في جنوب شرقي آسيا وهذا سبب مهم لاختلاف الحلول التطورية في المنطقتين (٣).

والفرق الظاهر بين العالم المتخلف والعالم المتقدم هو ان العالم المتقدم صناعي . وهنا نجد كثيرا من الكتاب والمفكرين يركزون على هذا الفارق لدرجة ان التحديث يصير عملية تصنيع ناجحة وكل بلد تنجح في التصنيع تصير "متغربنه" Westernized . ويظهر أن هؤلاء الكتاب لا يختلفون عمن سبقهم في التاريخ عندما كانت النظرية تقول ان "العصرى" أو "المتقدم" او "الراقي" او "المتمدين" هو المسيحي او الابيض اللون . وذهب الاوروبيون لاستعمار البلاد المتخلفة لترقيتها ، حسب ظنهم ، فاستعملوا عبارة "نصرنة" العالم المتخلف وعبارة "عبء الرجل الابيض" white man burden ليعنى مسؤولية الابيض في ترقية غير الابيض . وطبعا تدل مثل هذه العبارات على شعور البيض بالتفوق surperiority feeling وبالعنصرية .

ويقول بعض المفكرين ان علاقة الصناعة باوروبا ليست علاقة عضوية فالتصنيع ممكن في بلاد اخرى دون ان تصبح "غربية" او "اوروبية" رغم ان اول من نجح في التصنيع كانت اوروبا . ولكن حسب مفهومنا الحاضر او المعاصر لا نعرف الحياة العصرية الا في البلاد الصناعية . ولهذا نطرح السؤال الفلسفي الثاني : هل من الممكن ان تتطور بلاد ما وتصبح عصرية دون صناعة؟ اذا كان الجواب هو نعم

Digitized by Birzeit University Library

فعلينا ان نجد مثالا واقعيا واذا لم نجده فعلينا ان نوجده في المستقبل القريب .

وسبب التبلبل الظاهر في معاني العصرية هو صعوبة اعطاء كلمة العصرية او كلمات التحديث والتطور معاني خاصة لان هذه الكلمات لها ظواهر عامة فالتغير العصري او التحديث حصل ، حيث حصل ، في جميع نواحي الحياة : في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والسايكولوجية ، وفي الحقيقة ان نظرة العلماء الاولى للتطور كانت اقتصادية ـ مادية ولذلك كان الاقتصادي هو اول من دخل حقل التطور والانماء . والسؤال الاساسي الذي كان يشغل بال هذا الاقتصادي عن البلاد المتخلفة هو : كيف يمكن رفع مستوى المعيشة في هذا البلد المتخلف ؟ اى كيف يصبح بالامكان معالجة مشكلة الفقر ؟

ولكن اصحاب الاقتصاد اكتشفوا بسرعة انه لا يمكن رفع مستوى المعاش في اى بلد متخلف دون معالجة مشكلة الثقافة واسلوب الحياة فيه فالتقاليد مثلا ربما كانت عقبة امام الجمهور العصرى في البلاد . فدخل رجال الاجتماع حقل التطور ولكن سرعان ما اكتشف الاثنان ، رجل الاقتصاد ورجل الاجتماع، أن التطور والتحديث ليسا مشاريع خاصة بل ظواهر معقدة تحتاج مجهودا عاما وتتطلب اشتراك المجتمع بأكمله . ومعنى هذا أن التطور لكونه شيئا كليا يحتاج الى مؤسسات خاصة وعامة للسير به نحو اهدافه الكبرى . فبدأ الاهتمام بمؤسسات الدولة والاحزاب والنخبة القيادية والايدولوجية السياسية والحكومات ونوع نظام الحكم او السياسة بوجه عام ودخل اختصاص العلوم السياسية حقل التطور والانماء .

وربما لا نستطيع معرفة وقت دخول هذا النوع او ذاك من اصحاب الاختصاص الذين ذكرناهم وحتى ربما لا نستطيع ان نتأكد عن الترتيب الذي دخلوا به الحقل ولكن باستطاعتنا

Digitized by Birzeit University Library

القول ان اسباب الدخول هي اكتشاف كل اختصاصي حاجة الى الثاني والثالث بعد اكتشافه ان ظاهرة التطور هي ظاهرة كلية معقدة عامة . واليوم لم نتوقف عند هذا الحد فقد دخل الحقل عالم النفس على اساس اكتشافنا حقيقة جديدة مهمة للغاية وهي ان التطور نفسه هو ظاهرة نفسية تحتاج الى عوامل نفسية كثيرة وتخلق عوامل نفسية جديدة . واننا نستطيع القول ان العوامل النفسية المرتبطة بعملية التطور هي اساسية ومهمة لدرجة اعتقادنا ان العصرية هي نوع من السايكولوجية .

فالعصرية تتطلب اعادة تركيب المجتمع ، مؤسساته واسلوب حياته ووسائل انتاجه ، وهي ايضا تتطلب اعادة تركيب الشخصية الفردية واذا حصل تضارب بين التركيب الاجتماعي والتركيب الفردى ، فمعنى ذلك ان التطور سيكون محدودا ومهددا بالفشل الذريع .

ولاعطاء المثل على ما نقول بخصوص كون التطور ظاهرة كاملة وكلية باستطاعتنا تذكر بعض المشاريع الخاصة ومشاكلها التطورية . بعد الحرب العالمية الثانية بسنين قليلة اهتمت بعض البلاد المتخلفة بانشاء قرى نموذجية وبناء مشاريع اسكانية حديثة لتشجيع التطور العصرى للبلاد . وطلبت هذه الدول المساعدات المالية والتقنية من الدول المتقدمة والمنظمات الدولية . وقد استجابت بعض الدول المتقدمة لهذه الطلبات وبوشر بالعمل وانتهت بعض هذه المشاريع ودخلها السكان الجدد متوقعين هم وحكوماتهم والفنيون الاجانب ان العملية انتهت بنجاح . ولكن بعد سنة او سنتين تغيرت الفكرة عن هذه المشاريع لأنها لم تنجح من وجهة الهدف الذى وضعت له وهو تزويد ابناء القرية (وابناء جماعات اخرى قدرتها المادية محدودة)

Digitized by Birzeit University Library

بالبيوت الحديثة المهيأة بوسائل الراحة الموجودة في بيوت العمال الاوروبيين . وسبب عدم النجاح هو أن السكان الجدد لم يعرفوا كيف يعيشون على طريقة العامل الاوروبي ولذلك فقد دمروا واقتلعوا من الارض كل ما لم يحتاجوه لحياتهم التقليدية . وطبعا كان اكثر اجزاء البيت تأثرا بعمليات التخريبية هو الحمام فقد اقتلعوا منه الاحواض والمراحيض الافرنجية لأنهم لم يحتاجوها . وفي مشاريع افريقية كان السكان مسلمين ومزارعين ووجدوا ان استعمال المراحيض الاوروبية امر صعب بالنسبة لتحقيق المتطلبات الدينية .

وهناك عامل آخر وهو طريقتهم الريفية التي اعتادوا عليها وفي النهاية صارت القرية النموذجية غير ما كانت علية في البداية وهذا ازعج الفنيين والممولين للمشاريع ، ولكنهم تعلموا درسا مهما وهو أن التطوير يجب ان يأخذ بعين الاعتبار عادات الناس واسلوب حياتهم ؛ فاما ان يكون البناء على اساس هذه العادات او ان تغير العادات لتناسب البناء . ومن اصحاب الاختصاص من فكر ببرامج تثقيفية تسبق المشروع لتضمن أن الساكن الجديد تعلم الطرق الجديدة التي تناسب المشروع .

عَوامِل الإنتاج وَالتطوّر

يقول علماء الاقتصاد ان التطور يعتمد على معادلة ترتكز على اربع اعمدة يسمونها "عوامل الانتاج" factors of production وهي الثروة الطبيعية ، رأس المال ، المعرفة know-how ، والعمل labor . وهذا يعني ان التطور يتطلب استغلال نسب معينة من العوامل الاربعة . واذا نقص في البلاد المتخلفة واحد او اكثر من هذه العوامل فعليها التعويض عنه . وفي حال زيادة السكان فمن المستحسن

Digitized by Birzeit University Library

ايجاد طرق للحد من اعدادهم . مثلا ، هناك بلاد متخلفة غنية بالثروة الطبيعية ولكن ينقصها رأس المال الكافي للتطور وهناك بلاد عندها الايدى العاملة ولكن ينقصها رأس المال والثروة الطبيعية . وهناك بلاد متخلفة عندها رأس المال الكثير ولكن تنقصها الأيدى العاملة والثروة الطبيعية والمعرفة ، كالسعودية والكويت مثلا . وفي الاغلب نجد ان العالم المتخلف ينقصة رأس المال والمعرفة . وفي الحقيقة باستطاعتنا القول ان المعرفة الكافية غير موجودة في جميع البلاد المتخلفة . ورأس المال موجود عند القليل منها وهي عادة دول استطاعت الحصول على اسعار عالية لموادها الخام واكثرها بلاد غنية بالبترول .

طبعا مشكلة العمل هي مشكلة ايجاد الايدى العاملة المنتجة او مشكلة وجودها بكثرة لدرجة استيعابها للمنتوجات الزراعية واعاقة التقدم في الانتاجات الاخرى . البلاد التي تحتاج الى الايدى العاملة عليها استيرادها من ناحية وتشجيع النسل داخل تلك البلاد من ناحية اخرى . في العالم العربي ، دول الخليج عندها مثل هذه المشكلة ولذلك عليها اتباع سياسة تشجيع النسل وتشجيع الهجرة من الخارج الى الداخل ، فاميركا واستراليا وباقي البلاد "الجديدة" اتبعت مثل هذه السياسة . ولكن استيراد "الناس" عن طريق الهجرة يخلق مشاكل قومية واثنية وربما عنصرية ودينية . لذلك من الضروري وضع حلول لهذه المشاكل قبل وقوعها .

اما مشكلة كثرة السكان ، فالبلاد المتخلفة التي تعانيها بحاجة الى سياسة تشجيع الهجرة الي الخارج وتشجيع الحد من النسل وكل من الحلين صعب للغاية . مثل هذه البلاد لا تستطيع التطوير الا عن طريق توظيف اكبر عدد ممكن من الايدى

Digitized by Birzeit University Library

العاملة في النشاطات الاقتصادية الأنتاجية . ومن الغلط ان تستعين هذه البلاد بالآلات الميكانيكية التي توفر الحاجة للعمال الا في حالات خاصة . والسبب هو ان هذه الآلات تكلف الكثير من الأموال وتكون عبءً كبيرا على رأس المال الذي يكون عادة قليلا . فبدلا من زيادة مشكلة قلة رأس المال باستطاعة هذه البلاد تحويله الى استثمارات اخرى منتجة مع استعمال الأيدي العاملة بدلا من الآلات لتوفير الكثير من الامكانيات وبنفس الوقت يوظف العاطل عن العمل ليكون مستهلكا بدلا من أن يكون عالة على المجتمع .

اما الثروة الطبيعية فأمرها يختلف ؛ ففي البلاد المتخلفة الغنية بالثروات الطبيعية المشكلة هي ايجاد رأس المال والمعرفة لاستخراج وتسويق المواد الخام . والكثير من هذه البلاد لا يوجد لديها رأس المال ولا المعرفة فتصير بحاجة الى المصادر الاجنبية ومعنى ذلك الوقوع تحت رحمتها . مثل هذه البلاد تحتاج الى سياسة حكيمة للاستفادة من مواردها دون استغلال الأجانب لها . في البلاد التي تفتقر للثروة الطبيعية تصبح المشكلة اكثر تعقيدا ، لأن التطور الاقتصادي دون ثروة طبيعية صعب واستيراد هذه المواد رغم انه ممكن لكنه يكلف الكثير ولذلك يكون غير مفيد اقتصاديا الا في احوال خاصة في مثل هذه البلاد تصبح الحلول صعبة فاما أن تندمج مع بلاد مجاورة غنية بالثروة الطبيعية أو أن تتجه الى تطور غير صناعي وهذا طبعا يعتمد على عوامل أخرى . فالسياحة تحتاج المناخ ومجال الطبيعة . والتجارة تحتاج نوعية خاصة من الناس كاللبنانيين مثلا . أما التطور عن هذه الطرق فيكون محدودا بالأضافة الى كونه عرضة للتأثيرات الخارجية ومخاطرها السياسية .

Digitized by Birzeit University Library

رأس المال : كانت النظريات الاقتصادية القديمة تعتبر راس المال مفتاح التطور ومن اصحاب الاقتصاد من لا يزال يعتبره العامل الرئيسي . ولهذا وجدنا بحثه بالتفصيل ضروريا .

السؤال المهم في هذا الموضوع هو كيف تستطيع الدول المتخلفة الحصول على رأس المال الكافي للاستثمار والتطوير؟ ومصادر رأس المال عديدة : (المشكلة هي المبلغ وشروطه وطريقة استعماله) منها مصادر خارجية ومنها مصادر داخلية . اما الخارجية فهي ثلاثة : الدول الاجنبية الغنية مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي والدول الاوروبية واليابان ودول النفط ، والمنظمات الدولية والاقليمية كالبنك العالمي والصندوق المالي الدولي International Monetary Fund ومنظمات اوروبة الاقليمية والكمنولث . والبنوك والشركات الخاصة الدولية كجنرال موتورز وفورد والكترك كمبنى وعشرات البنوك الأجنبية .

مصدر الدول الاجنبية هو الاهم لأمكانياتها المالية فهي اكثر بكثير من المصادر الاخرى الخارجية . ولكن هذا المصدر مملوء بالمخاطرات فالذى يعطي يملي ومعنى ذلك ان المساعدات المالية للدول الاجنبية ، خصوصا الدول العظمى، تكون عادة مشروطة وهذه الشروط لها معان سياسية كبيرة للدولة المحتاجة . والدول المتخلفة تكون عرضة لفقدان حريتها وتأثر استقلالها وسيادتها تأثرا سلبيا . والدول العظمى تعتبر اعطاء المال اهم من اعطاء المعرفة التكنولوجية رغم ان هذه المعرفة تعطى في مشاريع الدول العظمى ولكنها ليست كافية .

Digitized by Birzeit University Library

مصدر المنظمات الدولية و الأقليمية محدود بالنسبة لمقدار المساعدات . فلسوء الحظ تفضل الدول الغنية العطاء للدول المحتاجة مباشرة والسبب واضح فالدول الغنية تريد مقابلا لما تعطيه . ولذلك تجد المنظمات الدولية و الاقليمية محدودة الامكانيات فهي تعتمد على الدول الغنية . هذه المنظمات من فوائد مساعدتها انها غير سياسية ، على الاقل نسبيا ، اى انها لا تضع شروطا سياسية للمساعدة ، (طبعا تأثير الدول الغنية على معظمها موجود ولكنه غير مباشر) وهناك فائدة اخرى وهي تأكيدها على الناحية العلمانية اى الاقتصادية او التكنولوجية ولذلك تجد هذه المؤسسات الدولية محافظة نسبيا (خصوصا البنك الدولي) فلا تعطى الا بعد تأكدها من امكانية جدوى المشاريع مع الوجهة الاقتصادية والتطورية ومن وجهة منفعة الجهة التي تتسلم المساعدات . ولكن بالاضافة لكون المساعدات قليلة من حيث مقاديرها فان الفائدة التي تفرضها معظم هذه المؤسسات ذات نسبة عالية تقارب فائدة البنوك التجارية .

المصادر الخاصة كثيرة فهناك البنوك الاجنبية كستي بانك Citibank وبنك منهاتن Manhatten وبنك امريكا وبنوك اوروبية عديدة . وبديهي ان تكون هذه البنوك مؤسسات لا تهتم الا بالربح فهي بنوك تجارية خاصة . ولهذا فالاعتماد عليها يكلف الكثير بالنسبة لشروط الدين ، من وجهة الفائدة ومن وجهة شروط الدفع (مدة الدفع قصيرة مثلا).

وهناك مصدر خاص آخر هو الشركات الدولية التي تستثمر الاموال للربح . ومن ميزة هذه الشركات على المصادر الأخرى كلها هو الفائدة التكنولوجية اذ لديها ، طبعا كمجموعة ، الفائض من المعرفة الكيفية know-how . ولكن لسوء الحظ فان الدافع لهذه الشركات هو الربح وليس لها دوافع اخرى

Digitized by Birzeit University Library

ولذلك فهي تعمل في مناخ سياسي و اقتصادى خاص لتضمن اكبر قدر من الأرباح . وانني اعتقد ان خطر هذه الشركات على المصالح المحلية في البلاد المتخلفة هو اكثر بكثير من خطر الحكومات . فالحكومات لها دوافع في علاقاتها الخارجية معقدة ومنوعة وهي تختلف من بلد الى بلد ومن منطقة الى منطقة . والمصالح الاقتصادية القومية التي تمثلها هذه الحكومات رغم انها قومية ومهمة الا انها ليست الاعتبار الوحيد في تخطيط العلاقات الخارجية للبلاد المتقدمة . على الاقل باستطاعتنا القول ان اعتبارات اخرى غير مادية يمكن ان تحد من العوامل الاقتصادية او تلطف جوها . اما في ما يتعلق بالشركات فمصلحتها واحدة وفردية ولا يوجد لها الا ما تضعه هي ، كما انها هي من الاسباب المهمة التي تجعل الحكومات غير متزنة في تنويع مصالحها الاقتصادية وغير الاقتصادية الخارجية .

ولكن ما هو اكثر خطرا هو تأثيرها ليس على حكوماتها هي بل على حكومات الدول المتخلفة الضعيفة . فهي تحاول التأثير عليها لضمان اقصى نسبة من الارباح وفي بعض الاحيان ، خصوصا اذا اتيحت لها الفرصة ،لا تضع الحدود لضغوطها وتأثيراتها لانها تصبح هي القوة وراء الحكم المحلي . ويجب ان لا ننسى في تاريخ امريكا الجنوبية القريب ما يسمى " بجمهوريات الموز" banana republics مثل غواتيمالا وهندوراس واكوادور حيث كانت تتحكم بها الشركة الأمريكية المعروفة بشركة الفواكة الاتحادية United Fruit Co. ويجب ان لا ننسى ايضا الدور الذى لعبته ATNT (الامريكية) في جمهورية تشيلي اللاتينية . وهذه الفضائح التي ذكرناها

Digitized by Birzeit University Library

لم تكن اشاعات او هواجس ماركسية هدفها اساءة سمعة اميريكا والنظام الرأسمالي اذ انها ظهرت واضحة في التحقيقات التي قام بها الكونجرس الامريكي من مدة ليست بعيدة .

وكما قلنا هناك المصادر الداخلية لجمع رأس المال الضرورى للاستثمارات التطورية . وهي عديدة وهدفها التوفير للاستثمار . فالحكومة تستطيع تشجيع الانتاج الرأسمالي الخاص وذلك عن طريق الاعفاء من الضرائب وتقديم المساعدات المالية له والتسهيلات الخاصة الضرورية لنموه وتطوره . واذا كان في البلاد اصحاب اعمال نشيطون وعصريون في تفكيرهم فسوف يكون باستطاعتهم انشاء الشركات واستثمار رؤوس الاموال وتزويد الناس بدوافع مادية لشراء الاسهم ودعم العمليات الانتاجية ، وهذا يكون عن طريق الدعاية وايجاد الضمانات لهم للحفاظ على مصالحهم المادية .

اما اذا كان الاستثمار اشتراكيا فباستطاعة الدولة الحصول على رأس المال عن طريق الاستيلاء عليه بطريقة ما . ومن المنافع التي حصلت عليها الدولة السوفييتية في مطلع العهد الشيوعي هو الاستيلاء على الاملاك الخاصة دون التعويض عنها . والكثيرون من اصحاب الاختصاص يتجاهلون هذه الحقيقة في تقييم التطور الصناعي الذى حدث في الاتحاد السوفييتي . فالدولة حصلت على قيم رأسمالية لم تكلفها الكثير واستطاعت جعلها تتحرك في مشاريع تطورية مدروسة . وقد كلفها الأستيلاء على الملكية الخاصة الرأسمالية الكثير من المعرفة الكيفية know-how التي كانت عند الرأسماليين اصحاب الخبرة في الاعمال التجارية والزراعية والنشاطات الاقتصادية المنتجة . ولكن الشيوعيين وجدوا ان هذه المشكلة اسهل حلا من مشكلة جمع رأس المال ، وعودة لينين

Digitized by Birzeit University Library

عام ١٩٢١ الى ما سمي بالسياسة الاقتصادية الجديدة NEP كان من دوافعها اعادة اصحاب المعرفة الى مراكز الاعمال الانتاجية لتستفيد منهم الدولة في تطوير الاقتصاد القومي الاشتراكي .

ولكن في الحقيقة أن جمع رأس المال في جميع البلاد الصناعية العصرية ، ان كانت رأسمالية أو اشتراكية ، كان عن طريق تحويل العمل الى رأسمال وهذا التحويل معناه تشغيل الناس ساعات طويلة بنشاطات انتاجية دون ان تدفع لهم الاجور التي يستحقونها وهذا معناه أن صاحب العمل، ان كان دولة او شخصا ، وفر قيمة العمل غير المدفوعة واستعملها كرأس مال لزيادة استثماراته الاقتصادية . لذلك فاننا نقول أن استغلال العامل كان اهم طريقة للتطور الاقتصادى في جميع البلاد والمناطق الصناعية العصرية . ففي امريكا ، كان استعباد السود الافريقيين في القطاع الزراعي خطوة في هذا التطور والغريب ان الاسود لم يخرج من العبودية الا عن طريق الصناعة في الشمال الامريكي ولكن الشمال استغله كعامل فكانت اجوره اقل الاجور وكان يوظف آخر الناس ويفصل عن العمل اول الناس .

والتاريخ الامريكي يروى قصة الملايين من المهاجرين الى امريكا وكيف كانت الشركات واصحاب الأعمال والوسطاء middle men يستغلونهم ويروي ايضا عن النقابات العمالية والقوة التي كانت تستعمل في تحطيمها ومنعها من العمل الحر . وفي الحالات الأخيرة كانت الدولة تساعد اصحاب العمل لأن القانون العرفي الأمريكي (الذى كان في اصله انجليزيا) لم يكن يسمح لهذه النقابات بالوجود . ويجب ان لا ننسى القيمة التطورية للاراضي الشاسعة التي حصلت عليها امريكا اما بالقوة او بالشراء بثمن بخس

Digitized by Birzeit University Library

وكيف استعملت الدولة الامريكية هذه الاراضي لتشجيع التطوير الرأسمالي الخاص وذلك عن طريق بيعها باسعار باخسة واحيانا بدون مقابل للافراد وللمؤسسات (كالكليات والجامعات) . وهذه العملية لا تختلف ، من الوجهة الاقتصادية ، عن عملية المصادرة في البلاد الشيوعية اذ ان معناها هو الحصول على رأسمال دون ان يكلف الكثير اى رأسمال حر free (وطبعا في الولايات المتحدة غير الاشتراكية اعطت الحكومة الكثير من رأس المال هذا للافراد).

اما في الاتحاد السوفياتي ، في مرحلة التطور الصناعي، خصوصا في الثلاثينات وفي عهد مشاريع السنوات الخمس الاولى فقد حصل استغلال العامل بطريقة بشعة للغاية وكان الهدف هو جمع رأس المال واستعماله في التطور الاقتصادى . والتاريخ يحدثنا عن نظام العمل Labor discipline الشديد وعن المخيمات العمالية Labor Camps التي كانت من الوجهة الاقتصادية بمثابة عمل سخرة Unpaid Labor وهو في الحقيقة رأس مال "حر" أي دون تكليف .

ولا تختلف اليابان عن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي في تطورها الصناعي فقد لجأت لنفس الطريقة وهي تحويل العمل الى رأسمال عن طريق استغلال العامل. ومن الطرق التي استعملتها اليابان وما زالت تستعملها استغلال التقاليد اليابانية (العائلية مثلا) لاستغلال العامل .

ولكن هناك فرق بين الاستغلال في الاتحاد السوفياتي وبينه في امريكا . ففي البلد الأول كان هذا الاستغلال بأمر من الدولة ، طبعا لأن الاقتصاد فيها اشتراكي اى اقتصاد دولة ، اما في امريكا فالاستغلال المباشر كان من

Digitized by Birzeit University Library

قبل اصحاب العمل ولكنه كان في كثير من الأحيان مدعوما من قبل الدولة . فالعبودية مثلا كانت لمدة طويلة مسنوده من قبل القانون الفدرالي وقانون الولاية .

وهناك عامل آخر مشترك للتطور الصناعي لجميع الدول العصرية : في مرحلة التطور الصناعي تتخذ هذه الدول سياسة الانعزال او شبه الانعزال عن العالم الخارجي . والسبب الاقتصادي الرئيسي لهذا الانعزال هو التركيز على التطور الداخلي والحفاظ على امكانيات البلاد التطورية ومنها رأس المال والمعرفة الكيفية . في الاتحاد السوفييتي استمر الانعزال من ١٩١٧ الى عهد خروشوف في الخمسينات . وسمي تشرتشل هذه الظاهرة "بالستار الحديدى". ولهذا الستار معان كثيرة بالنسبة للعالم الغربي ، فهو ستار "العبودية" والاضطهاد أما بالنسبة لمعناه الاقتصادي فلم يكن هذا الستار غريبا على الولايات المتحدة واليابان اذ أن تاريخ البلدين يوحي بوجود "فترة الانعزال" التي كانت طويلة خصوصا في التاريخ الأمريكي . والفرق بين "الستار الحديدى" الروسي و "الانعزال" الامريكي هو في ان الاول كان رسميا اي سياسة حكومية رسمية وان الثاني كان شبه رسمي وكان اقل حدة . وربما كان سبب التشدد الروسي هو قصر الفترة ، فالروس أرادوا التصنيع بسرعة وبفترة قصيرة ، اما الأميركان فكانت عملية التطور عندهم اطول .

المعرفة الكيفية Know-how : من العلماء الجدد من يقول ان المعرفة الكيفية هي اهم من رأس المال بكثير ويعطون المثل على ان الشعب الذي "يعرف كيف" يعرف الحصول على رأس المال غير الموجود. ومعرفة "كيف" هي التعليم education والمعرفة التقنية خصوصا "الموهبة" في تنظيم الأعمال والنشاطات الاقتصادية enterprise الضرورية للتطوير الصناعي والتجاري .

Digitized by Birzeit University Library

ومن هؤلاء الاقتصاديين البروفسور جون كينث جالبرث John Kenneth Galbraith الذي يعطي اسرائيل كمثال على بلد استطاع التطور بسرعة لأن عنده المعرفة رغم نقصان رأس المال والثروة الطبيعية وحتى الثروة الأنسانية ، على الاقل في البداية .

نحن لا نوافق على نظرية البروفسور جالبرث وغيره من الذين يرون المعرفة الكيفية اساسا للتطور العصري . المعرفة الكيفية مربوطة بمراحل التطور فهي سبب التطور وحصيلته بنفس الوقت . فالبلد المتخلف يبدأ من نقطة منخفضة جدا في التعليم والثقافة والمعرفة العملية . وفي الحقيقة ان الامية هي من علامات تأخره ولو كانت عنده المعرفة الكيفية الكافية لما كان متأخرا فكيف بالأمكان افتراض وجودها قبل تطوره ؟ فهذا المجتمع المتأخر بحاجة الى رأسمال كبير لبناء المدارس ورفع مستوى الناس الثقافي التعليمي وايجاد نخبة تعرف كيف تطوره . وكلما كثر المتعلمون وكثرت الخبرات في المجتمع كلما زاد التطور العصرى ، اى ان معرفة الكيفية تعتبر سببا او دافعا للتطور في المراحل المتقدمة لا في المراحل الأولى حيث تكون مشكلة للتطور وسببا من أسباب التخلف . علاقة المعرفة الكيفية بالتطور هي علاقة تصاعدية اذ انها في البداية تكون قليلة ثم تصبح تدريجيا عجلة التطور . لذلك فاننا نرى ان جالبرت بعيد عن مشكلة التخلف لأنه يتجاهلها ببساطة نظريته .

واذا قلنا ان البلاد المتخلفة تستطيع استيراد المعرفة الكيفية فاننا نواجه نفس مشكلة استيراد رأس المال اذ ان الخبراء مربوطون بالحكومات والمنظمات الدولية والاقليمية والشركات الدولية . ومن هذه المؤسسات نجد فقط خبراء المنظمات الدولية بدون مصالح سياسية او مصالح مادية (الربح)

Digitized by Birzeit University Library

باستثناء وضعهم الشخصي ومصلحتهم الشخصية كأفراد . ولكن هذه المنظمات الدولية لا يوجد عندها ما يكفي لمساعدة العالم المتخلف . وطبعا يوجد امكانية استئجار خبراء غير مربوطين بمؤسسات كأساتذة من الجامعات وخبراء من الشركات (بعد ترك وظائفهم) ولكن مثل هؤلاء يكلفون الكثير، ومشكلتهم ان الكثيرين منهم لا يهتمون الا بالمنفعة الشخصية. ودراستي لشركة كويتية كبيرة تدل على أن "الخبير" الأمريكي على مستوى غير عال يكلف هذه الشركة معدلا يبلغ ٢٧ الف دولار امريكي قبل بدء عمله في اليوم الأول . ومن مشاكل هذه الشركة ان مثل هذا الخبير لا يبقى في وظيفته مدة كافية للاستفادة منه . فبعد ان يوفر المال الكافي ليبدأ عملا جديدا يعود الى بلاده وهذا "الخبير" ينظر الى الشركة نظرة سلبية وكذلك للبلاد التي هو فيها اى الكويت . اضف الى ذلك احتمال كون البلد المتخلف حساسا بالنسبة لوجود الأجانب خصوصا من الدول العظمى فالشعور القومي في العالم المتخلف قوي و الألعاب السياسية الدولية فيه قوية . وحتى البلاد التي جربت الارتباط بدول صناعية والاستفادة من خبراتها لم تنجح بالتطور كالهند في عهد نهرو وتركيا في عهد اتاتورك (وما بعده) . فأمريكا حاولت ان تعمل من هذين البلدين مثالا show case للبلاد المتخلفة الاخرى لتبرهن لها ان التطور العصرى ممكن عن الطريق "الديموقراطية" .

ان الاعتماد على الأخرين لا يجدى ، وهذه القاعدة صحيحة حتى في التطور . ومن يعتمد على غيره يصبح عبدا له ، هذا اذا كان الاعتماد كبيرا . ومن يعزل نفسه عن غيره مدة طويلة او ابديا لا يمكن ان يتطور، فالتعصب له عواقبه السلبية . والاعتماد على النفس يجب ان يكون بدون تعصب ويجب ان يكون الأساس لأن التعامل مع

Digitized by Birzeit University Library

الآخرين وانت ضعيف لا يمكن ان ينفعك بل بالعكس سينتج عنه خسارتك والسيطرة عليك . وهذا شأن الدول والامم .

واذا نحن اعتمدنا هذه الفلسفة فان التطور يحتاج الى أيدولوجية ونخبة من علية القوم عندها المعرفة الكيفية. والايدولوجية يجب ان تكون تطورية اى ليست فقط سياسية بل من نوعية تضع الاهداف الاقتصادية والطريقة التطورية في اطار عقائدى . فهي نفسها تكون طريقة تشقيفية ولكنها لا تأتي عن طريق الشهادات والمدارس بل عن طريق التبشير والايمان . ووراء هذه العقيدة تكون نخبة مؤمنه تكرس حياتها لها وهذه النخبة هي الانبياء والمبشرون (ليس ضروريا بالمعنى الديني بل بالمعنى الأيدولوجي اللاديني ايضا). وفي القرن العشرين ، لا يوجد عقائديون تطوريون غير الشيوعيين .

وهناك تطور عن طريق طبقة خاصة تعرف كيف تستثمر الأموال وتنظم الأعمال . وهذه الطبقة تظهر تحت ظروف اقتصادية معينة والمثل على هذا النوع من التطور هو اوروبا وخاصة بريطانيا . وتظهر هذه الطبقة في جو علماني يتيح لها الفرصة لتنظيم العمل والانتاج ليستفيد من الاختبارات العلمية وتكون هذه الطبقة مدنية تجارية ولا تكون زراعية اقطاعية وهي توجه اهتمامها الى الصناعة والبنوك وأعمال التمويل . وهي التي تطور البلاد بمساعدة الدولة التي تكون - في مرحلة معينة - تحت تأثيرها القوي.

والتطور سواء كان عن طريق الايدولوجية او عن طريق "نخبة عصرية" من رجال الاعمال لا يكون الا صناعيا.والمعرفة الكيفية في الانتاجات الأخرى كالزراعة مثلا لا تكفي لبناء مجتمع عصرى وذلك لأن العصرية كما نعرفها اليوم لم تكن الا نتيجة اقتصاد صناعي ولم تأت الا بعد الثورة الصناعية

Digitized by Birzeit University Library

في بريطانيا رغم قول المؤرخين انها بدأت عام ١٥٠٠ . هذا العام ربما صح لاظهار بعض العوامل الانتاجية التي ادت في النهاية الى انشاء مجتمع صناعي في اوروبا . فاكتشاف أمريكا كان مهما لتغيير نوعية الحياة الاقتصادية في بريطانيا هي التي ولدت العصرية ومن عواملها الثورة العلمانية او الاكتشافات العلمية التي هي اساس المعرفة الكيفية . وربما قلنا ان الثورة الصناعية لم تكن قد حدثت لولا وجود العوامل الانتاجية التي سبقتها كجمع رأس المال وخفض نسبة السكان الى الأرض عن طريق الهجرة والمجاعة .

ولكن المعرفة الكيفية تلعب دورا كبيرا ، اكبر من دورها العادى ، بين الجماعات غير الزراعية خصوصا الجماعات التي تفقد قاعدتها الارضية كالأرمن والفلسطينين واليهود الاوروبيين . عندما يفقد شعب ارضه او تفقد جماعة ارضها فان الناس يبتعدون عن الزراعة ويصبحون غير آمنين في ارضهم ولذلك تجدهم يتجهون نحو انتاجات غير زراعية عن طريق العلم اولا . مثل هذا الشعب او الجماعة ينشط في المجالات الاخرى ويصبح عصريا لفقدانه عناصر الاقتصاد التقليدى traditional economic security ولاكتسابه قابلية التحرك mobility التي تجعله عرضة للتأثيرات العصرية وتشجعه على دخول المجالات الاقتصادية غير التقليدية . وان لم يخسر هذا الشعب هويته بانتشاره فانه يصير شعبا عصريا ، وهذا شرط اساسي لتطوره كشعب او كجماعة ، والا ذاب في المجتمعات الأخرى ولم تعد له شخصية تطورية . وهذا المثال الوحيد لنجاح نظرية جالبرت التي تقول ان المعرفة الكيفية هي اساس التطور وانها اهم عوامل الانتاج . ولكن يجب ان نتذكر ان الشعب بدون ارض لا يكون "بلادا" او "دولة" الا اذا عاد الى قاعدته الارضية . واذا عاد الى ارض ليست له لا نستطيع ان ندرجه كمثل على

Digitized by Birzeit University Library

"بلاد" نجحت في التطور الا اذا كان "متخلفا" قبل انسلاخه عن الارض وعاد الى ارض غير متطورة .

فاليهودي الاوروبي ابتعد عن الزراعة مجبرا في معظم الاحيان ولكن تطوره لم يحث في بلاد متخلفة لانه بالاضافة الى كونه يهوديا هو اوروبي وطريقة حياته اوروبية اكثر منها يهودية . وابتعاده عن الزراعة جعله "نخبة" في الوجود الاوروبي العصرى وكذلك في الوجود الأمريكي . اما في اسرائيل فالدور الذى لعبه في تطور الارض هو دور اوروبي من وجهة المعرفة - الكيفية ومن وجهة اسلوب الحياة ؛ أى ان اوروبيته هي اساس عصريته لا يهوديته . ارض اسرائيل، كما يسمونها ،كانت من العالم الثالث اما شعب اسرائيل فلم يكن من العالم الثالث بل من العالم الاول . ورغم ان نسبة اليهود الشرقيين هي اليوم اكثر من نسبة اليهود الغربيين والشرقيون هم الأكثرية اليوم ، لكن التطور الاسرائيلي كان على أساس العنصر السكاني الغربي لا الشرقي ، وما زال الغربيون يسيطرون على اسرائيل اقتصاديا وسياسيا حتى يومنا هذا . والتطور الاسرائيلي لا يختلف من الوجهة العصرية عن التطور الذى حدث في بلاد الهجرات كأمريكا واستراليا وافريقيا الجنوبية وروديسيا . وفي الحقيقة هو اقرب الى التطور الروديسي والافريقي الجنوبي منه الى امريكا واستراليا . والسبب هو أن أمريكا واستراليا لهما قاعدة تطور اوسع من البلدين الاخرين وبذلك استطاعت الأنسلاخ عن اوروبا لتشكل وحدة اقتصادية مستقلة ضمن الحضارة الغربية . اما اسرائيل فقاعدتها محدودة وتطورها ، لذلك ، ما زال مربوطا بالعالم الغربي ، اى ان اسرائيل ليست مستقلة اقتصاديا ولولا دعم يهود اوروبا وامريكا السياسي لها لما استطاعت أن تستمر اقتصاديا او عسكريا في وجه العداء العربي لها .

Digitized by Birzeit University Library

ثم ان اسرائيل لا تختلف عن النمط الاستيطاني الاوروبي الذى اوجده الاوروبيون في العالم المتخلف . ففي فلسطين اخذ اليهود المناطق الساحلية واكثر الاراضي خصوبة فيها ودفعوا السكان الأصليين الى الداخل الى المناطق الفقيرة زراعيا بسبب نوع تربتها . وهذا حدث رغم ان "الداخل" اى الضفة الغربية هي ذات الأهمية لنظرتهم التاريخية والدينية . وهذا دليل آخر على ان اسلوب استيطانهم ونوعية ثقافتهم ونظرتهم هي جميعا اوروبية اكثر منها يهودية .

فالمثل الذى اعطاه جالبرت ليس مثلا صحيحا . والغريب انه اعطى جزيرة فرموزة أو تيوان كمثل شان . وهذا ايضا مثل خاطيء اذ ان هذه الجزيرة كان تطورها مربوطا بعاملين من عوامل الانتاج وكلاهما خارج عن امكانية الجزيرة العادية . اولا ، بعد اندحار النظام القومي (الكومندان) في الصين امام القوة الشيوعية هربت البرجوازية الرأسمالية الي الجزيرة وبهذه الطريقة حصلت الجزيرة على "نخبة" او جماعة تطور لها خبرة بالأعمال وعندها المعرفة الكيفية . واللاجؤون الذين اصطحبوا هذه "النخبة" كانوا بحكم وضعهم يملكون الدوافع incentives للعمل الانتاجي ، شأنهم شأن اللاجئين والمهاجرين في كل بلد يوجدون فيه ، كأمريكا واستراليا واسرائيل وافريقيا الجنوبية وروديسيا . ثانيا ، التطور الذى حدث في الجزيرة ، كالتطور الذى حدث في اسرائيل ، لا يمكن فصله عن رأس المال الاجنبي الذى دخل الجزيرة عن طريق المساعدات الامريكية ورأس المال هذا كان دافعه سياسيا وعسكريا .

طبعا لا يصح ان نحكم سلبيا على تطور بلد ما على

Digitized by Birzeit University Library

اساس مصادره الانتاجية الخارجية فاذا استطاع هذا البلد ان يستورد رأس المال للتطور الداخلي فلا مانع من ذلك . ومعارضتنا لجالبرت ناجمة عن انتقائه بلادا لم يكن التطور فيها "طبيعيا" بمعنى انها لا تمثل القاعدة السائدة في العالم المتخلف وهذه القاعدة هي بلاد غير متطورة ارضا وشعبا. فاسرائيل لم يمر شعبها ، او ذلك القسم من شعبها المسؤول عن التطور ، في المراحل التي تسبق العصرية كما هو الحال مع شعوب العالم الثالث ، ولم يمر بهذه المراحل السابقة في الارض نفسها اى في اسرائيل . والأموال التي تأتيها من الخارج هي من مصادر وقتية ومقاديرها غير عادية . ولا يمكن ان نتوقع هذه المقادير لمعظم البلاد المتخلفة الا في بلاد قليلة تكون علاقاتها الخارجية علاقة اعتمادية dependence هذه العلاقة توحي بأن اسرائيل هي امتداد لحضارة خارجية وبأن عصريتها لم تكن محلية الا بموقعها الجغرافي فقط . اما فرموزة فوضعها غريب ايضا لأنها استوعبت برجوازية خارجية كبيرة في بلاد صغيرة رغم ان قومية البرجوازية المستوردة وقومية البلاد الجديدة واحدة . هذه البرجوازية فشلت في الصين لأن حجمها كان صغيرا بالنسبة لارض الصين وشعبها والأهم أن اسلوبها لم يكن تطوريا وهي ما زالت في الصين . ولكن امكانياتها في الجزيرة صارت كبيرة بسبب حجمها بالنسبة للارض ورأس المال الذى حصلت عليه وحيوية السكان الذين حضروا معها الى الجزيرة من الصين اذ انهم حصلوا على حافز او دافع اقتصادى - مادى جديد .

العصرية الغربية

لكل زمن عصرية وعصرية هذا الزمن غربية . وهذا يعني ان اكثر الحضارات المعاصرة تقدما هي الحضارة الغربية

Digitized by Birzeit University Library

فهي اقواها واكثرها سيطرة وتفوقا . الحضارة الغربية هي اليوم النموذج model الذى تقلده الحضارات الاخرى . وهي في الاساس حضارة اوروبية ونسميها "غربية" بعد اضافة مشتقاتها الجغرافية غير الاوروبية .

اساس هذه الحضارة هي الصناعة فالحضارة الغربية هي في الحقيقة ثقافة صناعة او حياة صناعية . ولذلك اليوم مقياسها هو الثقافة الصناعية . ولكن الصناعة لم تكن دائما مقياس العصرية كما لم تكن اوروبا دائما طليعة الحضارات واكثرها تقدما . في زمن من الأزمان كان الرومانيون هم العصريين وفي ازمان اخرى كان الفرس والعرب وقبلهم اليونانيون هم العصريين. ولم تكن اسس هذه الحضارات صناعة ولكنها كانت الطليعة في عالمها وزمنها . فان كنت تعيش في القرن السابع او الثامن مثلا حتى لو كنت تعيش في اوروبا كنت تعلم وتعتقد ان العصري هو العربي وهذا صحيح بالنسبة للحضارات القيادية الاخرى في ازمانها . وفي الحقيقة ان نظرة الاوروبي للعربي كانت (في أوج الحضارة العربية) لا تختلف عن نظرة العربي الا الأوروبي اليوم . فالأوروبي كان يقلد العربي في عصريته وكان يستعين به على التقدم .

ومعنى هذا ان لكل زمن نموذجا للعصرية وليس من الضرورى ان يكون هذا النموذج صناعيا رغم انه صناعي في زمننا . لذلك عندما نتكلم عن العصرية يجب ان نفرق بين نموذج ونموذج اي بين المقاييس الزمنية للعصرية . وعندما نقول هذا انسان عصري او امة عصرية علينا ان نربط العصرية بزمنها . فعصري البارحة لم يعد عصري اليوم وعصري اليوم ربما لا يكون عصري الغد .

علاقتها بالعالم الثالث: هناك من المفكرين من يعتقد

Digitized by Birzeit University Library
مكتبة جامعة بيرزيت

ان اول خبرة للعالم الثالث بالعصرية هي عن طريق العالم الغربي ، خصوصا عندما كان العالم الثالث مستعمرا من قبل دول العالم الغربي . هذا التفكير صحيح اذا اتخذنا للعصرية معناها الزمني الحاضر . ولكن يجب ان نفهم أن العلاقة هي نتيجة تأثيرات ثقافة صناعية على ثقافة غير صناعية . والاصطلاحات Westernization الغربنه ، Europeanization والأوروبة تستعمل لتسمية هذه العلاقة .

العالم الثالث ، حسب المقاييس الحالية ، غير عصري لأنه غير صناعي . وباستطاعتنا القول ان العالم الغربي فشل في غربنة أو أوربة العالم الثالث اى انه فشل بتصنيعه . والمجتمع الصناعي هو ليس فقط مجتمعا فيه صناعة ،فهناك مجتمعات فيها صناعة وهي ليست صناعية لأن الصناعة يمكن استيرادها من الخارج . ان المجتمعات الصناعية هي التي تخلق صناعاتها واذا استوردت بعض عناصرها فهذا الأستيراد يكون ثانويا لمعرفتها بالتصنيع . وهي لذلك ثقافة صناعية والبلاد التي يوجد فيها صناعة دون ان تكون صناعية هي بلاد لا تملك ثقافة الصناعة . وفي الحقيقة هي بلاد اقتصادها غير صناعي .

لذلك نقول ان العالم الغربي فشل في أوربة العالم الثالث لأنه لم يطوره صناعيا اى لم ينجح في تثقيفه صناعيا . ولو نجح في ذلك لصار العالم الثالث غربيا او اوروبيا في ثقافته ، ولما كان هناك عالم ثالث .

ولكن هناك سبب مهم لفشل العالم الغربي في تثقيف العالم الثالث صناعيا وهو عنصرية العالم الغربي .

Digitized by Birzeit University Library

هذا العالم الأخير لم يندمج مع العالم الثالث اندماجا كافيا للأوربة . فقد رفض التزاوج معه باعداد كافية للأوربة الناجحة ، وهجرته اليه كانت محدودة . وفي البلاد التي كانت الهجرات الاوروبية اليها كبيرة عاش الاوروبيون منفصلين عن اهالي البلاد الاصليين الا في العالم الجديد الشمالي وفي استراليا حيث صار المهاجر او نسله هو اكثرية السكان . والشاذ هو العالم الجديد الجنوبي ، امريكا اللاتينية ، حيث كان المهاجر والمستعمر هو الأسباني والبرتغالي . ولأسباب كثيرة منها تأخر اسبانيا والبرتغال ، لا تعتبر امريكا اللاتينية من العالم الغربي المتقدم اذ هي من العالم المتخلف اى العالم الثالث .

واوروبا لم تكن تريد تثقيف العالم الثالث على الصناعة خوفا من المنافسة وعلاقتها الاقتصادية به كانت علاقة استغلال او علاقة منفعة رغم تأثيراتها عليه .

ولو لم يكن الاوروبي عنصريا ولو نجح بأوربة العالم الثالث لكانت النتيجة تغير جنس وعنصر الاوروبي وشعوب العالم الثالث . وهذا النجاح لم يكن من نصيب الحضارات " العصرية " السابقة ايضا الا الحضارة العربية . فالعرب نجحوا في تعريب معظم شعوب امبراطوريتهم التاريخية . في هذه الامبراطورية ، صار الحاكم والمحكوم ذا هوية واحدة . وسبب نجاح العرب هو تأثير واندماج ثلاثة عناصر قوية : الدين (ايدولوجية) والهجرة والتزاوج . هذه العناصر غيرت ثقافة الشعوب المحكومة واعطتها لغتها ووضعت اساس القومية العربية التي لم تظهر بشكلها العصرى الا في أواخر القرن التاسع عشر .

Digitized by Birzeit University Library

والأوروبي الذى حاول اوربة شعوب مستعمراته اكثر من غيره هو الأفرنسي . ولكن طريقته كانت خطأ ولم تكف للاوربة . فهو استعمل الدين واللغة ونسي الاختلاط الجنسي وهجرته كانت اما محدودة او منفصلة عن اهل البلاد . وقد ركز الأفرنسي على فرنسة أو اوربة الشعب الجزائرى وشعوب الهند الصينية اكثر من غيرها ولم ينجح رغم انه اعطى الجنسية الفرنسية وحقوقها لمن تفرنس او صار افرنسيا بثقافته .

الكولونيالية الغربية: الكولونيالية هي نظام حكم القوي على الضعيف وهو حكم مباشر . طبعا الكولونيالية الغربية هي حديثة العهد تاريخيا وهي ايضا قصيرة العمر . وكانت اكبر الأمبراطوريات الأوروبية هي الأمبراطورية البريطانية . في عام ١٩٤٥ كانت بريطانيا تحكم ٦٠٠ مليون نسمة تقريبا اى ربع سكان الكرة الارضية . ولكن الأمبراطوريات تقلصت بسرعة هائلة بعد الحرب العالمية الثانية ففي خلال ثلاث سنوات (١٩٤٥ - ١٩٤٨) خسرت بريطانيا ثلثي سكان امبراطوريتها اى ثلثي ال ٦٠٠ مليون نسمة (٤) .

وثاني الامبراطوريات كبرا كانت الامبراطورية الفرنسية ورغم ان فرنسا كانت أعند من بريطانيا لكن امبراطوريتها تقلصت ايضا . ونفس المصير اصاب الأنظمة الكولونيالية الاقل اتساعا ؛ فبعد الحرب العالمية الثانية تقاسمت الامبراطورية اليابانية كل من الولايات المتحدة وروسيا والصين . اما ايطاليا فخسرت مستعمراتها ايضا ، ليبيا والصومال وبلاد الحبشة . والامبراطوريات التي حاولت البقاء مدة اطول هي التي كانت تملكها دول اوروبية انظمتها السياسية متسلطة وتطورها اقل عصرية من غيرها

Digitized by Birzeit University Library

من الدول الاوروبية وهما اسبانيا والبرتغال . وحتى هذه الامبراطوريات فقد تلاشت بعد موت فرانكو وسلزار وخسرت المحراء الاسبانية وانجولا Angola وغينيا Guinea والموزمبيك Mozambique . وكذلك خسرت هولندا بعد الحرب العالمية الثانية اندونيسيا ، وبلجيكا خسرت الكونجو Congo ورواندا Rwanda وبورندى Burundi في مطلع الستينات (٥) .

اما العالم العربي فقد تم الاستقلال الرسمي للبلدان الاتية : موريتانيا ١٩٦٠ ، مراكش ١٩٥٦ ، الجزائر ١٩٦٢، تونس ١٩٥٦، ليبيا ١٩٥١، مصر ١٩٢٢، السودان ١٩٥٦، سوريا ولبنان ١٩٤٣، الأردن ١٩٤٦، العراق ١٩٣٢، الكويت ١٩٦١ ، البحرين ١٩٧١، قطر ١٩٧١، السعودية ١٩٢٧، الامارات العربية ١٩٧٢، اليمن الجنوبي ١٩٦٧، واليمن الشمالي ١٩٦٢، الصومال ١٩٦٠، جيبوتي ١٩٧٧ .

لا شك ان جميع هذه البلاد قد تأثرت بالحضارة الغربية رغم تقلص الامبراطوريات الغربية واستقلال البلاد المتخلفة . وهناك خلاف قوى على نسبة تأثير الكولونيالية على الحاكم والمحكوم . وحسب دراسة للبروفسور فرد فان مهدن Fred Van Mehden يقارن فيها البلاد التي اختبرت الكولونيالية والبلاد التي لم تختبرها تظهر استفادة البلاد الأولى اكثر من البلاد الثانية ولكن الاستفادة ضئيلة جدا. والاستفادة هي في الاغلب مادية طبعا والافتراض هو التقدم العصرى . ولكن هذه الدراسة في رأينا كانت ناقصة ولهذا فهي تعطى الفكرة الخاطئة عن التقدم لأن البلاد التي لم تختبر الكولونيالية كان عددها ضئيلا جدا وفيها بلاد كان وضعها شاذا للغاية .

Digitized by Birzeit University Library

واذا كانت هناك استفادة من الكولونيالية فهي محدودة جغرافيا وسكانيا . اما من الوجهة الجغرافية فالاماكن التي تأثرت بالوجود الغربي هي المناطق الساحلية ، حول البحار والانهر . والسبب هو ان التغلغل الاوروبي بدأ عن طريق التجارة وطرق التجارة الرئيسية في بداية هذا التغلغل كانت البحار والانهر . وعلى السواحل بنى المستعمر جيوبا من حضارته ولذلك تجد في العالم الثالث قبل الاستقلال ان المناطق الساحلية اكثر عصرية وتقدما من المناطق الداخلية . ومن الوجهة الجغرافية كان هناك موقع آخر في المستعمرات الاوروبية كانت فيه مظاهر التقدم والعصرية وهو موقع داخلي اى غير ساحلي . هذا الموقع الجغرافي هو موقع المواد الخام وطبعا كانت البلاد الصناعية مهتمة بهذه المواد لاستخراجها من الارض واستعمالها في مصانعها الموجودة في بلادها . وفي بعض الاحيان تجد العاصمة واقعة في المناطق الداخلية لاسباب عديدة تختلف من بلد الى بلد. وطبعا العواصم كانت دائما مراكز مدنية متقدمة وعصرية اكثر من المدن الاخرى .

اما المناطق الداخلية فقد تجاهلها المستعمر وبقيت متأخرة عن المناطق الساحلية . ولذلك فقد ترك المستعمر فجوات تطورية gaps في جغرافية البلاد واقتصادها (٦) . وما زال التناقض بين سكان الريف وسكان المدن موجودا في العالم الثالث حتى يومنا هذا خصوصا في البلاد التي ترك المستعمر فيها حكما تقليديا . وفي الحقيقة انها اليوم مشكلة كبيرة لدرجة كونها ، في بعض بلاد العالم المتخلف ، عقبة كبيرة أمام المجهود التطوري . ويكاد عالم الريف يكون منفصلا عن عالم المدينة فاذا نظرت الى خارطة البلاد المتخلفة قبيل انتهاء الكولونيالية وجدت

Digitized by Birzeit University Library

ان القصة واضحة بالنسبة لمواقع المدن والمراكز الحضارية (شبه الغربية) فهي قريبة من الساحل. ووجدت ايضا ان المستعمر بنى الطرق لمصلحته التجارية والعسكرية وكانت هذه الطرق توصل المراكز التجارية بعضها ببعض ومع العاصمة والمواقع الاستراتيجية ومعظمها مدن . ووجدت بالاضافة ان هذه الطرق لا تصل المدن مع الريف وكان الريف منعزلا ينقصه ليس فقط الطرق بل الخدمات العامة كالكهرباء والهاتف وحتى المدارس والوسائل الصحية .

على العموم تجاهل المستعمر الزراعة في مستعمراته الا في أحوال خاصة كالزراعة التي تنتج للاسواق الخارجية اى للصادرات او الضرورية للصناعة كالقطن في مصر مثلا . ففي عام ١٩٣٠ كان حوالي سبعين بالمئة من قطن مصر ينسج في مصانع اجنبية لا في مصانع محلية (٧). فالانجليز لم يشجعوا هذا النوع من الصناعة في مصر خوفا من المنافسة فأخذوا القطن المصرى الى بلادهم لتشغيل عمالهم وللربح . لكن تغيرت الاحوال في عهد عبد الناصر الذى استطاع استعمال ٧٥ بالمئة من القطن المصرى في صناعة النسيج المصرية وزيادة انتاج صناعة النسيج في عام ١٩٦٧ الى اربعة اضعاف انتاج ١٩٥٢ (٨).

وكما قلنا في مكان آخر فان المستعمر البريطاني فشل في وضع نظام اراض عصرى لفلسطين فقد ظلت هذه البلاد تحت نظام تركي قديم غير منتج. اضف الى ذلك أن ٠/٠٢٩ر٤ من عائلات الريف الفلسطيني العربي كانت لا تملك ارضا، حسب اعتراف المصادر البريطانية (٩). وكان معدل دخل المزارع من ارض مساحتها ١٢٠ دونما ١٩٥ دولارا امريكيا اى اربعين جنيها فلسطينيا كان يدفع منها حوالي ٤٩ دولارا كضريبة دخل (١٠). وهذه الضريبة كانت تقدر على اساس معدل الانتاج في السنوات الاربع السابقة وقيمة الانتاج

Digitized by Birzeit University Library

كانت تحسب على اساس اسعاره في سوق المدينة لا على اسا
اسعاره في سوق القرية حيث الطلب اقل والسعر لذلك اقل .

وفي العالم الثالث اجمالا كان نظام الأراضي السائد
عشية وصول الكولونيالية، نظاما جماعيا community لا
ملكية خاصة. وهذا النظام كان منتشرا في افريقيا وبعض
المناطق الأسيوية. وجاء المستعمر يشجع الملكية الخاص
ولكن بدون قوانين تحمي مصالح المزارع او الفلاح الفقير
وكانت النتيجة توسع ملكية الأفراد الأقطاعيين وحصو
الشركات على ممتلكات واسعة ايضا. وتغيرت نوعية الانتا
من انتاج محلي الى انتاج صادرات وهذا شجع سكان القرية ف
افريقيا على العمل في المزارع الكبيرة بالاجار ظنا منه
ان التوفير صار ممكنا ولكن ظلوا يتنقلون دون تحقيـ
آمالهم.

في ذلك الوقت (وقت الامبراطوريات الأوروبية) كانـ
اوروبا تنتج الحبوب Cereal grains وللدرنات ubers
والبقول Legumes وكان العالم الثالث يزرع مثل هذه
المنتوجات قبل قدوم الاستعمار لأنها من النوع الضروري
للاستهلاك المحلي اى كانت منتوجات العالم الثالث تتجاو
مع حاجة سكانه للغذاء. ولكن بعد الاستعمار تغير الكثير
من اقتصاد العالم الثالث الزراعي اذ شجع المستعمر انتا
المحصولات المفيدة والقابلة للتصدير مثل القهوة والكاكاو
وقصب السكر والفلفل ونبات القنب hemp والموز والمطاط
والفول السوداني والتنباك، فقل انتاج العالم الثالث
للمواد الغذائية كالرز والقمح والبطاطا والفاصوليا والعد
والبازيلا (١١). وهذا التغيير في زراعة العالم الثالث
كان من نتائجه المجاعات وقلة الغذاء للسكان المحليين
وطبعا الربح الكبير للمستعمرين من الصادرات التي كان
اكثرها تحت سيطرتهم .

Digitized by Birzeit University Library

ومن وجهة السكان ، شجع المستعمر ايجاد طبقة اقطاعية زراعية. وقد بحثنا هذه المشكلة في مكان سابق. ومن نتائج الاقتصاد الكولونيالي ايجاد طبقة عمالية جديدة كانت تعمل في النشاطات العسكرية والتجارية وفي المناجم التي اوجدها المستعمر. وهذه الطبقة العصرية كان اعتمادها على المستعمر كبيرا ورغم ان حالتها المادية تحسنت نسبيا عما كانت عليه عندما كانت زراعية الا ان هذا التحسن لم يكن دائما لان هذه النشاطات الاقتصادية لم يكن قومية كما ان استمرارها كان مربوطا بالمصلحة الاستعمارية والوجود الاستعماري اذ كانت تجارة صادرات وصناعة استخراج المعادن كلها في ايدى المستعمر تنتج لأسواقه ولربحه. ورغم ان طبقة برجوازية ظهرت في بعض بلدان العالم المتخلف الا انها لم تكن ذات حجم كبير ومعرفتها الكيفية لم تكن تكفي لعهد الاستقلال والتطور الداخلي المستقل. فالفائدة التي جاءت من الكولونيالية لم تكن منتشرة لا جغرافيا ولا سكانيا، كما قلنا .

واذا اردت ان تأخذ فكرة عن وضع الناس في فلسطين مثلا تحت الاستعمار البريطاني فما عليك الا ان تنظر الى مشكلة الدّين ، فحسب التقديرات البريطانية كانت العائلة الريفية مدينة بمعدل ١٣١ دولارا. قارن هذا المبلغ بدخلها السنوى. وكان المدين يدفع فائدة على دينه معدلها ٣٠ بالمئة تحت نظام " العشرة خمستاش" السائد. وحسب سجلات محكمة حيفا كانت على ٦٤ر٢ بالمئة من مجموع عدد العائلات الساكنة في ولاية حيفا قضايا دين في المحكمة. وسجلات المحكمة المركزية قالت انه خلال شهرين فقط من عام ١٩٣٠ اصدرت المحاكم في فلسطين عدا لواءى حيفا ويافا، ٢٦٧٧ امرا بالسجن لعدم دفع الديون

Digitized by Birzeit University Library

ونفذ منها ٥٩٩ حكما. خذ بعين الاعتبار ان مجموع سكان فلسطين بمن فيهم سكان لواءى حيفا ويافا كان في عام ١٩٣٠ لا يزيد على ٩٢٠،٠٠٠ نسمة. لا شك ان بريطانيا حاكمة البلاد لم تكن تهتم بالمزارع الفلسطيني خصوصا الفلاح رغم ان اتفاقية الانتداب وضعت مسؤولية تطوير البلاد الاقتصادى و الثقافي على عاتق الدولة المنتدبة (١٢).

وفي الحقل الثقافي كانت المشكلة نفسها اذ لم تصرف الحكومة البريطانية الكفاية على تعليم الفلسطينين. ففي عام ١٩٣١ لم تصرف اكثر من ٦،٣٤ بالمئة من نفقات الحكومة في هذا الحقل المهم. وهذه النسبة انخفضت الى ٣،٩٩ بالمئة خلال السنة المالية ١٩٣٦/١٩٣٧. والغريب انه كان عند الادارة البريطانية الفائض الكبير في ١٢ سنة مالية من مجموع ١٧ سنة اى من ١٩٢٠/١٩٣٧. واستمر هذا الفائض السنوى يتراكم حتى عام ١٩٤٣ عندما استوعبته متطلبات بريطانيا الحربية (١٣).

والحدود السياسية التي رسمها المستعمر في بلدان العالم الثالث لم تكن، في كثير من الأحيان، تأخذ بعين الاعتبار العوامل الاقتصادية و الاجتماعية للمنطقة ،رسمها المستعمر دون اعتبار مشاكل مهمة كالاثنية و القبلية و الدينية. وعندما ترك البلاد تركها ،في كثير من الاحيان دون اساس للوحدة القومية و الوحدة الاقتصادية ،فصار تطورها صعبا بعد الاستقلال و أدت هذه السياسة الى عدم الاستقرار السياسي نتيجة للانقسامات الداخلية .

ففي مناطق كثيرة في العالم الثالث كان المستعمر يشجع الانقسامات الدينية وهذه كانت سياسته في الشرق العربي. ان المدارس التبشيرية لعبت دورها في المنطقة اذ كان المسيحيون العرب و أبناء وبنات الطبقة العليا

Digitized by Birzeit University Library

المسلمة يرتادونها مما ادى الى اوربة هذه الأقليات والطبقة الغنية وفصلهم عن مجتمعهم القومي والشعبي، فصار اسلوب حياة الأقليات والاغنياء غربيا بينما ظل اسلوب حياة الأكثرية الباقية شرقيا وتقليديا. وفي بعض الأحيان كنت ترى الفارق حتى في اللغة، ففي لبنان ومصر والجزائر والى حد اقل في فلسطين كانت الأقليات والأغنياء من الاكثرية الغربية تفضل اللغات الاجنبية على لغتها. وكان المستعمر الاوروبي يتبع سياسة اقليات بالتوظيف وتوزيع المصالح معتذرا بقوله ان هذه السياسة كانت اضطرارية لأن المتعلمين والمؤهلين كانوا من الاقليات وبين الاغنياء وباقي الناس، فالطائفية مدينة للمستعمر الاوروبي بالكثير. ولكن نسي المستعمر ان الثقافة والمعرفة مهما كانت طائفية او طبقية فأن لها منافع قومية. فرغم سياسة الطائفية كانت قيادات الحركات الوطنية كثيرا ما تأتي من محصولاته الثقافية.

هذا بالاضافة الى تجاهله مسؤوليته في تطوير التعليم العام اى المدارس الحكومية لاستيعاب الاعداد الكبيرة من الناس. ففي فلسطين العربية وفي الثلاثينات كان عدد الذين هم في العمر الدراسي ٢٦٠٫٧٠٠ شخص ولكن لم تستطع المدارس الحكومية استيعاب اكثر من ٤٢٫٧٠٠ تلميذ وهذا حسب التقديرات البريطانية. وحسب اعتراف الادارة البريطانية نفسها كان الأقبال على المدارس قويا جدا وكان الناس يطالبون الحكومة بفتح مزيد من المدارس وقدر ان ٠/٠٥٠ من مجموع الاشخاص الذين قدموا الطلبات لدخول المدارس رفضوا بسبب قلة المدارس. واعترفت الادارة البريطانية في فلسطين بأن الكثير من القرى العربية قدمت طلبات لفتح المدارس فيها

Digitized by Birzeit University Library

وتعهدت بالاسهام في بناء المدارس ودفع تكاليفها رغم أن الناس كانوا يدفعون الضرائب الباهظة لحكومة الانتداب (١٤)٠

Digitized by Birzeit University Library

(١) C.E. Black, The Dynamics of Modernization (New York : Harper & Row, 1966) pp. 5 - 6

(٢) Gunnar Myrdal, Asian Drama (New York : Vintage Books, 1972).

(٣) المصدر نفسه ، صفحة ٦٢ .

(٤) Robert P. Clark, Power And Policy In The Third World (New York : Wiley, 1978) pp. 23 - 24.

(٥) كلارك ، صفحة ٢٤ .

(٦) Myron Weiner, "Political Integration And Political Development", in Frank Techau, The New Developing Nations (New York, Mead, 1972), p. 62.

(٧) Harry Hopkin, The New Middle East, Sept., 1969, p. 18.

(٨) المقالة نفسها ، صفحة ١٥ .

(٩) Statement of Policy By His Majesty's Government In The United Kingdom, Comd. 3692 (1930).

(١٠) Report on Immigration, land settlement, and Development, Cmd. 3686 (1930).

(١١) كلارك ، صفحة ٢٠ .

Digitized by Birzeit University Library

Cmd. 3686 (1930).

(١٢)

(١٣) تقرير الحكومـــــة البريطانية الى عصبة الامم المتحدة عام ١٩٣٢ Colonial No. 82, p. 131:

(١٤) تقرير حكومة بريطانيا عـن الهجرة والاستيطان والتطور · Cmd. 3686 (1930)

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثالث

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

تخلف العرب وعصريتهم

عند العربي ، العصرية معناها التغربن Westernization فهي اوروبية امريكية . والتاثير الغربي وصل للبلاد العربية عن طريق الارساليات التبشيرية والمدارس والتجارة والحروب واخيرا عن طريق الكولونيالية والاستعمار . وكما قلنا سابقا كان اول من تاثر بالتغربن هي الأقليات والطبقات الغنية المسلمة . اما الاقليات المسيحية فلم تكن عندها العقدة الدينية الموجودة عند المسلمين ولذلك فمناعتها كانت محدودة وطبعا كانت قرابة الأوروبي الدينية عاملا مساعدا في تغربن المسيحيين العرب . اما الاغنياء فكانت عندهم القدرة الاستهلاكية ولم تكن عندهم القدرة الانتاجية فلذلك كانوا دائما عرضة للانتاج الغربي وعلى اتصال به ، فأرسلوا ابناءهم الى المدارس الأجنبية وزاروا البلاد الأجنبية وتعاملوا مع الاجنبي تجاريا وعندما اصبحت علاقة البلاد بهذا الاجنبي علاقة سياسية تعاملوا معه سياسيا ، وذلك لأنهم كانوا مراكز القوى السياسية في البلاد .

وحيث ان اهتمامهم بالتعليم والدراسة لم يكن على اساس المصلحة المادية بل على اساس رغبتهم في التثقيف كان التاثير الأجنبي عليهم قويا فالافكار الأجنبية وصلتهم عن طريق دراسة الآداب وعلم الاجتماع واللغات . وحيث أن المتعلم كان في البداية هو ابن الغني وابناء الاقليات الدينية ، فهم الذين كانوا يقرأون الكتب والمجلات والجرائد الغربية ، وهم لذلك اول "العصريين" في المنطقة . وكانوا بالاضافة الى ذلك اول من شعروا بالقومية لأن الفكرة القومية بمعناها العصري كانت اولا اوروبية ، كما سيتضح لنا

Digitized by Birzeit University Library

قريبا في هذا الكتاب . وكما قلنا ايضا كان التأثير الغربي قويا في المدينة اكثر بكثير منه في القرية والريف وذلك لأن الأجنبي ونشاطاته كانت في المدينة وليس في الريف الا في حالات خاصة . وقصة الحجاب هي قصة التغرب في العالم العربي ؛ فالحجاب بدأ كتأثير مستورد أي أنه اصلا لم يكن عربيا ، وأول من استعمله هن بنات المدن وبنات الطبقات الغنية ولم تستعمله بنات الأقليات ولا بنات الريف الا في حالات استثنائية ولأسباب خاصة ، (في الريف حيث يستعمل تجده بين بنات الاغنياء) . ويقال ان الحجاب هو من اصل فارسي ولذلك فقد قبلته الطبقة الغنية المسلمة على اساس انه "عصري" ولكن عندما اصبحت العصرية غربية لم يعد الحجاب عصريا فتركته الطبقة الغنية . وذهب الحجاب الى الطبقة الوسطى لأن مقياس هذه الطبقة العصري كان اسلوب حياة الطبقة الغنية لا الطبقة الأجنبية ، هذا في المراحل الاولى للتغلغل الاوروبي في المنطقة . ولكن عندما قوى التأثير الغربي في البلاد ووصل الى الطبقة الوسطى تركت هذه الطبقة الحجاب وطبعا تغيرت نوعيتها بالاضافة ، من طبقة وسطى تقليدية الى طبقة شبة عصرية . واخيرا صار الحجاب للطبقات الفقيرة في المدن ، واليوم حيث صارت العصرية جماهيرية اي ان التأثيرات الغربية وصلت الطبقات الدنيا لم يعد الحجاب لباسا عاما ولا تراه اليوم في المدن الا بين المتقدمات في السن واقلية من الفقيرات . فالتأثير الغربي الغى الحجاب في كافة الاوساط التي وصل اليها .

وفي الحقيقة ان العصرية عند العربي هي عملية تقليد وهذه العملية عادة تأخذ القشور وتترك الجذور . والسبب هو أن التقليد اسهل في الاستهلاك منه في الانتاج لأن الأخير يحتاج الى جذور الثقافة الغربية الصناعية بينما الاول يحتاج

Digitized by Birzeit University Library

الى نتائجها ومحصولاتها . والتقليد هو اسهل للمتخلف فالقشور هي اسهل واسرع للاستيعاب من الجذور التي هي الاصل في عملية الحياة . فالعصرية في العالم العربي هي ظاهرية ومظاهر ، ظاهرية بمعنى انها خارجية ومظاهر بمعنى انها رمزية لمن يريد ان يظهر نفسه بشكل يختلف عن الاخرين .

لذلك نلاحظ ان العرب العصريين فيهم عنصر اصطناعي ، "مزيف" كما يقول البعض . ومن الناحية السايكولوجية فالعصري في العالم العربي يعاني درجات مختلفة مما يشبه انفصام الشخصية وهذه المشكلة تكون قوية في بداية التأثر بالعصرية وتظهر اقل بكثير بعد الخبرة والتأثر الطويل بها . ومن وجهة علم الاجتماع تخلق العصرية الوافدة مشكلة تضارب الثقافات Conflict of Cultures في المجتمع ككل . والعوامل النفسية والاجتماعية في هذا النوع من التطور تكون قاسية وتخلق التوتر في الشخص وفي المجتمع لأنها تخلق فجوة بين الحقيقة والاماني ، بين الواقع والطموح ، وبين الامكانيات والرغبات .

والتغيير في القشور يكون بعيدا عن جذور الشخص الذي يتغير ، ولذلك فهو اسهل ويكون مقبولا اكثر ، فالعصرية تأثيرها اقل على المؤسسات الاولية في المجتمع الذي يختبرها عن طريق التقليد . فالعربي الذي يظهر عصريا من الخارج تجده تقليديا من الداخل او اقل عصرية ، بينما تراه يسوق سيارة ويلبس الملابس الغربية المدنية كالجينز والميني سكيرت ويرقص الرقصات الغربية ويشتري السلع العصرية والحديثة كالغسالات وآلات تجفيف الشعر تجده ما زالت علاقاته الشخصية تقليدية ، علاقته مع زوجته او علاقتها مع زوجها وابنه وابنها وبنته والجيران والاقارب ، وتجد نظرته ما زالت تقليدية . والتغيير يكون صعبا وقليلا كلما اقتربت من

Digitized by Birzeit University Library

العادات والتقاليد الاخلاقية والدينية والادبية Morals فهذه تتغير ببطء ومقاومتها للتغيير قوية جدا . لذلك تجد تطور المرأة العصري أبطأ من تطور الرجل ، هذا بمعنى تطور الجوهر او التطور الجذري . اما بمعنى التطور القشري (الخارجي) فتطورها ملحوظ اكثر من تطور الرجل . والمرأة رغبتها في العصرية اقوى من رغبة الرجل لأنها تعاني من التقاليد اكثر منه ، التقاليد المتعسفة طبعا . وهذه الرغبة تكون قوية بعد الاختبارات الاولية للعصرية وتقوى بازديادها . أما في مراحل العصرية الاولى فتكون المقاومة للعصرية قوية واذا جاءت العصرية بكثافة كبيرة وبسرعة هائلة فالمقاومة لها تكون كلية ، الا اذا اصطحبها تغيير في المؤسسات الاولية ونظام سياسي مرن وفعال .

انظر ولاحظ وضع الشخص العربي الذي يجيء من العالم الغربي تجده عصريا ظاهريا ، وتقليديا او اقل عصرية داخليا . حتى حملة الشهادات يتغيرون خارجيا اكثر منهم داخليا . فنظرتهم لبناتهم ونسائهم اقل عصرية بكثير من نظرتهم الى ابنائهم . ومنهم من تكون علاقاته الاساسية ، كعلاقاته العائلية وعلاقات الجنس ، قد تطورت لديه اقل من تطورها لدى العصريين المحليين لتمسكه بها وهو في المهجر عندما كانت هذه العلاقات مهددة من المجتمعات الاجنبية .

واذا اردت ان تفهم معنى العصرية العربية فعليك أن تلاحظ علاقات العربي بالزائر الأجنبي لتجد ان العربي ، رغم افتخاره بعروبته وعاداته وتقاليده ما زال يشكو من مركب النقص تجاه الاجانب . وهذه المشكلة تظهر على المستوى الشخصي اي في اختباراته الشخصية مع الاجنبي . اما على المستوى المجتمعي فالمقاومة ومظاهر التمسك بالتقاليد ، وحتى مظاهر التعصب لها ، تكون قوية في فترات متقطعة تحت

Digitized by Birzeit University Library

ظروف خاصة . والمقاومة هذه تكون عادة سياسية اي لها معان سياسية .

كثير من العرب يفضلون الاجنبي في معاملتهم ، فمنهم من يتسامح معه في طرقه واساليبه الغربية اكثر من تسامحه مع ابناء امته ؛ والسبب هو ان الاجنبي بحكم كونه اجنبيا طريقته غريبة . ولكن التسامح العربي للاجنبي يتعدى هذه الحدود اذ توجد عند العربي رغبة قوية للعصرية وهذه الرغبة تكمن مع خوفه منها وخوفه من الناس . وفي الحقيقة أن خوفه من الناس هو اقوى من خوفه منها . وهناك سبب اخر وهو شعور خفي لا يبوح به حتى لنفسه وهو أنه ادنى مرتبة من وجهة التقاليد والعادات . وبما ان عصرية العالم الحاضر هي عصرية مادية فاننا نجد ان الاغراء عامل آخر في حالة العربي .

واذا نظرنا كيف يعامل الغربي الاجنبي في بلاده نجد ان وضع الاجنبي في العالم العربي ليس طبيعيا . فالاجنبي في العالم الاوروبي وفي امريكا لا يعامل احسن من ابناء البلاد وفي كثير من الاحيان يكون محتقرا . فالامريكيون والاوروبيون ينظرون الى الاجنبي كمتخلف لأنهم هم العصريون ، وغير الغربي هو المتأخر حضاريا . وحقوق الاجنبي تكون اقل من حقوق ابناء البلاد : ففي المطارات مثلا يعاملون مواطنهم احسن من معاملتهم للأجنبي فيسهلون قدومه ، اما في المطارات العربية ومداخلها الرسمية فالعكس صحيح اذ ان التسهيلات للأجنبي اكثر ، وفي الحقيقة ان الصعوبات توجد للعربي وابن البلد . وطبعا ربما قلنا ان العربي يعتبر الاجنبي ضيفا وهو بالاضافة يخاف من ابن البلد لأن الحكومة شيء والناس شيء اخر؛ في العالم العربي العربي يهدد اما الاجنبي فليس له مصلحة في التهديد الا عن طرق اخرى كالجيوش

Digitized by Birzeit University Library

والحكومات . ولكن هذا لا يفسر لماذا يفرق العربي بين الاجنبي الشرقي والاجنبي الغربي فهذا الاخير هو الذي يعامله معاملة خصوصية . وهذا الطبع العربي موجود في معاملات خارج الحضارات وداخل البلاد وفي احوال لا يكون المال أو المادة فيها سببا . ولا شك أن العربي ينظر للغربي كانسان عصري راق والى نفسه كانسان متخلف فيعامل الغربي على مستوى اعلى من معاملته لنفسه . ولو لم يزر الاجنبي البلاد العربية وكان المسافرون كلهم عربا لما اهتمت الحكومات ببناء المطارات الحديثة ولبقيت المطارات على مستوى باقي البلاد .

تاريخيا كان العربي معروفا بمحبته للتغير وبقدرته على الاستيعاب ، ففي عهد الاسلام العباسي استوعب الحضارات المجاورة الفارسية والبيزنطية ، واستوعب المعرفة منها ومن الشعوب الاخرى التي سيطر عليها . أما اليوم ، فرغبته للعصرية ما زالت قوية ، ولكن تخلفه الحضاري دون حمايته ايدولوجية تشق طريقه وتشجعه على الاستيعاب اصبح مشكلة كبيرة . فاستيعابه للعصرية صار سطحيا لأنه يبدأ من حالة ضعف لا من وضع قوي كالعرب الاسلاميين في اوج حضارتهم وقوتهم ؛ فأيدولوجيته الاسلامية ضعفت ولم تعد اليوم قابلة لحمايته في وجه التغييرات والتأثيرات الخارجية ، وضعفها افقده القدرة على تكييف الاستيعاب والتغيير لصالحه القومي .

اننا هنا نفرق بين الدين ككتاب سماوي واقوال وسيرة نبوية والدين كنظرة مجتمع . انها النظرة الدينية التي اصبحت مشكلة للتقدم والتطور ؛ فمفاهيم الناس للدين وطقوسهم الدينية هي اليوم متخلفة ولا تصلح للحياة العصرية . هذه المفاهيم تختلف اليوم عما كانت عليه في عهد النبي

Digitized by Birzeit University Library

والصحابة والخلفاء الراشدين . وحتى في البلاد التي تدعى انها تطبق الاسلام نجد هذه المفاهيم متخلفة كثيرا . واذا لم نفصل الدين عن المفاهيم فلا يمكن ان نفسر تأخر المجتمعات الاسلامية اليوم خصوصا تلك التي تدعي انها تطبق الاسلام . ولو كان الدين والمفاهيم متطابقين لكانت السعودية والباكستان وليبيا اكثر الدول الاسلامية تقدما ، ولكنها اكثرها تخلفا ، ولولا الاموال من البترول لكانت متأخرة ليس فقط في الجوهر بل في القشور ايضا . وحتى النظرة الدينية المتخلفة فانها لا تطبق على الحكام بل على المحكومين فقط . ولو طبقت الدول الاسلامية الدين الاسلامي او مفاهيمه على الحكام فلربما كان حكامها اليوم دون ايد او في عداد الاموات بالرجم دون الحاجة الى الانقلابات والثورات .

والنظرة القومية للعصرية ، كالنظرة الدينية ، هي نفسها متخلفة ورجعية . فهي تركز على امور اساسية كالاستقلال ومعنى الامة وعلاقة التاريخ بها والدولة والسيادة والاستعمار وعلاقة القومية بالدين . واعظم الايدولوجيات القومية في العالم العربي الشرقي هما حزب البعث والحزب السوري القومي الاجتماعي . وقبل هذين الحزبين كانت القومية غير منظمة لا ايدولوجيا ولا حزبيا ، بالمعنى الصحيح . ولا شك ان كلا الحزبين قدم الكثير للمنطقة . فحزب البعث اعطى معنى للقومية العربية يتناسب مع تاريخها الاسلامي اذ ان الاسلام للبعثي هو تراث قومي وتاريخ مجيد . والتناسب هذا هو في وضع ايدولوجية دنيوية دون معارضة للدين او الحط من قيمته . والحزب السوري القومي كان انجح الاحزاب في محاربة الطائفية واحلال القومية محلها ، وهو الحزب الذي ربط الارض بالقومية وجعلها اساسها ، فقوميته من هذه الوجهة عصرية .

Digitized by Birzeit University Library

وهو الحزب الذي قدم فلسفة تطورية رائعة ترتكز على ما يسميه الحزب بالمدرحية اي توازن المادة والروح ، وهي الفلسفة التطورية التي نتبعها نحن في هذا الكتاب ونقترحها للقومية العربية .

ولكن لا حزب البعث ولا الحزب السوري القومي اعطى معنى للعصرية وللتطور يكفل مستقبل البلاد ، فكلاهما تقليدي رغم وجود بعض العناصر العصرية في ايدولوجيتهما كذكر الحزب القومي "الجيل الجديد" وتركيزه على تطويره . ولكن الجيل الجديد الذي يهدف له هذا الحزب هو جيل غير عصري الا في نواح محدودة . وكلا الحزبين تجاهل العوامل السايكولوجية للتطور والاقتصاد ؛ فاشتراكية حزب البعث سطحية للغاية ، ونظام الحزب السوري القومي المعروف بالقيمومة بدائي من الوجهة التطورية لأن الحزب لم يطوره بعد وفاة زعيمه . وفي الحقيقة أن الكثير من زعماء الحزب واعضائه لم يفهموا معنى القيمومة . والحقيقة هي أن الايدولوجية التطورية الوحيدة هي الايدولوجية الماركسية ولكنها في العالم العربي كالأيدولوجيات الاخرى تقليدية ورجعية . وسنعود الى هذا الموضوع مرة ثانية لنفسر ما نقوله هنا .

ان العربي المعاصر يلصق العروبة والدين بالماضي ، وتعريفه للعربي هو انه من يتبع التقاليد العربية ، والمسلم هو من يتبع التقاليد الاسلامية : فالبدوي هو العربي الاصيل ويتبعه الفلاح ، اما ابن المدينة فهو عربي مزيف لأنه قبل تأثيرات خارجية وهو لذلك عربي مستغرب ، او عربي خرج عن اصله ، على كل ، هو ليس عربيا قحا . ورغم قابلية العربي للتغيير القشري فتصوره لعروبته او لنفسه هو رجعي وتخلفي لأن تعريفه للعروبة هو تاريخي ، فهو يعيش نفسيا

Digitized by Birzeit University Library

في الماضي حتى اذا كانت ماديته عصرية .

العصرية مقاييسها مقاييس الزمن الحاضر ، مقاييس اليوم ، وهي الحياة الحاضرة لا الحياة الماضية فلا نستطيع أن نكون عصريين بمقاييس الماضي ، مقاييس في القرن السابع او العاشر ، لا لأن هذه المقاييس ليست حسنة او ليست تقدمية في عصرها وزمنها ، بل لأنها قديمة مربوطة في الماضي . فالعصرية يجب ان تكون مربوطة في الحاضر والمستقبل . والماضي بالنسبة لها هو ماض ، اي تراث وتاريخ ، يقويها ولا يضعفها . ولكن مفهوم العربي للعصرية هو مستمد من قوة الماضي ، فالمقاييس عنده هي تاريخية ، هي سابقة ،فهو يربط الحاضر والمستقبل بالماضي على اساس مقاييس الاخير . فالنموذج لتطوره هو سابق ، هو ماض . ولذلك فهو عصري بالنسبة للقرن السابع والثامن اي بالنسبة لمقاييس عظمته التاريخية لا بالنسبة لقوته الحالية ؛ فمحاولة اعادة مجده عن طريق وصل او لصق ماضيه بحاضره هي محاولة مستحيلة ولن تكون الا فاشلة .

أما العصري الحقيقي فهو من يعترف بأن الماضي انتهى ومقاييسه ذهبت ، كانت مقاييس عظيمة ولكنها ادت مهمتها وانتهت . وهو من يعترف بأن لكل زمن مقاييس ومقاييس هذا الزمن ليست اسلامية ولا هندية ولا صينية ولا يونانية ولا رومانية بالمعنى التاريخي . وهو من يعترف بأن المقاييس هي غربية صناعية ولكن يعترف في نفس الوقت بأن هذه المقاييس هي ليست مقاييسه وانها في طريق الاضمحلال وعلى وشك الموت والنهاية . لذلك فهو من يعترف بانه بحاجة الى فلسفة تطور جديدة ، الى نظرة عصرية جديدة ، لا هي تاريخية سابقة ولا هي اوروبية ، ولكنها عربية جديدة .

Digitized by Birzeit University Library

فالعربي هو ليس من يعيش التقاليد والعادات العربية بل هو من يحب بلاده ويخدم مجتمعه ويعترف ويشعر بانه عربي بغض النظر عن اسلوبه وطريقته ونظرته الى الحياة . هو من يجد الطريقة الفعالة للوصول الى اهدافه القومية والوطنية وهي رفع مستوى الحياة المادي والروحي لأمته وللانسانية جمعاء . فالعصرية العربية هي التغير الذي يحصل عن طريق العرب ولمصلحة العرب وعلى أرض العرب ومن اجل العرب والانسانية .

المادة والروح "المدرحية"

نحن نعيش في عصر المادة . والحضارة الاوروبية هي حضارة مادية ومعنى التطور اليوم مادي . وهذا لا يعني ان المادة هي كل شيء في عصرنا وأن الانسان في هذا العصر لا يعترف بقيم اخرى غير مادية ولكنه يعني ان المادة هي الاهم في الاساس وفي الاهداف وفي التطور ولذلك فهي كثيرا ما تكون او تظهر وكأنها الكل او الاكثر او الاعظم .

بهذا المعنى نجد ان نماذج Models التطور العصرية في زمننا كلها مادية . ولا فرق بين النموذج الشيوعي والنموذج الغربي وحتى اذا شئنا ان نذكر التطور الياباني كنموذج فلا فرق بينه وبين غيره فهو مادي ايضا . وحيث ان اساس المادة العصرية هو الصناعة فاننا نجد في هذا الاساس العامل المشترك والوسيط لكل هذه النماذج. والماركسية الشيوعية هي فلسفة غربية في اصلها ، فماركس هو من ثمار العالم الغربي الثقافي وهو طبعا الماني الاصل . وفي الحقيقة انه جعل المادية الغربية عقائدية واعطاها شكلا فلسفيا وجعل تصديرها خارج العالم الغربي اسهل واقوى مما كانت عليه قبل ظهوره . فالماركسية هي تغرب

Digitized by Birzeit University Library

مريـــح Frank Westernization ومتطـــرف .

من خلال تطور الحضارة الاوروبية التاريخي نجـد نظرة اوروبية للحياة تربط سعادة الانسان بوجوده المـــادى ؛ فالراحة المادية للغربي هي اساس السعادة . ولتطوير وسائل الراحة المادية اكدت الثقافة الغربية على الانتاج وعلـــى العمل واعطتهما قيما قوية جدا . فالغربي ، خصوصـــا الامريكي ، طور "فلسفة" عمل ونظام انتاج لتكونا معنـى الحياة وقيمتها فهو يشعر بالاثم عندما يتكاسل او عندما يضيع الوقت بدون انتاج مادى . فهو يعمل الساعات الطويلة وحتى انه يقع في الدين ليوفر لنفسه الراحة المادية مـــن اثاث وادوات كهربائية وآلات ، وسرعان ما يبدلها بغيرها لأنها لم تعد تعجبه ولان في الاسواق احسن منها . وهو من اجل المادة يقتلع جذوره فيتنقل من مكان لمكان وتحركـه Mobility هذا صار سببا للكثير من مشاكل مجتمعـــه ، خصوصا التفسخ العائلي ، وللمشاكل السايكولوجية للافـــراد ، خصوصا الزوجـات والابنـاء الذين يضحون من اجل ابائهـــم بسعادتهم النفسية لأن المكافأة النفسية بالنسبة لهم اقل من المكافأة التي يكتسبها الأب صاحب العمل او صاحب الوظيفـة . ويدفع الغربي الثمن لسيطرة المادة عليه نفسيا عندمـــا يتقدم في السن ويتقاعد عن عمله اذ يكتشف الحقيقة المـــرة وهي أن العلاقات الانسانية التي عملها في حياته لم تكـن قوية بل كانت سطحية فلذلك يشعر بالوحدة . ومن الامريكيين مثلا من يذهب الى بيت العجزة او الى اماكن يسكن فيهـــا المتقاعدون من أمثاله . وحتى اولادهم تجدهم بعيدين عنهم لانهم هم ايضا منغمسون في المادة ولا يبقى بينهـــم الا العلاقات الرمزية والشكلية . طبعا ليس كل الاميركان هـــم بهذا الشكل ويوجد منهم خصوصا في البلاد الصغيرة وفـــي المناطق الزراعية وحتى في بعض المدن من يتمسك بعلاقاتـــه

Digitized by Birzeit University Library

العائلية ، ولكنهم اقلية ، وعلاقاتهم ضعيفة بالنسبة للعلاقات العائلية في العالم العربي . فأمريكا معظم سكانها اليوم موجودون في المدن حيث العلاقات ضعيفة والمادة كثيرة .

ان الانسان الغربي دفع ثمنا لمغالاته في المادة ،وهذا الثمن يظهر في فقره الروحي . والروحانيات كان معناها الاصلي دينيا ولكنها اليوم تعني كل شيء غير مادي ليس له جسم ولا يحتل مكانا . هي تحتوي المبهمات Abstractions والشعور والعقائد السماوية وغير السماوية . وتعتبر العلاقات الانسانية منها ، وكذلك العلاقات الشخصية ، فالحب والصدق والامانة والاخوة والصداقة والجيرة والخير والجمال والحق كلها من ضمن القيم الروحية . أما الكراهية والكذب والسرقة والعداوة والشر والقباحة والباطل فكلها فساد للروحانيات وعلامة لاضمحلالها وضعفها . وطبعا للروحانيات تجسد مادي فالدين له معابده ورموزه ، والحب له الاحباء ، والجمال يتصل بالاشخاص والاشياء ، والروحانيات ليس لها معنى بدون الوجود المادي للأنسان .

المادة لا تنفصل عن الروح والعكس صحيح . ولكن في حياة الغربي المادة لها الاولية والاكثرية وهي الاقوى والمسيطرة . الحياة الكاملة هي التي تكون فيها الروحانيات والمادة متزنتين ومتعادلتين ولكن في الحياة الغربية لا يوجد اتزان وتعادل بينهما . وعلينا ان نؤكد ايضا انه لا توجد حياة مادية خالصة او روحية خالصة ولم اجد مجتمعا ماديا لا يعترف بالروحانيات ولا مجتمعا روحيا لا يعترف بالمادة . والعربي كغيره من الشعوب يحب المادة ، وفي الحقيقة ان مادية الغربي مستواها اعلى بكثير من مادية العربي التي تظهر بقباحتها ، فالغربي يفهم المادة لان قيمة مادية . أما العربي فلا يفهمها فهي عنده غير ناضجة

Digitized by Birzeit University Library

وتعكس رغبة متخلفة . ان مادية الغربي مركبة Structured ومنظمة فهي مفهومة وواضحة وصريحة ، اما مادية العربي فهي غير مركبة وليس لها اساس في مفاهيمه ولذلك فهي تظهر عارية تعكس انانيته وفرديته . فمادية العربي ليس لها قواعد ولذلك لا تعترف بها قيمه الاجتماعية . والعالم الغربي يسخر من مادية العربي وهو يحتقرها لأنها عارية ولأنها غير مركبة ولأنها غير راقية .

ان مادية الغربي يصحبها الالتزام اما مادية العربي فلا يصحبها الالتزام ، وهذا مهم لأن الغربي يعتبرها الحق والواقع ويدافع عنها ولا يخجل منها ، اما العربي فيرفضها ويحتقرها وينكرها ، رغم انه يرغبها ويطلبها ويحصل عليها بطريقة غير مسؤولة وبطريقة انانية . فاذا سألت عربيا عن كونه ماديا اجابك بالنفي ولكنه بنفس الوقت يظهر ماديته للعيان وكأنه يفتخر بها ، فماديته تتطور في جو فوضوي فيه التناقض والعراك . اما الغربي فماديته تطورت ايضا ولكن ، لسوء الحظ ، ليصير هو عبدها وهي سيدته .

الروحانيات عند العربي معناها ديني فهو يفتخر بها ولكنه يحتقر المادة كقيم اجتماعية ويعتبرها قذرة أي سلبية بمعناها . فالغني عند العربي محسود ويعتبر وكأنه سارق حق الآخرين اما عند الامريكي مثلا فالغني هو انسان ناجح موفق يجب احترامه والدعاء له بالتوفيق ولأنه ناجح فيجب تقليده فهو المثال الذي يقتدي به الناس . عند العربي الغني محسود يدعا عليه بالفقر ، والعربي يدعو للغني بالفقر وللفقير بالغنى ؛ والسبب هو ان الغني في العالم العربي اكتسب غناه عن طريق حرمان الاخرين لأن الارض كانت وما زالت ، الا لطبقة محدودة ، اساس الثروات اما اساس الثروات في

Digitized by Birzeit University Library

العالم الغربي فهو الانتاج وعلى الاخص الانتاج الصناعي . وبينما نجد غني العرب كسولا نجد غنى الغرب شغالا . وتدل الدراسات على أن الغني في امريكا يعاني من الامراض العصبية والقرحة اكثر من غيره ، وحسب رأينا اكثر من اغنياء العالم الثالث الذين ربما يعانون مشكلة السمنة . فالعربي يطلب الغنى بشراهة اما الامريكي فيطلبه بكثرة وبانتظام وكأنه عقيدته . ولذلك فمادية العربي تظهر تافهة ومصطنعة وهي تشبه روحانيات الغربي التي هي ايضا تافهة وغير ناضجة ومستواها متدن . وكما دفع الغربي ثمنا باهظا لمغالاته في المادة فقد دفع العربي ثمنا باهظا لمغالاته في الروحانيات . والثمن هو فقر الناس المادي . (طبعا بلاد الخليج وبلاد البترول وضعها الوقتي شاذ لأن الطبيعة اعطتها مادة ثمينة الدخل فيها كاف للجميع ولكن من وجهة الاطباع فهي ليست شاذة ابدا) .

لكل سعادة تعاسة . والكثرة لها عثرة . المادة او الروح هي كالمارتيني (مشروب كحولي) اذا شربت القليل منه شعرت بالانتعاش واذا شربت الكثير منه شعرت بالانزعاج . وثمن المغالاة في الروحانيات او الماديات هو ما يترتب عليه من عقابيل لان هذه المغالاة تشبه السكر وباستطاعتك القول ان العربي سكران بالدين والغربي سكران بالمادة .

طبعا في تحليلنا هذا نحن نقارن مجتمعات واساليب حياة لا افراد . ففي العالم الغربي شذوذ وفي العالم العربي شذوذ اي اقليات عددية لا ينطبق عليها تحليلنا . وفي تحليلنا نريد ان نؤكد بأن للمادة روحانيات وللروحانيات مادة . مقاييس التطور والتقدم هي اليوم مادية لأن اوروبا صاحبة الفلسفة المادية تغلبت على العالم بقوة ماديتها في وقت كانت روحانيات الأخرين قد فسدت وضعفت . فروحانيات

Digitized by Birzeit University Library

العرب كالدين والعلاقات الانسانية والعائلية رغم وجودها القوي هي في شكل فاسد اي ان نوعيتها سيئة . وعندما كانت نوعيتها ممتازة تغلبت على العالم وكانت مركز الحضارة الانسانية . ولكنها انتهت وكما قلنا فان ما نراه اليوم هو شيء اخر هو تطور سلبي وفاشل ، وهو علاقة رجعية مع الماضي .

القوة اليوم للحضارة المادية لأن مستواها اعلى من الحضارة الروحانية المعاصرة . وكما قلنا هذه الحضارة هي غربية مادية صناعية والصفات الثلاث المذكورة هي عصرية اليوم . ومعنى العصرية للعربي هو اسلوب الحياة الغربية . وفي الضفة الغربية العصري هو على العموم ابن المدينة وتستعمل العبارة "متمدن" لكل من هو متأثر بأساليب الحياة المدنية . أما في المدينة فالعصري هو من يقلد الاساليب الغربية . وهذا المقياس هو نفسه الذي يستعمله الغربي في نظرته لغير الغربي او للعربي .

الحضارة الغربية هي اولى الحضارات المادية . لاحظ أن الغربي يفتخر بأن مستوى المعاش عنده عال فهو يتحدث عن معدل الدخل القومي ويحكم على تقدم المجتمعات الاخرى على هذا الاساس لأن مقياس النجاح عنده هو هذا المقياس . اما الحضارات التاريخية السابقة فقد كانت مقاييسها تختلف . فالعرب الحضاريون لم يفتخروا بمعدل دخلهم الفردي أو بقوتهم الانتاجية المادية بل بمقاييسهم الروحانية - الدينية . ورغم ان الفينيقيين اسسوا امبراطورية تجارية الا أن المادة لم تكن فلسفة حياتهم الى درجة كونها في العالم الغربي . فالتجارة كانت مهنتهم واساس معيشتهم واساس توسعهم الامبراطوري ، ولكن لم تكن نظرتهم الى الحياة وفلسفتهم وقيمهم على هذا الاساس .

Digitized by Birzeit University Library

والغرب سيختبر اضمحلال القيم المادية لأن الحضارات تخضع الى نفس القوانين الحياتية التي يخضع لها الانسان اي انها تحيا وتموت . وهي الآن في مرحلة بداية الاضمحلال لأن قيم العمل وقيم الانتاج هي في مرحلة التغير فالغربيون يتساءلون اليوم عن معنى الحياة وعلاقة القيم المادية بها وهم يتساءلون عن ضياع او ضعف القيم الروحية . والحضارات التي تموت لا تعود . فالاسلام "أدى رسالته" ولا يمكن ان يصلح لبناء حضارة جديدة في القرن العشرين او الواحد والعشرين . والعرب نهضوا تاريخيا مرة واحدة ، عن طريق الاسلام الذي كان اساس حضارتهم الكبرى . والغريب في العرب هو وجودهم الحضاري فاما ان يكونوا في الذروة او في الحضيض ، أي في اوج العظمة وعلى رأسها او في المستنقع حيث الاضمحلال يكون قويا والقيم الاجتماعية فاسدة . ولا تجد العربي في منتصف الطريق او في الوسط . فالنهضة العربية التاريخية ربما كانت تفوق جميع النهضات الاخرى وبالتأكيد هي من اعظمها . واليوم ، نجد العرب في حالة محزنة ، تغلبت عليهم دولة صغيرة (بدعم خارجي كبير لا شك) ولكن امكانياتهم كبيرة جدا وهي كافية لايصالهم الى اعلى قمم التطور الحضاري ، ولكن على اساس حضاري جديد لا على اساس حضاري قديم .

فالجدل حول قوة الاسلام التطورية في عصرنا هذا لا يجدي . والذين يؤمنون بأن التطور العصري ممكن عن طريقه هم الذين يريدون الرجوع الى الوراء بدلا من البسير الى الامام ، هم الذين يضيعون وقتهم ووقت غيرهم . فالتطور لا يكون بالرجوع الى الوراء مهما كان نوع الأيدولوجية التي يهدف اليها وهذه النظرة معناها ان يتطور المجتمع ليصل الأيدولوجية الماضية وهي عكس معنى التطور الفعال الذي يحصل عن طريق الأيدولوجية . فالأيدولوجية التطورية هي وسيلة

Digitized by Birzeit University Library

التطور ورغم ان اهداف التطور هي جزء مهم منها الا انها لا يمكن ان تكون اهدافا فقط . خذ مثلا البلاد التي تدعي انها تطبق الاسلام فهي رجعية وليست تقدمية والتطور الذي يحدث فيها هو غربي او تطور تقليد وتطور قشور لا تطور اصلي ولا تطور جوهر . ومن الممكن ان يتهم الشخص هذه الدول بانها غير مسلمة اي غير مخلصة للاسلام وأن ما تطبقه هو ليس الاسلام بحقيقته ولكن هذا الاتهام وهذا الجدل لا يفيد وهو ، كما قلنا ، يؤخر التقدم ويؤجله . واذا طبقنا الاسلام فلا يمكن ان نطبق منه الا النظرة الدينية المتخلفة اما الدين نفسه ففعله التطوري كامن في قوته الاقلاعية وهذه القوة صرفت امكانياتها لأنها اقلعت منذ مدة طويلة ولا يمكن ان تقلع اكثر من مرة لا هي ولا غيرها من الأيدولوجيات التطورية الماضية . لذلك فان الاسلام يجب ان ننظر اليه كدين سماوي يحدد علاقة الانسان بالله اما علاقة الانسان بالانسان فهي بحاجة الى أيدولوجية دنيوية .

وعلى سبيل الاقتراح ، فاننا نؤمن بأن العقيدة الجديدة يجب ان تكون اولا دنيوية تفصل الدين عن الدولة دون ان تعادي الدين . وثانيا يجب ان تكون قومية لأن عصرنا هو عصر القوميات ولأن عصر الامبراطوريات انتهى ولأن الانسانية الدولية ليست جاهزة ثقافيا لغير القوميات . ولكن القومية يجب ان تكون انسانية فالعربي كان انسانا قبل ان يصير عربيا ، وهو انسان كما انه عربي ، وعندما يموت سيموت كانسان لا كعربي . فالانسانية هي البداية والوسط والنهاية اما العروبة فهي الوسط فقط . وثالثا يجب ان تكون أيدولوجية تغيير وتطور اي يجب ان تصبو الى خلق جيل جديد عصري لا بالمعنى الغربي بل بالمعنى القومي العربي . الجيل الجديد يجب الا يكون نسخة عن آبائه ولا عن اجداده . هذا الجيل يجب أن يختلف عنهم دون ان ينفصل

Digitized by Birzeit University Library

عنهم . ويجب ان يكون لها نظرة استقبالية وتضع الوسائل للوصول الى اهدافها التقدمية ومن هذه الوسائل اعادة بناء الشخصية الفردية على اسس تربوية حديثة تتناسب مع الاهداف التطورية . ورابعا يجب ان تغير هذه الأيدولوجية فلسفة الحياة ونظرة الناس اليها اي يجب ان تضع اسس فلسفة حياة للقومية العربية ولأن هذا الأمر مهم فعلينا بحثه بالتفصيل.

هذه الفلسفة يجب ان تكون اساسا لحضارة جديدة مستقلة عن الحضارة الاوروبية ـ الغربية . فهي ليست مادية ولا روحية . فالحضارة المادية تحطم النفس والحضارة الروحية تحطم الجسم . وأفضل حياة هي التي توازن وتعادل المادة والروح اي الفلسفة المدرحية التي ذكرناها سابقا .

وهي فلسفة دعا اليها انطون سعادة ونحن مدينون له لأنه هو الذي استرعى انتباهنا اليها ودفعنا الى التركيز عليها . واننا نقول ان هذه الفلسفة صالحة كأساس للتطور العربي ؛ فتوازن الروح والمادة هو ضروري لتوازن النفس والجسم . هذا التوازن صعب وفي بعض الاحيان مستحيل لأنه ليس عملية حسابية تعطي للروح خمسين بالمئة وللمادة الخمسين الاخرى . ولا تعني مساواة في الوزن ، كيلو غرام هنا وكيلو غرام هناك ، اذ انها ليست موازنة كمية . المدرحية هي نظرة او فلسفة او ادراك له اهمية واقعية ومنفعة تطبيقية لأنها عملية توازن في كل شيء فهي لا تقبل الكثير ولا تقبل القليل وهي لا تقبل الكبير ولا تقبل الصغير وكذلك هي ترفض الغنى الفاحش والفقر المعدم وهكذا . وهي نظرة تؤثر على المهندس والمعلم والمحامي والعامل والتاجر والمزارع كل في عمله . ولنأخذ المهندس المعماري في عمله : المهندس الغربي ، خصوصا الامريكي ، يركز على المنفعة التجارية للبناء وصاحب البيت يركز على الراحة الداخلية في بيته

Digitized by Birzeit University Library

والابنية في اميركا تجدها غير جميلة من الخارج ولكنها نفعية من الداخل . وهذا يدل على انانية صاحب البيت وتجارية صاحب العمارات الكبرى التجارية . والناس في اميركا ، خصوصا الشباب يشكون من برود مظهر الابنية . وفي الحقيقة انهم يشكون من برودة مظاهر حياتهم المادية على الاجمال : الشوارع والأبنية الضخمة وما الى ذلك . والمهندس والملاك يركزان على الحجم الكبير فالشوارع عريضة والابنية طويلة . ولا شك ان اسلوب البناء وتخطيط المدن في اميركا مؤذ للاحساسات الانسانية ، مؤذ للعين والعاطفة ، ومن مساوئه شعور الاميركي بالوحدة والصغر لأن كل شيء حوله كبير وضخم والامريكي يشعر بأنه مقهور ومغلوب على أمره ويشعر بعدم الاهمية كفرد لأن وجوده المادي معقد وكبير . وهذا الوجود ينقصه الوجود الانساني كالأماكن البسيطة التي تعبر عن نشاط انساني بسيط كالمقاهي والدكاكين والابنية الصغيرة . ورغم وجود هذه الاشياء الا أنها لا تشكل المنظر العام للمدينة . والامريكي ميال للاختصاص في العمل Division of Labor فهو يأكل ويتبضع في مكان (المحلات التجارية) ويسكن في مكان ثان (الاحياء السكنية) ويشتغل في مكان ثالث (المصانع والمكاتب) ويتسلى ويترفه في مكان رابع وكلها منفصلة عن بعضها البعض . وأنت تجد أحياء السكن هادئة ولكنها تشعرك بالضجر والوحدة والمحلات التجارية وأماكن الترفيه مزدحمة بالناس وصاخبة . وأماكن العمل تجدها منظمة والبرودة تخيم على الاقسام الاربعة كلها . فالامريكي منظم ، ولا يخلط النوم مع التسلية ومع العمل ومع التجارة لأنه يتوخى الانتاج ، فتجده يمضي وقتا طويلا في الطريق من مكان الى مكان وتجده وحيدا لا يعرف جاره معرفة قوية شخصية الا في المناسبات وفي خارج مكان السكنى تجده محاطا بأناس لا يعرفهم وهذا شأنه في المحلات

Digitized by Birzeit University Library

التجارية ومحلات العمل . فهو رقم لا اكثر ولا اقل ، وحياته وعلاقاته ميكانيكية . ومادیته ستصل الى مرحلة تكون حياته فيها آلية لدرجة انه سيكون تقريبا الانسان الآلي Robot الاول او ما يشابهه .

قارن وضع الأمريكي بالاوروبي التقليدي . ففي اوروبا تجد الابنية القديمة مثل الكنائس والقلاع والقصور وأبنية الدولة تبعث فيك الروح وتشعرك بالدفء والطمأنينة . والفرق بينها وبين الأبنية الحديثة في اوروبا وفي اميركا كبير للغاية . فهي جميلة وفن النقش الاثري فيها رائع مما يدل على اهتمام المهندس وصاحب البناء بالمنظر الخارجي الذي كلفه الكثير . من الناحية الاجتماعية هذه الابنية الجميلة تعكس وجود تركيب طبقي سيء . فصاحب البناء كان مركزه الاجتماعي رفيعا وقويا وطبعا كان غنيا جدا وغايته كانت حب الظهور . ولكن البناء كان له قيمة فنية وما زال يعطي الشعور الدافيء للناس .

لا البناء الطبقي ولا البناء التجاري له اساس اجتماعي صحيح . فالبيت يملكه شخص أو شركة او حكومة ولكن الشارع والمدينة يملكها الناس . فالشخص عليه مسؤولية نحو المجتمع لأنه لا يملك الشارع ولا يملك المدينة ولا يملك البلاد ولكن بيته هو جزء منها ولا يصح أن يبنيه دون اعتبار حقوق الناس ، حقهم بأن يكون شارعهم جميلا وبلدتهم جميلة وبلادهم جميلة ، ونظيفة ايضا .

الأنسان المدرجي (الذي يؤمن بتوازن المادة والروح) يحاول ان يوازن المصلحة الشخصية مع المصلحة العامة وذلك بموازنة راحته الداخلية (في البناء) بمصلحة الناس في منظر بيته الخارجي . فيعطي نفسه الممكن من الراحة الشخصية

Digitized by Birzeit University Library

ويعطي الناس الممكن من جمال البيت الخارجي . فيجب الا تتوقع منه ان يضع مجهوده وماله في منظر البيت الخارجي وأن يتجاهل وضع البيت الداخلي . فالاقطاعي الاوروبي كان عنده المال للراحة وللجمال رغم أن دافعه لم يكن منظر الشارع والمدينة وراحة الناس .

انها المدرحية التي تجعل الناس يفكرون بهذه الأمور وتضطرهم الى التساؤل قبل الشروع بالعمل عما اذا كانت الفائدة تعود للجماعة او للفرد او لكليهما . فالمدرحي يريد الفائدة للفرد وللجماعة ولا يقبل ان يطغى الفرد على الجماعة ولا الجماعة على الفرد . فهو يعترف بأنانية الفرد ومصلحة الجماعة ويحاول موازنتهما لصالح الفريقين . وهذا يكون طبعه في شؤون ونشاطات اخرى . فلا يصح مثلا أن تلوث الانهار والبحيرات وحتى الهواء لصالح الصناعة واصحابها . ولا يصح ان يستعمر الاخرون ويستعبدوا لصالح الشعوب القوية . ولا يصح اللجوء للحروب للسيطرة على الاخرين من اجل المصالح . المدرحية ترغمنا على الحد من انانيتنا الفردية والقومية من أجل الانسانية . وبنفس الوقت تعلمنا ان نكون اقوياء لحماية مصالحنا من تعدى الاخرين ومن انانيتهم كأفراد وكقوميات .

هذه هي فلسفة التطور الجديدة التي يجب ان تتبعها القومية العربية . فهي فلسفة تعلمت من اخطاء الحضارات المادية ومن اخطاء الحضارات الروحانية . انها ربط ووصل لفلسفتين متناقضتين وملتحمتين ، هي تنظر الى الحياة على اساس الانسان ، وتعتبرها ، كما تعتبر الانسان ، جسما (مادة) ونفسا (روحا) وأن عنصرى الحياة هذين موحدان ابديا لأن طبيعتهما الحيوية لا تفصلهما ابدا . فلا المادة تعيش بدون روح ولا الروح تعيش بدون مادة . وسعادة

Digitized by Birzeit University Library

الانسان لا يمكن ان توجد في مجتمع فقير ماديا فهذا المجتمع حياة الانسان فيه قصيرة وانسانه يكون عرضة للامراض ومهددا بقوة الاخرين . ولا يمكن أن توجد هذه السعادة في مجتمع غني ماديا وفقير روحيا فهذا المجتمع يهدد الحياة ، حياته هو وحياة غيره ، ويقتل انسانية الحياة اذ يسلبها العنصر النفسي – الروحي ويقلبها الى ميكانيكية ضخمة .

المدرحية تعترف بالعلمانية كما انها تعترف بأن هناك اسئلة لا نعرف جوابها ، وتعترف بارتباط العلم والجهل ارتباطا تطوريا ابديا . فالعلم لا يتطور الا في ساحة الجهل والجهل هو على مستويات ، كثرته تضر وقلته تنفع ، ولكنه يرفض أن يختفي لأنه ، كالعلم ، روحي . ومعنى ذلك أنه لا نهاية للعلم ولا نهاية للجهل .

ومن الوجهة التطورية ، تعتبر المدرحية المجتمعات المادية "العصرية" في الحقيقة متخلفة والمجتمعات الروحانية هي ايضا متخلفة . الحضارة الغربية هي عصرية حسب مقاييس الناس الحاضرة ولكنها حسب مقاييس المدرحية متخلفة . ولهذا كنا قد انذرنا القارىء أن يفرق بين معاني العصرية الزمنية ومعناها الفلسفي . فمقاييس الناس تتغير من زمن الى زمن ولكن مقاييس الفلسفة ، اذا كانت صحيحة ، وعلمانية ، لا تتغير . وعلماء الانماء الذين يستعملون المقاييس الزمنية يغيرون نظرياتهم ، فنظرتهم للعصرية هي وقتية ! فالذي يعتبر الغربي عصريا مخطيء لأن الغربي متخلف من وجهة المقاييس الروحية . واذا كان العربي البدوي متخلفا لأنه بدائي وحياته المادية بسيطة فاننا نعتبر الغربي متخلفا وبدائيا من ناحية روحية .

Digitized by Birzeit University Library

التطور العصري في الخليج العربي

منذ ارتفاع اسعار البترول بعد حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ ارتفع الدخل منه ارتفاعا لا نظير له في تاريخ البلاد المتخلفة . وفي مدة قصيرة صار معدل الدخل الفردي في الكويت مثلا اعلى منه في الولايات المتحدة . وصار لدى بلدان الخليج رأس المال الكافي للتطور . هذه البلاد فقيرة في جميع عوامل الانتاج الا رأس المال النقدي . فهي فقيرة في المعرفة الكيفية ، وفي الثروات الطبيعية (الا البترول طبعا) ، وبالاضافة الى ذلك كله فان العامل السكاني فيها ضعيف . ولذلك فالتطور الذي يحصل في هذه البلاد هو تطور عن طريق عامل واحد هو رأس المال النقدي . ورغم ارتفاع معدل الدخل الفردي وكثرة المظاهر العصرية فيها فاننا نعتبر أن هذه البلاد ما زالت متخلفة . التطور الذي حدث فيها اشترته الاموال ولم يكن نتيجة قوة عناصرها التطورية (الانتاجية) الداخلية . فالتقدم الذي حصل هو مادي محض لا تدعمه النوعية الانسانية العصرية ولا الثقافة العصرية التي تنسجم معه اي انه تطور مستورد .

ان بلدان الخليج العربي تعاني من التناقض بين نوعية سكانها التقليديين وحياتهم المادية ، فالمظاهر الخارجية عصرية اما العناصر الداخلية فما زالت تقليدية . ويقول سميث همبستون Smith Hempstone ان من أمثال ما تستطيع شراءه الاموال من العصرية هو المستشفى الذي بنته السعودية في الرياض اذ يتسع الى ٢٢٠ سريرا ، كلفها السرير الواحد مليون دولار . هذا المستشفى ربما كان احدث مستشفى في العالم من وجهة المعدات الطبية والراحة المادية . والتناقض هو في أن البلد متخلف للغاية ومستشفى كهذا عادة

Digitized by Birzeit University Library

لا يوجد في مستوى متخلف كالسعودية حيث يشكل التدرن الرئوي Tuberculosis مشكلة كبيرة بين السكان البالغ عددهم ما يقارب سبعة ملايين نسمة [1]. والتطور في منطقة الخليج العربي ليس فقط مستوردا من ناحية ماديته بل من ناحية الانسان الذي يقوم به . فالمستشفى الذي ذكرناه اصطحبه الاطباء والممرضات والتقنيون الاجانب ، وكذلك نجد هذه الظاهرة في كل ناحية اخرى من التطور . وكأن سكان البلاد الأصليين انما وجدوا للتنعم بهذا التطور وقدرتهم على استيعاب المعرفة الكيفية اقل بكثير من رغبتهم وقدرتهم على استهلاك انتاجاتها . واصحاب المعرفة الكيفية اي الطبقة التقنية هم في الاكثر اجانب ، وحتى العمال هم من الاجانب . ففي الكويت مثلا عدد الاجانب فاق عدد الاهالي ومع الوقت ستصبح السعودية في نفس المأزق .

ان وجود الاجانب في منطقة الخليج يخلق مشكلة اجتماعية مهمة للغاية وهي مشكلة التجزؤ والتفسخ الاجتماعي. وبلاد الخليج تتبع سياسة غير حكيمة بالنسبة لهؤلاء الاجانب فهي لا تعطيهم حق المواطنين الا القليل منهم . ولهذا السبب يشعر الاجنبي بأن وجوده وعلاقته بالبلاد هو وجود مادي محض وليس له اتصال روحي بها . والاجنبي العربي ، خصوصا الفلسطيني ، يشعر بالغربة شعورا قويا والغربة Alienation اينما وجدت تكون خطرا على المجتمع . والذي يزيد من حدة هذا الشعور هو سلوك ابن الخليج الذي يظن ان الحق معه حتى ولو كان مخطئا ويتوقع ان يدللله غير الخليجي ويقدم له الاحترام والشكر . وطبعا الاجنبي يزيد من المشكلة فهو ينظر الى الكويتي والسعودي وكأنه همجي اي متخلف الى درجة غير معقولة ويحتقره وينقم عليه لأن حظه كان قويا وهو لا يستحقه . والحقيقة ان الخليج

Digitized by Birzeit University Library

هو كالبقرة الهولندية يحلبها الناس دون مراعاة صحتها وعندما ينقطع حليبها سيقتلها الناس ليأكلوا لحمها وبعدها سيجوع الناس ويندمون على شراهتهم .

والخليجي يخاف من الفلسطيني اكثر من غيره . وشعوره نحوه متناقض ، فبينما يشعر ببعض المسؤولية نحوه كعربي وكمسلم تجده يخاف منه سياسيا ، اذ لا يأتمن له لأنه انسان بدون وطن ولأن ولاءه حيث احلامه اي في فلسطين . وطبع الفلسطيني غريب ايضا ، طبعا بالنسبة لابن الخليج ، فهو يريد جميع حقوق المواطن الخليجي دون ان يكون مواطنا فهو يريد ان يظل فلسطينيا ويريد من ابن الخليج ان يدعمه في تحقيق احلامه السياسية وهي العودة الى بلاده . الشعور بالغربة Alienation الناتج عن هذه الاطباع الخليجية والفلسطينية هو المشكلة الاولى في المنطقة . والتطور العصري الذي يحدث في منطقة الخليج يكلف الكثير وهو مهدد من قبل الاجنبي ومن قبل ابن البلاد على حد سواء فبينما استيعاب ابن البلاد له محدود نجد ان الاجنبي لا يهتم به ابدا . وهذا الوصف ينطبق بصورة اكبر على الاجنبي الغربي والاجنبي غير العربي وغير المسلم . هؤلاء الاجانب يهتمون بالمال والربح فقط اما مصلحة الخليج فاهتمامهم بها معدوم .

ولكنهم ، اي الاجانب ، هم عجلة التطور ، فاذا نفدت الاموال تركوا واذا تركوا قبل تطوير الاهالي لأنفسهم أي قبل أن تكتمل عصريتهم فان التركيب المادي للبلاد سينهار . فالمستشفى الذي ذكرناه سابقا سيتلاشى وحتى بناؤه سينهار ان لم يحل محل الطبيب والممرضة واصحاب المهارات الاجانب اناس من ابناء الخليج ممن يعادلونهم في الكفاءات . والحقيقة ان البلاد ستظل تعاني من ضعف بنية وهياكل الانتاج الى ان تحل المشكلة السكانية بما فيها من نقص

Digitized by Birzeit University Library

المهارات والاعداد . وحتى اذا حلت هذه المشكلة فمن المحتمل ان تظل البلاد مهددة حتى بنفاد رؤوس الاموال النقدية .

لذلك فان السعودية تسرع في التطور على اساس ذاتية الحركة Automation ولكن في الحقيقة ان هذه الخطة تحتاج الى تكنولوجيا من نوع خاص على مستوى متقدم للغاية والسعودية ليس لديها هذه التكنولوجيا ولن تصير عندها لأن السعوديين لم يحصلوا على سوابقها الضرورية لها وسيظل اعتمادهم على الاجانب كبيرا . وبالاضافة ، ما زالت بلاد الخليج لم تستكمل الهياكل الاساسية لاقتصادها Infrastructure كما يتضح من دراسة للدكتور محمود عبد الفضيل (٢). وهناك شك قوي في امكانية بلاد الخليج على انهاء هذه العملية التطويرية الصعبة بنجاح .

التناقضات الاجتماعية الناتجة عن التطور الحالي تحتاج الى حل آخر سريع . هذا الحل ، رغم انه وقتي ، لكنه ضروري ويجب ان يكون على اساس اعطاء الجنسية للاجانب العاملين في البلاد وخلق البيئة التربوية لدمجهم روحيا بها . ولكن هذه المشكلة ليست هي الوحيدة في المجتمع . فالتجزؤ الاجتماعي له ناحية اخرى مهمة وهي الفوارق الطبقية وظهور جماعات ضغط جديدة غير متكاملة مع التركيب الاجتماعي القديم . فالتطور الاقتصادي الجديد غير التركيب الاجتماعي التقليدي . في السعودية مثلا نسبة البدو الحالية هي ٣٠ بالمئة . فالتطوير سيؤثر على هذه النسب عن طريق مشاريع الاسكان ومشاريع محو الامية . وسيكون لهذا التغيير أثره الاجتماعي الملحوظ . والتطوير يؤثر على معادلة سكان المدن وسكان الريف ايضا . وستكون لكل هذه التغييرات معان سياسية ، بالاضافة الى معانيها الاقتصادية والاجتماعية .

Digitized by Birzeit University Library

في بلاد الخليج الوضع الطبقي تغير . فالطبقة العمالية كبرت واكثرها من الاجانب خصوصا الايدي العاملة الماهرة ولكن غير الماهرة ايضا . ونسبة عالية من الطبقة المتوسطة هي اجنبية . اما ابناء الخليج او الاهالي "الاصليون" فلا يوجد بينهم الفقراء (هذا اذا استثنينا البدو) . ولكن هناك بين الاجانب (عرب غير خليجيين) من استطاع ان يصير غنيا . والفرق بين الغني الخليجي وغير الخليجي هو ان الغني غير الخليجي له ارتباط اكثر بالانتاج اي له قاعدة اقتصادية منتجة . اما الغني الخليجي فأساسه السلطة والجنسية . ولكن هناك اقلية خليجية ضئيلة خصوصا في الكويت غناها مربوط بالانتاج .

كل هذه التغييرات الناتجة عن التطور الاقتصادي تخلق ضرورة قصوى للعمل التكاملي الاجتماعي والسياسي ، فالفجوات التي سببتها في التركيب الاجتماعي والسياسي كبيرة جدا . ولا شك ان عمليات التكامل Integrative Processes في منطقة الخليج ضعيفة للغاية وادراك المسؤولين لخطورتها ضعيف . وعندما يتغير التركيب الاجتماعي لأي بلاد يصبح من الضروري ان يتغير معه تركيبها السياسي اي تركيب القوى فيها Power Structure فاذا استمرت البلاد بتركيب قوى قديم بالرغم من تغير تركيبها الاجتماعي السريع فان النتيجة ستكون سيئة . وهذه المشكلة موجودة في بلاد الخليج لأن تركيبها السياسي ما زال قبليا وعائليا . اي تقليديا . ولذلك فهي تعاني ما يسميه علماء الاجتماع بفجوة المؤسسات Institutional Gap اي الفارق بين التركيب القديم والتطور الجديد . واذا كان هذا الفارق عظيما فسوف تكون نتيجته الاضطرابات والانقلابات والثورات .

هذا ما قاله آرنولد رفكن Arnold Rivkin عن

Digitized by Birzeit University Library
مكتبة جامعة

افريقيا وهو ينطبق على البلاد الأخرى التي تعاني من نفس المشكلة (٥). ويسترعي انتباهنا البروفسور ساموبل ايزنستدات Samuel Eisenstadt الى حقيقة التطور عندما قال ان مشكلة التحديث هي تطوير المؤسسات القادرة على منع التفسخ والانهيار في المجتمع (٦). وينذرنا البروفسور زولبرج Aristide Zolberg بأن فترات عدم استقرار ستأتي لتهدد انظمة بأكملها لدرجة ان عدم الاستقرار هذا سيكون القاعدة وليس الشاذ (٧). وربما اعطتنا اقوال جوث Goethe عن الفوضى فكرة عن خطورتها : انني افضل الظلم على الفوضى لانه من الممكن ان يموت الانسان بسبب الفوضى ولكنه لا يموت بسبب الظلم ، ولأن الظلم يمكن تصحيحه . وايضا قوله أنه "من الممكن ان يكون هناك نظام بدون حرية ولكن لا يمكن ان توجد الحرية بدون نظام" .

ولكن الخطر الاكبر على المدى القصير هو ليس التفسخ الاجتماعي بل ضعف الولاء العائلي في النخب الحاكمة واحتمال التنافس والتطاحن على السلطة من قبل افراد العائلات الحاكمة . هذه المشكلة اقل في الكويت منها في السعودية وهذا لسببين :

اولا العائلة الحاكمة في الكويت نظرتها اكثر عصرية من العائلة الحاكمة في السعودية وقد حاولت تطوير المؤسسات السياسية فيها اكثر (نسبيا) مما حاولته العائلة المالكة في السعودية ، رغم ان هذا التطوير ما زال غير كاف للتكامل السياسي . وفي الحقيقة أن مجهودات السعودية التكاملية ضعيفة جدا وهي ما زالت ، من وجهة المؤسسات ، تعيش في التقليد القديم .

وثانيا ، العائلة المالكة السعودية عددها كبير وهذا يشكل خطرا داخليا على نظامها السياسي ، فاحتمال الانقسام الداخلي في العائلة اكبر في السعودية منه في الكويت .

Digitized by Birzeit University Library

ويقدر عدد افراد العائلة المالكة في السعودية بأكثر من ثلاثة آلاف شخص . اما الخطر على الكويت فهو اكثر من وجهة معادلة الاجانب الى الاهالي . فكما هو معروف الاجانب في البلاد هم اكثر من الاهالي . وانني اعتقد ان الفلسطينيين اكثر من غيرهم يشكلون خطرا سياسيا على الكويت كدولة مستقلة .

في الوقت الحاضر الاخطار الناجمة عن الانقسامات الداخلية ما زالت كامنة ومسيطرا عليها ، والاسباب لهذا الهدوء غير الطبيعي عديدة . كثرة المال اشغلت الناس بمنافعهم المادية المحضة ، وما دام المال متوفرا سيظل هذا العامل ايجابيا بالنسبة للنظام السياسي المحلي . وفي الحقيقة ان العامل الاساسي هو ليس كثرة المال بل كون نسبة السكان للثروة المالية الجديدة قليلة جدا . ولو كانت هذه النسبة عالية لوقعت المشاكل كما كان الحال في ايران منذ خريف ١٩٧٨ ، لأن نسبة السكان للثروة المالية عالية . وهناك بالنسبة لأيران فارق آخر اذ ان التطور العصري في ايران هو اقدم منه في الخليج العربي (باستثناء العراق) . فالخليج العربي بدأ التطور العصري من نقط خلفية اكثر من ايران والعراق . ورغم ان الانتقال الى العصرية في الخليج يتطلب تغييرا في اسلوب الحياة اكثر منه في ايران والعراق ، من حياة قبلية الى حياة عصرية ، الا ان تأثيره على البلاد الاقدم عصرية اكثر من الوجهة السياسية لأن مثل هذه البلاد يوجد فيها تنويع سكاني اكثر واعداد سكانية اكبر .

والعراق هو اكثر بلاد الخليج صلاحية للتطور فعناصر الانتاج فيه اقوى (الا الرأسمال النقدي ومعادلة السكان للثروة المالية) ، والثروات الطبيعية اكثر تنوعا ، خصوصا الزراعية منها . ورغم حاجته الى المزيد ، الا ان سكانه

Digitized by Birzeit University Library

الاصليين ليسوا قليلين . والنظام الحاكم فيه هو اكثر استعدادا لاستيعاب العرب غير العراقيين كمواطنين من بلاد الخليج الاخرى (طبعا هناك اعتبارات سياسية حزبية مهمة). والعراق قاعدته السكانية الاصلية ارقى حضارة من القاعدة السكانية في البلاد الخليجية الاخرى ، وهذا معناه ان المعرفة الكيفية فيه اكثر واستيعابه للمزيد منها اكبر . ولكن الخطر على التطور العصري في العراق كبير ومصدره الانقلابات العسكرية ومشكلة الاكراد وعلاقات البلاد الخارجية .

الانقلابات العسكرية ومشكلة الاكراد لها تاريخ طويل. من الوجهة التطورية العصرية المشكلتان مهمتان لانهما تستنزفان امكانية التطور وتضيعان الكثير منها . اضف الى ذلك ان اكبر عدو للتطور العصري هو عدم الاستقرار السياسي الذي من اسبابه الانقلابات العسكرية . أما مشكلة العلاقات الخارجية فهي مشكلة الاستعمار . فالعراق له نظرة خاصة في الموضوع ، لها علاقة بتاريخه غير القديم حيث كان مستعمرا من قبل بريطانيا وهو جغرافيا قريب من الاتحاد السوفييتي . ومشكلة الاكراد لها ارتباطات خارجية مهمة ، تارة مع الاتحاد السوفييتي وتارة مع ايران (في عهد الشاه) وتارة مع امريكا واسرائيل .

اما في بلدان الخليج العربي الاخرى فالمستعمر الغربي يعتبر "صاحبا" ، وهذه العلاقة اساسها النظرة البدوية للمستعمر البريطاني . فقبل الاستقلال ، كان البدوي ينظر الى الانجليزي كحليف لا كأجنبي ومستعمر ، وكان الانجليزي يلهيه بالهدايا والهبات المالية . والبدوي لا يفهم السياسات القومية العليا ووعيه القومي والأيدولوجي ضعيف . وهذه عوامل اخرى مهمة في وضعه . اما السعودي فهو الخليجي الوحيد الذي لا يعرف معنى الكولونيالية لانه لم يختبرها .

Digitized by Birzeit University Library

حتى قبل الكولونيالية الاوروبية ، لم يكن الحكم التركي في داخل الجزيرة العربية قويا . ولذلك فالسعودي لا يعرف خطر الاستعمار بمعناه العميق ولا يخاف من صداقته له وتعامله معه ، ونظرته الى الاستقلال هي نظرة قبلية ومعنى ذلك أن شعوره به قوي جدا ولكن هذا الشعور مجرد من قاعدته الارضية والقومية .

ولكن هناك مشكلة اخرى مهمة للتطور في الخليج وهي تصادم التقليدي والقديم بالعصري والحديث . هذا التصادم يحدث في كل مكان يختبر العصرية وينتقل من القديم الى الجديد أي في كل مجتمع انتقالي Transitional ولكن على درجات متفاوته من الخطورة . فاذا جاء التحديث بكثرة وبسرعة فنتائجه ربما كانت وخيمة . وكذلك اذا جاء غير منسق وبدون عملية تكامل فعالة ، حتى ولو كان اقل سرعة وكثافة ، فنتائجه تكون وخيمة ايضا . فما حدث في ايران هو تطور بدون مجهود تكاملي ، والخطر على الخليج هو من مشكلة عدم التكامل الذي يصطحب التطور العصري . فحكام الخليج يظهر أن ادراكهم لهذه المشكلة ضعيف خصوصا السعودية فالمجهود التكاملي فيها ضعيف للغاية والخطط التي تضعها الحكومة هي حبر على ورق اكثر منها حقيقية تطبيقية . ولعل السبب هو طريقة التطور وكثرته وسرعته . ويظهر أن حكام الخليج يخافون من عملية التكامل لأنها تتطلب تطوير المؤسسات السياسية ووضع حلول للفوارق الاجتماعية واشراك الجماعات الجديدة التي اوجدتها التطورات العصرية نفسها . ويظهر ان هؤلاء الحكام لا يعلمون أن عملية التكامل هي لصالحهم وأن تطوير المؤسسات لا يعني ابدا خروجهم من الحكم . والعكس صحيح ، فالخطر على وجودهم في الحكم هو الفجوات التي يخلفها التطور في المجتمع وضعف عملية التكامل .

Digitized by Birzeit University Library

معظم التناقض بين العصرية والتقليد محوره النظرة الدينية ! فالجديد او الحديث يخرق في كثير من عناصره قدسية القديم. ويظهر التضارب واضحا في اسلوب الحياة الجديدة ، خصوصا اسلوب العائلات الحاكمة والاغنياء . وكما قلنا سابقا تطبق الحكومات الخليجية شريعتين واحدة للناس وواحدة للحكام والاغنياء . أما شريعة الناس فهي الرسمية وهي الظاهرة للعيان وأما شريعة الحكام والاغنياء فهي السرية وهي ليست اسلامية . وفي السعودية التناقض بين العصرية والنظرة الدينية اكثر منه في بلاد الخليج الاخرى وذلك لأن شريعة الناس تطبق بشدة من قبل السلطة الاسلامية الوهابية . وهذه السلطة هي في الحقيقة شبه مستقلة عن مؤسسات الدولة في نواح معينة . ويظهر ان سلطات الدولة تخشى "الشرطي" الديني ولا تحاول اخضاعه للسلطة السياسية . وسبب ذلك تاريخي اذ أن الدولة السعودية كانت وليدة ازدواجية أو تحالف بين العائلة السعودية والحركة الوهابية . وهي اليوم كذلك فالسلطة السياسية بقيت في أيدي العائلة والسلطة الدينية في أيدي رجال الدين ولكن الانفصال يظهر في التنفيذ اكثر منه في التشريع .

واذا ولد التطور العصري انفجارات فانه سيكون على أيدي التقليديين لا على أيدي العصريين ، رغم أن الانفجار ربما يشترك به بعض العصريين الذين انتفعوا بقليل من العصرية ، التقليديون سيرفضون العصرية لأنها لم تنفعهم ولأنهم يشعرون بعدم الامان بدون تقاليدهم . أما الجماعات التي تستفيد ماديا من العصرية فهي الجماعات التي ستدعم النظام السياسي السائد ، هذا اذا كانت الفائدة كبيرة بحيث تعوض خسارة الأمن النفسي الذي يرافق التقاليد والحياة القديمة .

ولكننا نعتقد ان امكانية مثل هذه الانفجارات ضئيلة

Digitized by Birzeit University Library

في بلاد الخليج العربي (باستثناء العراق) والسبب هو معادلة الثروة مع عدد السكان ، ولكن عندما تتغير هذه المعادلة للأسوأ فاحتمال الانفجار سيزيد . وهناك شعور قوي في هذه البلاد بأن الله أعطاهم المال الكثير وان هذا المال لن ينقطع عنهم ولن ينفد . فأبناء الخليج لا يوجد عندهم الادراك بأن المستقبل ربما كان أسوأ؛ فهم يصرفون وكأن المال لن ينقطع وهذا القول صحيح خصوصا بالنسبة للحكام والاغنياء . واذا كان هؤلاء الناس يستثمرون المال في الخارج فهذا لشعورهم بأن مستقبلهم السياسي غير مضمون .

ولا شك أن اسلوب حياة الحكام والاغنياء الخليجيين يدعو للشك والريبة بحسن نيتهم نحو شعوبهم . ومن حسن حظهم ان المال يكفي لهم ولغيرهم . وعندما كان المال لا يكفي كانت الاولية لهم اي ان اسلوب حياتهم المبذر سبق قرارهم بتطوير البلاد واشراك الناس بثروتهم . ومن الناحية الاخرى ، يجب أن نعلم بأن طريقة حياة أغنياء الخليج تختلف كثيرا عن طريقة حياة الاغنياء في البلاد الاخرى ، خصوصا في امريكا واوروبا ، الا في الاسلوب . وسمعتهم السيئة في العالم الغربي سببها ليس تبذيرهم ومحبتهم للرفاهية والبذخ بل اسلوبهم الثقافي . ولا شك أن عنصرية الغربي لها علاقة بنظرته للغني العربي . ولكن هناك نقطة مهمه في سوء سمعتهم في العالم العربي وهي كونهم اغنياء في منطقة فقيرة وهذه المنطقة هي الشرق الاوسط او العالم العربي . ولا اظن ان هناك معارضة قوية لهم بين شعوبهم ، بسبب اسلوب حياتهم ، لأن اهل بلادهم يعيشون في نعيم . المعارضة تأتي من خارج الخليج ، من عرب البلاد المجاورة خصوصا حيث يشيع الفقر بكثرة ، ومن الفلسطينيين لانهم فقدوا بلادهم ، ولأن عددا كبيرا منهم يعيش في المخيمات .

Digitized by Birzeit University Library

ومن الوسائل التي يستعملها الحكام في بلاد الخليج (باستثناء العراق) لحماية انظمتهم السياسية ومصالحهم المادية اتباع سياسة خاصة بالنسبة للاقليات والاستعانة بالتكنوقراطيين اي اصحاب الاختصاص الفني . والسبب هو أن الاقليات والتكنوقراطيين ليست لهم مصالح سياسية قوية أي أن لهم حدودا لطموحاتهم السياسية ، بحكم كونهم اقليات واصحاب اختصاص . وخصوصا في الاعمال التطورية ، يحاول حكام الخليج فصل السياسة عن الادارة الفنية . وهذا الفصل له منافع واقعية اذ ان الحكام يجهلون النواحي الفنية من التطور وعدم تدخلهم فيه يجعل نوعيته احسن . ولكن هذا التطور مجزأ وغير منسق اي ليس له اهداف مركزة لنفس السبب وهو عدم وجود سلطة مركزية من اهل البلاد تعرف كيف توجهه. ولأن اصحاب المعرفة والاختصاص هم اجانب نجد ان التطور ليس له قاعدة دائمة ، ويركز على الفخامة والكثرة . ولذلك فهو يكلف اضعاف ما يستحقه لو كان اصحاب الاختصاص من اهالي البلاد ويشعرون بالمسؤولية نحو بلادهم . فكما قلنا عدم ارتباط الأجنبي روحيا بالبلاد جعله نفعيا وماديا للغاية . وفي الحقيقة أن ارتباطه الروحي بالبلاد صعب للغاية لأن البلاد ليست خصبة بل هي صحراء ،ومناخها حار وثرواتها معدومة الا من الذهب الاسود . وهي بلاد البدو الرحل ، على الاقل هذا ما كانت عليه . ورغبة الأجنبي في جعلها بلاده معدومه لولا حرصه على مصلحته المادية ومستقبل ابنائه . فالخليج هو ليس كأمريكا في مطلع تطورها الاقتصادى لأن أمريكا كانت عناصرها او عواملها الانتاجية قوية وطبيعتها الجغرافية والمناخية متنوعة ، اي ان امريكا كانت ارضا غير متطورة صالحة للتطور وصالحة لأن تكون بلادا قوية لشعب قوي . اما الخليج فاهتمام الناس فيه لا يتعدى المصلحة المادية والنظرة اليه انه منطقة حالتها صعبة . من

Digitized by Birzeit University Library

يذهب اليه هو من لم يجد العيش في غيره او من اراد أن يغنى بسرعة ويعود الى بلاده ليعيش فيها مرتاحا ماديا . والناس ينظرون اليه كشركة تجارية او مكان عمل اكثر منه كوطن او كقطر او كبلاد او كدولة . ولذلك نجد ان عملية التكامل صعبة للغاية في الخليج . ورغم انها ضرورية فهي لن تحل مشاكل الخليج الاجتماعية الا مؤقتا خصوصا مشكلة التضارب بين الأجنبي وابن البلاد .

اما سياسة الاقليات فهي كسياسة توظيف التكنوقراطيين هدفها اخذ خدمات الاجنبي او استخلاص المنفعة منه دون السماح له بالسيطرة السياسية . فابناء الاقليات الدينية والاثنية ليس لهم طمع في السلطة السياسية بمعنى القوة Power لأن الاكثرية سترفضهم . ولذلك فطموحهم السياسي لا يتعدى النفوذ السياسي ، فهم يقبلون غيرهم في مركز السلطة خصوصا الذين يستعملونهم لصالحهم ويطمئنون اليهم ، ما دام اصحاب السلطة يلبون رغباتهم المادية وحاجاتهم الأمنية النفسية .

والتفضيل في توظيف الاجانب هو على مستويات : فحيث تكون اللغة ضرورية ، في الوظائف الحكومية وفي المراكز العالية في القطاعات الاقتصادية ، يفضل الاجنبي العربي المسلم المعروف بأنه غير سياسي اي ليس له اهتمام بالسياسة . واذا كانت له سوابق سياسية يفضل ان يكون محافظا من العهود القديمة ، من انظمة ملكية اذا امكن ، او من بلاد عربية نظامها محافظ . هذا الشخص يجب ان يكون غير راديكالي ، غير يساري ، غير شيوعي ، حتى غير قومي عربي او سبق ان انتمى الى احزاب سياسية متطرفة . وفي بعض الاحيان يفضل مثل هذا الشخص اذا كان مغضوبا عليه من قبل نظام عربي معاد او نظام عربي راديكالي ، كنظام عبد الناصر ايام عبد الناصر . واذا قلنا ان العربي المسلم غير السياسي هو

Digitized by Birzeit University Library

مفضل فاننا نعني ان معظم العرب المسلمين هم غير مفضلين لأن مؤهلات التفضيل هي عملية غربلة تتخلص من الاكثرية وتخاف من الاكثرية . ولكن العربي المسلم يفضل على غيره في الوظائف البعيدة عن مركز السلطة السياسية .

اما كجماعة فأفضل الاجانب هم العرب غير المسلمين اي المسيحيون . فاللبناني المسيحي هو افضل الفضلاء لأن لغته عربية ولأن دينه لا يؤهله للسلطة السياسية . والغريب ان الموارنة مرغوبون في السعودية ، والكثيرون منهم جاؤا الى السعودية خلال الحرب الاهلية اللبنانية للعمل ، رغم انهم كانوا في بلادهم معادين للمسلمين خلال الحرب . وعلى المستويات التي لا تحتاج الى اللغة العربية تجد المفضل هو المسلم غير العربي كالباكستاني والايراني مثلا . فهذا النوع من الاشخاص يفضل لدينه ولأن طموحه بالسلطة معدوم لأنه ليس عربيا . وحيث ان المسلمين غير العرب يجيئون من بلاد متخلفة فانا نجدهم في المستويات الدنيا خصوصا العمالية غير الماهرة .

ولأن الحاجة للأيدي العاملة كبيرة جدا فانا نجد اليمني والمصري في المستويات السفلى ، خصوصا العمالية ، لأن فقرهم واحتياجهم المادي يجعلانهم حياديين سياسيا . ولكن رغم هذا نجد الانظمة الخليجية تخاف منهم لأنهم قابلون للتحرك السياسي في المستقبل وتحت ظروف معينة . اما ما دام المال موجودا والتطور سائرا فان امثال هؤلاء سيظلون يعتمدون على النظام القائم الذي يدفع لهم الاموال .

وعلى المستوى الفني والاختصاصي نجد الاجنبي غير العربي وغير المسلم ولا سيما الغربي هو المفضل . والسبب واضح : فالغربي ، والامريكي خاصة ، عنده المعرفة الكيفية

Digitized by Birzeit University Library

لأنه يجيء من اكثر البلدان تطورا واكثرها عصرية . وهذا النوع من الاشخاص هو اكثر الناس مادية واكثرهم رغبة بالرجوع الى بلاده واقلهم ارتباطا روحيا بالبلاد . هذا الشخص يكلف الكثير ويطلب الكثير . والتطور في الخليج يعتمد عليه كثيرا ليس كشخص فقط بل كشركات ايضا . وحيث أن مصلحته وقتية ومادية محضة فالتطور الذي يعمله هو ايضا وقتي ومجرد ، كما قلنا ، من القاعدة الارضية والقومية أي بدون نظرة الى الدوام .

واكثر الناس غير المرغوب فيهم هو الفلسطيني لأنه بدون وطن اي بدون قاعدة ارضية . ولذلك فاهتمامه بالسياسة كبير ولكن هذا الاهتمام هو وسيلة لغاية ، الوسيلة هي البلاد التي يسكنها والغاية هي البلاد التي فقدها . فهو يرغب ان يسير كل بلد عربي نحو غايته هو وهي اعادة بلاده اليه واعادته الى بلاده . وهو يرى بلاد الخليج متقاعسة ، واكثر من ذلك يراها منافقة . وكما قلنا هو يريد ان يعامل ككويتي او كسعودي ولكنه لا يريد ان يكون كويتيا أو سعوديا . والسبب هو انه يريد ان يكون عربيا وان يكون ابن الخليج شريكه في القومية وفي هدفه الاساسي وهو استرجاع فلسطين لعروبتها . ولكنه صار فلسطينيا لأن ابن الخليج لم يظهر رغبة قوية في المشاركة ، ولم يعامله كعربي مثله . وكفلسطيني صار هذا الانسان خطرا على دول الخليج تخشاه انظمتها السياسية ، ولكنه متعلم وعنده الاختصاصات الكثيرة ويشتغل بجد وكفاءة ، وهو في الحقيقة ، بعد الغربي ، اكثر الناس كفاءة في بلاد الخليج . فصارت الحاجة اليه كثيرة وزادت اعداده مما زاد في الخوف منه ، وهو اليوم قوة لا يستهان بها في بلدان الخليج ، وخطر على انظمتها السياسية ، وبيده الامكانية ، خصوصا في الكويت ، لتحويل المنطقة الى ساحة حربية ولتدمير التطور الذي اشترك

Digitized by Birzeit University Library

فيه وقدم اليه الكثير .

والحل الوحيد لمشاكل الخليج الكثيرة هو التكامل الارضي على اساس القومية العربية ، فالحاجة الى هذا الحل تتعدى ضرورة التكامل الاجتماعي . وكما قلنا فان اعطاء الجنسية لمن يرغب فيها من الاجانب لا يحل مشاكل الخليج الاجتماعية والسياسية الا وقتيا . وربما سبب مثل هذا الحل على المدى الطويل مشاكل جديدة للأنظمة السياسية . الحل الجذري يتطلب معالجة المشكلة التطورية نفسها وهي مشكلة كون التطور وقتيا . وهو وقتي لأن بناء الهياكل الاساسية Infrastructure للأقتصاد مستحيل الا اذا توصل ابن الخليج الى المستوى الثقافي الالماني او الاميركاني او الياباني . وهذا معناه ان يكون ابن الخليج متطورا قبل ان يتطور . وبديهي الا يكون لهذا القول معنى . في احوال الخليج الطبيعية ، هذا النوع من التطور مستحيل الا عن طريق هجرة سكانية غربية الى البلاد اي عن طريق اسكان غربيين في البلاد واستيطانهم فيها ابديا ، ومثل هذا لم يحصل الا في البلاد التي كانت جديدة ،مثل امريكا واستراليا ، وفي بلاد استعمرها الغربيون كأفريقيا الجنوبية وروديسيا . اما في الخليج فان مثل هذا الحل يكون سخيفا للغاية لأن معناه تغيير الحالة الديمغرافية للبلاد وطرد الاهالي منها او جعلهم اقلية مستعبدة .

ومشكلة بناء الهياكل الاساسية للاقتصاد لا تحل الا بالتوسع الارضي الذي يكون هدفه ايجاد قاعدة زراعية واسعة وقاعدة سكانية متممة ، كلاهما دائم . واذا لم يكن هذا التوسع الارضي على اساس القومية العربية فمشكلة التكامل الاجتماعي لن تحل بل ستكبر وتتعقد . ومن فوائد هذا الحل تقوية الامن العسكري لمنطقة الخليج الذي هو في الوقت

Digitized by Birzeit University Library

الحاضر ضعيف للغاية ويعتمد على الاحوال الدولية وعلى سياسة خارجية ليست في صالح السيادة المحلية . ولكن هذا الحل يفترض ان حكام الخليج يجب ان يقبلوا بربع الرغيف بدلا من الرغيف كله . وفي الحقيقة انهم يخافون من هذا الحل ظنا منهم انه سينتهي بضياع الرغيف كله . وما لا يعرفونه هو أن هذا الرغيف سيضيع ان لم يقبلوا هذا الحل ، والسؤال هو عن المدة التي ستنقضي قبل ضياعه . ان التوسع الارضي على اساس القومية العربية ربما ضمن لهم جزءا من الرغيف لمدة اطول ، وربما كانت هذه المدة طويلة جدا اذا كان الحل على اساس فدرالي مثلا وعلى نحو تدريجي . المهم أن يشمل التطور اي ان يصرف رأس المال النقدي على سكان اكثر ومساحة ارضية اوسع . وهنالك فائدة اخرى لهذا النوع من التطور هي انه ارخص او يكلف اقل بكثير من التطور الحالي الذي يعتمد على الاستيراد اعتمادا كليا وعلى قاعدة ارضية صحراوية غير قابلة للتطور الزراعي وغير صالحة للتطور الدائم . وحتى لو انتهى الدخل من البترول فالتطور الأوسع عنده الامكانية للبقاء والاستمرار. وفي الحالة الحاضرة لا يمكن لدول الخليج تعويض المفقود من عناصر الانتاج الا عن طريق استمرار هذا الدخل . وحتى التعويض الذي تحاول ايجاده لا يكفي ، لأن الحصول على قاعدة زراعية عن طريق الاستيراد يكلف الكثير ، والحصول عليها عن طريق تطوير اراض في بلاد ثانية ، كالسودان ، لا يمكن ان يكون مصدرا دائما لأن مثل هذه الارض تكون سياسيا تحت سيطرة سلطة مستقلة ومنفصلة ولها مصالحها الخاصة .

Digitized by Birzeit University Library

(١) Smith Hempstone, "Saudi Arabia. The Over-night Superpower", Reader's Digest, July 1978, pp. 103 - 107.

(٢) الدكتور محمود عبد الفضيل ، "هل يتحقق التكامل الاقتصادى في منطقة الخليج العربي" ، العربي ، العدد ٢٣٦ ، تموز ١٩٧٨ ، صفحات ٩١-٩٥ .

(٣) Newsweek, March 6, 1978.

(٤) كلمة الاصليين معناها سكان البلاد قبل التطور الحديث وهم في الاغلبية بدو . ففي الكويت الاهالي الاصليون تاريخهم قصير بمن فيهم العائلة الحاكمة .

(٥) Arnold Rivkin, Nation-Building in Africa (New Brunswick, N.J: Rutgers University Press, 1969).

(٦) Samuel Eisenstadt, Modernization: Protest and Change (Englewood Cliffs, N.J: Prentice-Hall,1966).

(٧) Aristide Zolberg, Creating Political Order (Chicago: Rank McNally, 1966).

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الرابع

Digitized by Birzeit University Library

نتائج التطور والتحديث ومعانيها السياسية

في العالم كله يوجد نوعان اساسيان للتطور نستطيع ان نسمي كلا منهما نموذجا models اذا تذكرنا انهما نموذجان لحضارة واحدة وعصرية واحدة وهي الحضارة والعصرية الغربية . هذان النموذجان هما نموذج التطور من طريق الدولة state development ونموذج التطور الخاص private development . اما التطور عن طريق الدولة فهو تطور توتاليتاري totalitarian اي تطور سلطوي كلي والمثل عليه هو البلاد الشيوعية . والتطور الخاص هو من نوعين : التطور الديموقراطي الموجودة امثلته في العالم الغربي ولا سيما الولايات المتحدة ، والتطور السلطوي وهذا النوع من التطور حدث في المانيا واليابان . في هذا الفصل سنبحث النموذج التوتاليتاري والنموذج الخاص الديموقراطي . اما تطور المانيا واليابان فلا ضرورة لبحثهما لأنهما ليسا نموذجين ما دامت ليست هنالك دول تقتدي بهما .

العالم الثالث ليس له نموذج . فهو يقلد نماذج تطورية اخرى ونحن عندما نقول "النموذج" فاننا نعني به طريقة ناجحة للتطور تصير قدوة للآخرين . وانه بهذا المعنى نعتبر العالم الثالث بدون نموذج . صحيح ان العالم الثالث ليس له شخصية واحدة وانه يتكون من عدة دول لها اساليبها التطورية واشكالها السياسية ،وحتى الدول العربية تختلف عن بعضها البعض في اساليب التطور . وفي الحقيقة ان العالم الثالث هو عالم فوضوي من وجهة التطور لأنه ليس له طريقة او نظام مدروس . واذا

Digitized by Birzeit University Library

اضطررنا ان نلحقه بنماذج تطورية فباستطاعتنا القول ان معظمه يتطور عن طريق خاص "private" غير ديموقراطي ولكنه لا يقلد اليابان ولا المانيا .

ولكن في العالم الثالث اليوم عدد قليل من الدول تطورعن طريقة جديدة قد تصبح نموذجا مستقلا اذا تكللت بالنجاح. وهذه الطريقة أسميها طريقة التعاقد او التطور التعاقدى contractual development والدول التي تتبعها معظمها دول النفط . واننا لا نعتقد أن هذه الطريقة ستنجح ولا نعتقد انها تستحق ان تسمى نموذجا لأن وضعها خاص وغير طبيعي بمعنى انها تملك رأس مال نقدى كبير عن طريق مادة خاصة مهمة ، واذا صار تطورها نموذجا فهو لا يصلح الا للبلاد التي تملك من مواردها الداخلية كميات هائلة من رأس المال النقدى وليست كل البلاد غير المتطورة محظوظة كبلاد النفط .

طريقة التعاقد هي تطور تموله وتملكه الدولة وتقوم به شركات (معظمها اجنبي) عن طريق التعاقد بينها وبين الدولة . من الوجهة العملية هذا التطور هو خاص private اما من وجهة الملكية فهو للدولة ولكنه ليس "اشتراكيا" بالمعنى الشيوعي وهو يسمح للعمل الخاص ولا يمنعه . هو تطور عن طريق الدولة فقط لأن الدولة تملك مواد البلاد الخام ولذلك تملك رأس المال النقدى . من الوجهة السياسية البلاد التي تتطور بالتعاقد كلها سلطوية authoritarian غير توتيلاتيرية (كلية) . هذا النوع من التطور بحثناه في الفصل السابق ليس كنموذج بل كأسلوب عربي خاص ، بمعنى special اما في هذا الفصل فسنبحث العناصر الاجتماعية والسياسية للأسلوب السلطوى قبل ان نبحث النموذجين الاساسيين

Digitized by Birzeit University Library

ذلك لأن معظم دول العالم العربي تدخل في هذا التصنيف او تتبع اساليبه .

الأسلوب السلطوي

الحياة العربية هي فردية سلطوية . ولأن شخصية الفرد العربي هي غير تركيبية ، بسبب الأساليب التربوية التقليدية المتخلفة ، فانا نرى فرديته فوضوية ومن اسباب سلطويته هذه الفوضوية . ولولا سلطوية مؤسسة العائلة ونظامها الولائي loyalty system والسمعة ومفاهيم الشرف والكرامة لكانت فردية العربي فوضى غير مقيدة لا اجتماعيا ولا سياسيا . ونحن نجد السلطوية في نظام الحكم العربي بغض النظر عن شكله ان كان ملكيا او جمهوريا او ان كان محافظا او ليبراليا . فالسلطوية موجودة على جميع المستويات اجتماعيا وسياسيا : الأب في العائلة ، المدير والمعلم في المدرسة ، المسؤول في المنظمات الخاصة والعامة ، ورئيس الدولة في المجتمع الكبير وهو طبعا الدكتاتور السياسي الأول . خارج المؤسسات الاولية ، العائلة او الحمولة رفقة الجيل ، والدين ، تقل السلطة الاجتماعية وتكثر السلطة السياسية لأن الفوضى تزيد كلما بعدت عن المؤسسات الاولية او بالاحرى كلما بعدت عن العائلة .

في مثل هذا المجتمع ، اى المجتمع العربي ، نجد ان القيم الاجتماعية والمفاهيم الضرورية لتوازن السلطة والحرية متناقضتان فحيث توجد السلطة نجد الحرية ضعيفة للغاية والعكس صحيح . واذا وجدتا معا فانا نجدهما في صراع ، وحيث ان هذا الصراع يجب ان ينتهي فهو عادة ينتهي بانتصار السلطة ولكن المعركة تبدأ من جديد ومثل هذا

Digitized by Birzeit University Library

المجتمع يعيش دائما في توتر . وفترات التوتر تختلف من مجتمع الى مجتمع ففي بعض المجتمعات تجد المعارك قليلة لأن السلطة تتغلب وتثبت مدة طويلة . ويظهر ان هذا الوضع يكون اكثر وجودا في البلاد التقليدية الفقيرة منه في البلاد الأقل فقرا .

الصفات التي ذكرناها عن المجتمعات الفردية السلطوية ليست صفات اصيلة فيها inherent وليست من سماتها الطبيعية رغم ان تاريخ وجودها طويل . وهذه الصفات او ما يقاربها او يشابهها كانت موجودة في كثير من مجتمعات اليوم العصرية فأوروبا مثلا كانت فردية سلطوية قبل تطورها العصري الذي احل النظرة الديموقراطية محل النظرة السلطوية . والجدير بالذكر أن هذه المجتمعات تخلصت من السلطوية ، ولكنها احتفظت بالنظرة الفردية حتى زمن قريب . وبعد الحرب العالمية الثانية ضعفت الفردية ، وفي بلاد كبريطانيا صار الاتجاه نحو الجماعية الديموقراطية . وهذا التطور حدث في البلاد الاسكندنافية بشكل اكثر وضوحا منه في بريطانيا . وسترى عن قريب في هذا الكتاب ، ان الفردية في اميركا هي في مرحلة التغيير .

أما في العالم العربي ، ومعظم العالم الثالث ، فالتطور اما ان يتجه في المستقبل نحو نظام فردى تعاوني ديموقراطي ، وذلك باحلال التعاونية محل السلطوية كما حدث في اوروبا في مرحلة الانتقال نحو العصرية . واما ان يتجه نحو جماعية سلطوية اى نحو نظام توتاليتاري ، واننا نعتقد ان تطور المجتمعات الفردية السلطوية نحو التوتاليتارية هو اسهل من تطورها نحو الفردية التعاونية الديموقراطية الا اذا تطورت آيدولوجية قوية من نوع ديموقراطي لتغيير الاتجاهات السهلة . ويقول البروفسور وليم ابنشتين William Ebenstein

Digitized by Birzeit University Library

ان الفاشستية تبعد خطوة واحدة فقط عن السلطوية (١) . وحسب تحليلنا فان هذا معناه ان التوتاليتارية هي اقرب الى السلطوية الفردية من الديموقراطية الفردية . ومعنى ذلك ان السلطوية هي اقوى بكثير من الفردية . ويقول ابنشتين ان الديموقراطية هي اصعب اساليب الحياة فهي لا تظهر عفويا او بالصدفة لأنها تكون مقصودة فكريا . ولذلك قلنا ان تطور المجتمع العربي نحو التوتاليتارية هو اسهل منه نحو الديموقراطية ، واقترحنا آيدولوجية خاصة لتغيير هذا الاتجاه .

والآيدولوجية التي نقترحها للقومية العربية هي جماعية ديموقراطية والتطور يجب أن يكون عن طريق الدولة الديموقراطية اى اننا نقترح التخلص من الصفات الشخصية السلطوية واستبدالها بصفات تعاونية ديموقراطية والتخلص ايضا من الفردية واستبدالها بالنظرة الجماعية. وللوصول الى هذا الهدف الصعب يجب ان تستعمل الآيدولوجية (العقيدة) الجديدة لتغيير أساليب التربية والتي بدورها تغير مركز الشخصية الفردية اى الأنا ego . لمثل هذه الوسائل والتغييرات تحتاج القومية العربية الى تركيب انسان عربي جديد وانشاء جيل جديد على اساس آيدولوجية تطورية جديدة . وهذا الهدف يكون العنصر الثاني في الحياة القومية الجديدة اذ ان العنصر الاول الذي ذكرناه سابقا كان الفلسفة المدرجية .

والجماعية collectivism ، ان لم ترضخ لأرادة الشعب عن طريق ديموقراطي حر ، لا يمكن ان تكون جماعية حقيقية لذلك فاننا نعتقد ان الشيوعية هي نظام غير جماعي في الحقيقة لانها ليست ديموقراطية فارادة الجماعة غير ممثلة في الدولة والسياسة والقانون . والتطور العصري

Digitized by Birzeit University Library

الذي حدث في روسيا ، رغم نجاحه النسبي ، كان عن طريق رأس مال دولة state capitalism فهو في الحقيقة ليس اشتراكيا لأن الاشتراكية يجب ان تكون جماعية والجماعية يجب ان تكون ديموقراطية لتكون جماعية حقيقة كما قلنا . وسنترك طريقة تطبيق الديموقراطية لمجهود آخر في مكان آخر .

كل نظام معاصر يحاول ان يدعي انه ديموقراطي فالشيوعيون يدعون بمبدأ لينين "الديموقراطية المركزية" ولكنهم ليسوا ديموقراطيين ابدا . والأمريكان يدعون بأنهم ديموقراطيون ايضا ورغم وجود حريات خاصة واسعة في البلاد الامريكية الا ان نظامهم هو نظام اوليجاركية "اقلية" مرن ، اكثر منه نظاما ديموقراطيا . ومن لا يدعي انه ديموقراطي كان يدعي على الأقل ان هدفه هو انشاء او تطوير نظام ديموقراطي ومنهم جمال عبد الناصر. فالديموقراطية عند هؤلاء الزعماء هي كالبدلة التي تنتظر الشخص أن يقيس نفسه عليها فاذا كان هو اكبر منها انتظرته حتى ينقص وزنه او يقصر طوله . ولسوء الحظ فان من الناس من يجد صعوبة في تنقيص وزنه ، وجميع الناس لا يقصرون . وخذ مثلا سيكو توري Sékou Touré من غينيا Guinea عندما قال "نحن فضلنا حرية الشعب وسيادته وقوته وحقه على الفرد"(٢). وكذلك جوليوس نايريري من تنزانيا Tanzania فهو يعتقد ان نظام الحزب الواحد هو نظام ديموقراطي رغم انه كرئيس دولة لم يسمح للمعارضة في برلمانه ان تظهر (٣).

ومن العرب المسلمين من يدعي ان الاسلام هو نظام ديموقراطي . ولكن اذا اعطينا الديموقراطية معناها

Digitized by Birzeit University Library

العصري وجدنا ان الاسلام فشل في وضع المؤسسات الضرورية للتعبير عن الارادة العامة . فمؤسساته السياسية لم تكن كاملة ، وهذا كان سببا مهما لمشاكله الداخلية . فلا القرآن ولا النبي وضع حلا لمشكلة الحكم اثر وفاة الرسول اى مشكلة الخلافة . ولم يكن في النظام الاسلامي المؤسسات الكافية لفض الخلاف حول المشاكل الدستورية والمؤسسات التي وضعها لم تكن ترضخ لارادة المسلمين انفسهم . ولعل القول ان اللوم يجب الا يوجه للاسلام وانما للمسلمين بعد النبي هو قول صحيح ، فانشاء المؤسسات كان من واجبهم ولكن هذا القول يفترض ان معنى الديموقراطية العصرية ، كديموقراطية مؤسسات كان مفهوما في القرن الأول لعهد الاسلام ، وهذا افتراض نشك في صحته .

ولكن الاسلام جاء بتعابير وبأقوال يمكن ان تكون اساسا لمعان ديموقراطية . وهناك الامثلة الكثيرة على وجود الروح الديموقراطية بين الصحابة والمسلمين الاول . ولا شك أن ديموقراطية الاسلام في بداية وجوده هي اقوى بكثير من ديموقراطيته فيما بعد ، ايام الأمويين والعباسيين وحتى بالنسبة للانظمة الاسلامية في عهدنا . وبعض عناصر هذه الديموقراطية البدائية وجدت قبل الاسلام في الحياة القبلية . ولكن ، في رأينا ، لم يتطور الاسلام ليكون نظاما ديموقراطيا . وسبب ذلك هو ان العناصر السلطوية في ثقافة العرب كانت اقوى بكثير من العناصر الديموقراطية فيها . ولم تؤكد آيدولوجية الاسلام على التشكيلات الديموقراطية ، اى أن الديموقراطية لم تكن من عناصره القوية . وقوة الدين الاسلامي وتفوقه لم يكن في ناحية المؤسسات السياسية بل في ناحية القيم الروحية والاجتماعية .

وطبعا لا توجد سلطوية مئة بالمئة ولا شخصية

Digitized by Birzeit University Library

ديموقراطية كذلك . فهذه العناصر توجد في الشخص نفسه بنسب مختلفة وكذلك في الشعوب . فحسب كتاب معروف نشر عام ١٩٥٠ قام عدد من الباحثين بمسح في هذا الاتجاه فوجدوا ان عشرة بالمئة من الامريكيين كانوا سلطويين بشدة ، وعشرين بالمئة سلطويين جزئيا ، وهذا معناه أن ثلاثين بالمئة من الشعب الأمريكي هم سلطويون او ميالون للسلطوية (٤) .

اننا ، تاريخيا ، نجد عوامل مهمة لتطور الديموقراطية في المجتمعات الغربية ولكن هذه العوامل لم تكن موجودة في مجتمعات العالم الثالث . وأهمها ان عدو الحريات السياسية كان داخليا وليس خارجيا ، اى الملك مثلا في بريطانيا ، حيث بدأت الديموقراطية العصرية ، ولذلك كان الصراع بين الملك والناس وفي الاخير تغلب الناس على الملك تدريجيا . وفي كل مرحلة او معركة حول هذا الموضوع طور الانجليز مؤسسات للحريات التي حصلوا عليها اما بالقوة او بالضغط . أما في العالم الثالث الكولونيالي الاوروبية التي كانت هي عدو حريات شعوب المستعمراتِ . فالعدو كان خارجيا رغم كون المعركة داخلية . ولطرد المستعمر اضطر الناس للاتحاد ضده والسير وراء قياداتهم الوطنية وواجبا قوميا . فأعطوا حرياتهم لزعاماتهم الوطنية ولقيادة ثوراتهم ولحركاتهم التحررية . ولكن بعد نيل الاستقلال صار قائد الثورة وزعيم الحركة القومية دكتاتورا . وباسم الوحدة القومية استمر بالتمسك بسلطته الكاملة . ومن الدكتاتوريين من طلب المزيد ولم يبق للناس شيئا من حرياتهم . والدكتاتور لم يتوقف عن استغلال التهديد الاستعماري للبقاء في الحكم ولزيادة سلطته وسلب الناس حرياتهم .

Digitized by Birzeit University Library

ان ما قلناه لا يعني ان الكولونيالية كانت سبب السلطوية في العالم الثالث ؛ فالسلطوية اسبابها اجتماعية - ثقافية - نفسية ، ولكنه يعني انها كانت سبب عدم تطور الديموقراطية اى انها لم تعط الفرص للظروف والعناصر الديموقراطية الموجودة في المجتمع ، اى مجتمع ، ان تتطور لتتغلب في النهاية على السلطوية . فكما ان الشخصية الديموقراطية فيها عناصر سلطوية فكذلك الشخصية السلطوية فيها عناصر ديموقراطية . ولو اتيح لهذه العناصر الاخيرة التطور لتطورت مثلما تطورت في بريطانيا في قرون سابقة . ولكن العدو الخارجي الكولونيالي ارغم الناس ، كما قلنا سابقا ، على نسيان العدو الداخلي ، الدكتاتور. وحتى المؤسسات شبه الديموقراطية التي تركها المستعمر في بعض المستعمرات ذهبت معه او بعد مدة قصيرة من ذهابه . فهذه المؤسسات لم تكن ناجحة من البداية لأن الكولونيالية كسلطة اجنبية لا تتمشى مع الحرية القومية والتناقض بين الاثنتين طبيعي .

ولكن هناك حالات شاذة كما قلناه عن الكولونيالية ، فالهند مثلا ظلت لمدة طويلة شبه ديموقراطية . ولربما كان الخوف من الانقسامات الداخلية الاجتماعية سببا لاستمرار المؤسسات البريطانية فيها . ولكن شبح الدكتاتورية ظل يهدد الهند وكذلك شبح الفوضى الداخلية . وهناك حالات شاذة قليلة لم تكن الكولونيالية فيها سببا في منع التطور الديموقراطي . فالسعودية مثلا لم تحكم من قبل الكولونياليات الغربية وكذلك بلاد الحبشة ورغم هذا نجد كلا البلدين سلطويين ، فالعناصر الديموقراطية فيهما لم تطور ولربما كان تأخر البلاد هو السبب .

على كل تطورت في العالم الثالث آيدولوجيات قومية

Digitized by Birzeit University Library

سلطوية ودفاعية defensive . وبدلا من أن تركز هذه الآيدولوجيات على المشاكل الداخلية ووضع فكر قوي للتطور الاقتصادي والاجتماعي والنفسي للمجتمع ، فانها ركزت على الوحدة القومية والمصلحة القومية وقوتها الدفاعية ، بالأضافة الى تراثها القديم وحقوقها الجماعية ونظامها الاقتصادي . فصار معنى القومية والوطنية شيئا واحدا ، مما سبب سهولة استغلال القومية من قبل احزابها وزعمائها ودولتها لأن معناها اكد على صفات السلطة والطاعة وواجبات المواطن بدلا من موازنة هذه الصفات بصفات الحرية وحقوق المواطن وحدود السلطة وارادة الشعب وطريقة ترجمة هذه الارادة الى سياسة ومؤسسات . وأصبحت السلطة في العالم السلطوي منفصلة عن ارادة الناس ولا علاقة لها بها الا وقت الثورات والفوضى .

ويلوم الناس الاستعمار على كل شيء سيء ، ويشجعهم زعماؤهم القوميون على ذلك . ويصبح الأستعمار "قميص عثمان" يستعمله الناس والزعماء لتغطية واخفاء حقيقة وضعهم السيء ، وهو أن ضعفهم الداخلي هو السبب الرئيسي لسيطرة عدوهم الخارجي عليهم فالاستعمار يقوى في البلاد الضعيفة داخليا ، فهو كالمرض القوي لا يهاجم الا الجسم الضعيف ومعالجته تحتاج الى تقوية الجسم وأخذ العلاج ضده . ومن السهل ان يلوم الشخص غيره على مشاكله . والحقيقة أن الانسان يميل الى لوم الاخرين لأنه يتصعب من الاعتراف بخطئه او بضعفه هو ، ولكن يجب أن نفهم أن من علامات التخلف عدم اعتراف المتخلف بتخلفه ومن علامات الضعف عدم اعتراف الضعيف بضعفه . وحتى اذا اعترف المتخلف الضعيف بتخلفه وضعفه فلا فائدة من أن يجد له اسبابا خارجية . وما من جماعة قويت الا اعترفت بتخلفها وضعفها على اساس العناصر الداخلية في حياتها لا على اساس العناصر الخارجية

Digitized by Birzeit University Library

عنها . فالمجتمعات التي قويت هي المجتمعات التي اعادت تركيب نفسها تركيبا جذريا ، لا المجتمعات التي تفتخر بماضيها وتلوم غيرها على حاضرها .

فخذ مثلا زعماء اميركا اللاتينية كيف يلومون غيرهم على فشل تطور الديموقراطية في بلادهم دون الاعتراف بسلطوية شخصياتهم الثقافية والفردية . ومنهم الزعيم الفنزويلي السابق بيتانكورت Betancourt الذي رفض النظرية القائلة ان الثقافة والتاريخ الأميركي الجنوبي هما من اسباب سلطوية مجتمعات المنطقة . ولكن بيتانكورت وجد على الاقل ان الديموقراطية لم تتطور في اميركا اللاتينية لعدم وجود قيادات حكيمة في المنطقة . أما ريتشارد جوردين Richard Gordwin فهو يلوم السي آي اي على فشل الديموقراطية في بلاده . ونحن لا نعارض الاثنين فيما يتعلق بربط الاستعمار بفشل الديموقراطية في بلادهما اذ نحن نقر مثل ذلك الربط في العالم الثالث جله او كله . ونحن نذكر مرة ثانية مأساة تشيلي ورئيسها السابق ألندى فهذا الرجل جاء الى الحكم عن طريق الانتخابات ولكن الاستعمار الامريكي نصب له الفخ وأرداه . ونحن نذكر ايضا ما حدث لبوش Bosch من جمهورية الدومنيكان Dominican Republic عام ١٩٦٥ خلال التدخل الامريكي في بلاده ، ونتذكر حوادث كثيرة مثلها . ولكننا لا نوافقهم ، كما قلنا سابقا ، على تجاهلهم الاسباب الأساسية لوجود النظرة السلطوية في بلادهم .

وهذا يجعلنا نتساءل ليس عن مستقبل الديموقراطية في العالم الثالث بل عن النموذج التطوري الذى سيتبعه هذا العالم . ولا شك ان نوع السلطوية الموجودة بأشكالها العديدة في بلاد العالم الثالث ليس لها مستقبل تطوري .

Digitized by Birzeit University Library

وحيث ان اليابان والمانيا فشلتا كلاهما في تكوين نماذج خاصة للعالم الثالث رغم نجاحهما في التطور ، فلم يبق من النماذج التطورية السلطوية الا واحد وهو النموذج السلطوي الجماعي أي الشيوعية ، وسنبحث هذا الموضوع بعد قليل. ولكن السؤال يظل مطروحا عن امكانية تطور العالم الثالث بأنظمة سلطوية غير جماعية . واننا نستطيع القول ان هذا الاحتمال ضعيف لأن عناصر السلطوية في العالم الثالث تقليدية ، والتطور العصري لا يكون عن طريق التقليد اذ يحتاج الى نظرة جديدة وقيم اجتماعية جديدة . وليس ضروريا ان يموت التقليد من أجل العصرية ولكنه يجب ان يتعدل او يتغير وبالنسبة لبعض التقاليد يجب ان تلغى كليا لكي يتم التكامل والانسجام مع العناصر الجديدة للحياة العصرية . واذا لم يحدث هذا التكامل فالتطور العصري يكون خطرا على البلاد نفسها او على البلاد الاخرى . فالتطور الياباني والألماني لم يكن متكاملا مع تقاليد البلاد . ورغم نجاحه في اعطاء الطابع العصري لهذين المجتمعين الا انه كان خطرا على العالم . فالتقاليد العسكرية او النظرة العسكرية (والدينية في التطور الياباني) بقيت جزءا مهما في الحياة العصرية للبلدين ، مما سبب الاخطار للدول الاخرى وهي اخطار نتجت عنها الحربان العالميتان الاولى والثانية . والتطور الناجح حتى يكون نموذجا يجب ان يحسم الخلاف بين التقاليد والعصرية حتى لا يحصل التضارب بينهما ، على الاقل في النواحي المهمة . والايدولوجية مهمة للتنسيق اذا كانت ايدولوجية تطور صحيحة ؛ فهي تربط اجزاء التطور وتنسق بينها ، وتضبطه في كل مرحلة من مراحله وعلى كل مستوى تغيري ، وبذلك فهي تمنع الانفجارات قبل حدوثها . هذه الانفجارات تكون عادة داخلية اذا كان التطور ما زال في مراحله الاولى ، واذا كان غير منسق ، ويكون من نتائجه الرجوع الى الوراء وحرب أهلية تتبعها فترة تعصب وانظمة

Digitized by Birzeit University Library

يمينية ، وذلك لأن هذا التطور يثير في مراحله الاولى الأمن النفسي التقليدى . أما اذا وصل التطور غير المنسق الى مراحل متقدمة فمن المحتمل ان يكون خطرا على البلاد المجاورة وربما على العالم كما حدث في اليابان والمانيا . اما تطور الخليج العربي فهو تطور من نوع خاص وهو عرضة للاحتمالين ولكن بشكل يختلف عن غيره ؛ فالخليج ليس كاليابان لأنه لا يهدد غيره بل من الممكن ان يكون هو نفسه مهددا من الخارج .

وهناك تضارب في النظريات والآراء بخصوص الطريقة الفضلى للتطور العصرى . ومن المفكرين من يعتقد ان تطور العالم الثالث لن يكون عن طريقة ديموقراطية . ومن اصرحهم البروفسور روبرت سينا Robert Sinai الذي يعتقد ان التطور في العالم الثالث لا يسير على قواعد سليمة ، وان هذا العالم لم يختبر تغييرا ثوريا في أى مكان منه ، رغم ادعاء زعمائه بأنهم ثوريون يهدفون الى تغيير ثوروي في بلادهم (٥). وطبعا البروفسور سينا لا يعني ان كل تغيير سياسي هو ثوره حتى ولو كان هذا التغيير يصحبه العنف والقتال . انه يعني بالثورة تغييرا جذريا في جميع حقول الحياة اى ثورة تطور كلي . وهو يقول بالاضافة بأن العالم الثالث يواجه ثلاث عمليات مهمة : أولا ، ايجاد نخبة elite من المصلحين والمجددين مستعدين لاعادة تركيب مجتمعهم وتغيير صفاته الحضارية ethos . ومن ضمن هذه النخبة يجب ان يكون المستثمرون والصناعيون واصحاب الاقتصاد القادرون على الابداع . ثانيا ، تطوير آيدولوجية جديدة عندها الامكانية لاحداث ثورة ثقافية تخلق بين الناس الادراك الكبير للعمل والتطور وتحطيم ما يعرقل النظام ويمنع التفكير المنطقي السليم

Digitized by Birzeit University Library

والتخلص من التقاليد البالية والخرافات القديمة . وثالثا ، تنظيم الدولة بشكل يعطيها القوة والمقدرة على ارغام الناس على التوفير بحيث يكون هذا التوفير الجماعي اكثر بكثير من مجموع التوفيرات الفردية التي يمكن جمعها عن طريق انظمة اختيارية او طوعية ، وأن يمكن هذا التنظيم الدولة من استثمار ما توفر اجباريا على اساس خطة تطورية متكاملة .

النموذج الديموقراطي

هناك بين علماء الاجتماع من يخالف البروفسور سينا وامثاله في الرأى اذ يفضلون اتباع الطرق الديموقراطية للتطور ويقترحونها للعالم الثالث . وهم يتهمون زعماء العالم الثالث بأنهم يقيمون انظمة سلطوية اى دكتاتورية في بلادهم لمنافعهم الخاصة المادية والنفسية وبذلك يسلبون شعوبهم حرياتهم وهم يستعملون عبارات مثل "الديموقراطية الشعبية" و"الديموقراطية الارشادية" و"الديموقراطية المركزية" و "الجمهورية الشعبية" لتغطية اهدافهم الحقيقية وهي جمع السلطة في ايديهم والتحكم بالناس ودخول التاريخ كأشخاص عظماء .

ويقول عالم الاجتماع وليم مكورد William Machord ان الدكتاتورية أي السلطوية ليست ضرورية للتطور الحضارى الناجح (٦) . وهو يرفض النظرية الشيوعية التطورية لأنها سلطوية ولأنها مبنية على الافتراض ان التطور غير ممكن بدون سلطة مركزية وعلى الافتراض ان جميع دول العالم الثالث بحاجة الى نظام توتاليتارى للتطور . ويقول ان تاريخ الصين واليابان يدل على أن هذين البلدين اختبرا

Digitized by Birzeit University Library

نظام الطغاة despotism مدة قرون ولكن ليس جميع دول العالم الثالث لديها مثل خبرة الصين واليابان . وهو يعترف أن الشيوعية تجد توافقا مع التاريخ الصيني ،ويعترف ايضا انها حررت الصينيين من المجاعة ، ولكنه لا يوافق على أن الشيوعية تنسجم مع تاريخ جميع دول العالم الثالث . ولذلك فهو يعتقد أن معظم دول العالم الثالث تستطيع التطور عن طريق ديموقراطي ، فالغاء الحرية لاكثرية الناس وقتل الملايين منهم ليس ضروريا للتطور العصرى . وهو يقول ان نجاح الشيوعيين في الغاء المجاعة في الصين لم يكن نتيجة لوجود الدكتاتورية التوتاليتارية فيها بل لأن هذا النظام اتبع سياسة اقتصادية مرنة وناجحة ، وهي الاستثمار بنسبة عالية ، تعبئة الجماهير الريفية وتحريكهم كطلائع تقدمية ، والتركيز على الصناعة الصغيرة والزراعة والتعليم . وهذه السياسة المرنة يمكن اتباعها بدون نظام توتاليتارى، فقد اتبعتها الدانيمارك في القرن التاسع عشر ، واتبعتها روسيا في العهد الاستاليني . صحيح أن سرعة التطور في الصين كانت اكثر منها في الدانيمارك ولكن السبب لم يكن نظام الصين التوتاليتاري بل كان وجود مميزات اقتصادية خاصة بذلك النظام : ثروات طبيعية كبيرة ، اراض خصبة ، سوق كبيرة ، خبرة سابقة في التصنيع ، ومساعدات خارجية (روسية) . واذا اتبعت بلاد العالم الثالث سياسات اقتصادية حكيمة ، شريطة ان يكون لديها مقومات التطور الاقتصادية ، فان باستطاعتها التطور دون استعمال النظام السياسي التوتاليتاري أي بدون استعمال القوة السياسية او العنف .

من وجهة نظر الديموقراطيات الغربية ، يجب ان يتمشى التطور الاقتصادي مع الحريات الفردية وتدعي هذه الديموقراطيات انها ترفض التضحية بالحريات الفردية من اجل

Digitized by Birzeit University Library

التطور الاقتصادي . أما الماركسية فهي لا تفهم الحرية الا عن طريق القدرة المادية فالمادة بالنسبة لها هي اساس الحرية فالفقير لا يمكن ان يكون حرا . وفي رأينا ان ماركس هو على حق ولكن ينقصه فهم علاقة ثانية للمادة والحرية . فالمادة لا تضمن الحرية ولا نستطيع فصلهما في عملية التطور الا اذا اردنا التضحية بالحرية . فالحرية لا تأتي للمجتمع الذى ينتظر حتى يرتفع مستواه المعاشي المادي ليصل بعد ذلك الى حريته وهي لا تأتي للمجتمع الذي يقبل أن يضحي بها . والشيوعية هي نظام يعد الناس بالرفاهية المادية على حساب حرياتهم . واننا نعتقد ان تطور الديموقراطية والحريات يجب ان يتمشى مع التطور المادي فهي تزيد عندما يزداد وتنقص عندما ينقص ، والسبب هو أن الحرية لها اساس روحاني . والانسان يحتاج الى الحرية ويحبها كما يحتاج الى المادة ويحبها وهو يريدهما معا اذ يفضل نصف الرغيف شريطة أن يكون حرا على ان يأخذ الرغيف كله ويكون نصف حر . والحرية تتواجد مع الفردية ، فالادعاء بأن الفرد يجب ان يضحي بحريته ليكون مجتمعه حرا هو ادعاء خاطيء ، فالمجتمع الحر هو المجتمع الذي يكون فيه الفرد حرا . ولكن الحرية نسبية وهي ليست مطلقة فحرية الفرد لا يمكن ان تكون مطلقة وهذا ينطبق على حرية المجتمع ايضا . وكل شيء ليس له حدود لا يمكن ان يكون له معنى .

يهمنا من الوجهة المادية الاقتصادية ان نعلم ان التطور الاقتصادى في العالم الغربي لم يكن عن طريق الدولة بل عن طريق الافراد والتنظيم النامي . وهذه الحقيقة هي اكثر وضوحا في التطور الامريكي منها في التطور الاوروبي (الغربي) . لذلك كان التطور في العالم الغربي بطيئا بالنسبة للتطور في العالم الشيوعي . وبالاضافة الى ذلك ، كان الدافع

Digitized by Birzeit University Library

لهذا التطور هو الربح والمصلحة الفردية . واليوم نجد الحياة الغربية ينقصها التوازن اذ أن مصلحة الجماعة تهددها المصلحة الفردية والمصالح الخاصة . فالديموقراطية الغربية هي نظام تنافس مصالح خاصة . ولأن هذه المصالح كانت متنوعة وعديدة وجد الاتفاق على مصلحة مشتركة ضد الدكتاتورية . هذا الاتفاق تقل اهميته مع الوقت لأن المصالح الخاصة تقل نوعيتها وعددها . فالديموقراطية الغربية ولدت اوليغاركية Oligarchic وهي اليوم تتجه نحو مركزية سياسية واقتصادية تهدد المصلحة العامة .

وكما قلنا سابقا فالفرق بين الاقتصاد المتطور وغير المتطور هو أن الاول صناعي والثاني زراعي . والمجتمعات المتطورة ، بغض النظر عن نظامها الاقتصادى والسياسي، هي بلاد صناعية ومعنى ذلك انها نجحت في بناء الهيكل الاساسي infrastructure لاقتصاد صناعي . ولذلك نجد ان زعماء العالم الثالث يرغبون في التصنيع وهم متفقون على هذه الغاية . وخذ مثلا عبد الناصر في مطلع الخمسينات فقد اكتشف ان الزراعة المصرية لا يمكن ان تستوعب الناس القادرين على العمل ولذلك فهي لا تصلح لتطوير المجتمع ، وتوصل الى نتيجة ان الصناعة هي امل مصر الوحيد . ولكن كما نعلم جميعا فقد فشل الرئيس المصرى في مهمته هذه .

ولكن الصناعة في العالم الغربي تطورت كثيرا منذ بناء الهياكل الاساسية وكان لهذا التطور تأثير على التركيب الاجتماعي وعلى القومية والعلاقات الدولية . ومن هذه التطورات ظهور السوق الكبيرة mass market وهو نتيجة تطور نوع جديد من تكنولوجية الاعمال وتكنولوجية الانتاج . هذه التكنولوجية ترتكز على الفكرة التي

Digitized by Birzeit University Library

تقول ان الانتاج الكبير يحتاج الى سوق كبيرة ، فعملت الشركات الكبرى على توسيع الاسواق وتركيز الانتاج . ومثل هذا الانتاج لا يكون الا في الاقتصاد الصناعي . وسبب الفكرة طبعا هو الربح الكبير ومن نتائجه كانت المنافسة الكبيرة بين المنتجين . وظهور السوق الكبيرة له تأثير كبير في نواح اخرى : فقد اضعف الاقليمية وقوى القومية وخلق الحاجة الى الدولية . فتوسيع السوق لم يكن في صالح الاقليمية فارتباط الناس الاقتصادى توسع وقابلية تحركهم من مكان الى مكان ومن مستوى اجتماعي الى مستوى اجتماعي اخر physical and social mobility زادت .

السوق القومية اليوم لم تعد تكفي الانتاج القومي، والانتاج نفسه تغير فهو اليوم يتفرع جغرافيا رغم ان قاعدته القومية ظلت الاهم . قومية السوق صارت اضعف بكثير من قومية الانتاج . واليوم نحن في مرحلة يعاني فيها الاقتصاد العالمي من هذا التطور ، أي من الفجوة القائمة بين الانتاج وسوقه . فالدولية هي في مرحلة القومية التوسعية أي في مرحلة الاستعمار (ونحن نفرق بين الاستعمار والكولونيالية) . فالمنتج يحاول الاحتفاظ قدر الامكان بقاعدة الانتاج أي أنه يحاول الاحتفاظ بقومية هذه القاعدة لنفسه للسيطرة عليها الا اذا وجد لانتاجه قومية يستطيع استغلالها والاستفادة منها على مستوى اوسع، والسيطرة هنا مربوطة بالسياسة طبعا . توسع الانتاج القومي خلق الفوضى في النظام الاقتصادي الدولي وأساس هذه الفوضى هي الفجوات بين الانتاج واسواق السلع والمواد الخام والعمل . هذه الفوضى لا تحل الا باعادة تركيب النظام الاقتصادى الدولي على اساس انصاف القوميات واحترام مصالحها وعلى اساس تطوير العالم المتخلف وسد الفجوات بين

Digitized by Birzeit University Library

الانتاج وانواع التسويق . واخيرا فان هذا النظام الدولي لا يمكن ان يكتمل ويقوى الا اذا تخلت القوميات تدريجا عن عناصر السيادة القومية الضرورية لحمايته وتطوره .

ويتضح مما سبق ، خلافا لما قاله ماركس ، أن الاستعمار في عصرنا الحاضر هو استعمار قوميات صناعية بغض النظر عن نوع انظمتها الاقتصادية ، سواء كانت رأسمالية او اشتراكية وتختلف انواع الاستعمار باختلاف اسبابه . فالاستعمار اسبابه اقتصادية وغير اقتصادية وكذلك الحروب . ومن الوجهة التاريخية كانت الاسباب الاقتصادية عادة اقل واضعف من الاسباب غير الاقتصادية . فالاستعمار العربي التاريخي كان دافعه نشر العقيدة الاسلامية وقد نجح ، كما قلنا سابقا ، في اعطاء قوميته للكثير من الشعوب التي استعمرها . أما الشعوب التي لم تنجح في تحويل قومياتها فهي التي اضعفته وفي الاخير أخذت سلطته السياسية . ولا شك ان هناك عوامل اقتصادية مهمة في التوسع العربي وهي الحاجة الى الهجرة أي حاجة الجزيرة العربية لهجرة سكانها ولا شك ان هذا العامل الاقتصادي ساعد الحكام العرب على تعريب الشعوب التي استعمروها . ولكن السبب الديني ، في رأينا ، كان الأهم في التوسع العربي .

ولكن الاسباب الاقتصادية للتوسع القومي العصري ، أي للتوسع التاريخي الأخير ، هي الاهم وذلك لأنه توسع قوميات صناعية . فالحرب العالمية الأولى اسبابها الاقتصادية اكثر من اسبابها غير الاقتصادية . أما الحرب العالمية الثانية فأكثر اسبابها كانت نتائج الحرب العالمية الأولى أي أن الحلول التي وضعتها الدول المنتصرة في الحرب الأولى هي ، في الغالب ، التي سببت الحرب الثانية .

مما لا شك فيه أن الاقتصاد الصناعي هو اقتصاد

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية

Digitized by Birzeit University Library

توسعي ، والسبب هو حاجته الى الاسواق ، وهذه الحاجة تختلف باختلاف نوع الاسواق ؛ فالتوسع الصناعي ليس من نوع واحد لأن نوع الاسواق التي يحتاج اليها يختلف . وهناك ثلاثة انواع للاسواق وهي سوق السلع commodity market وسوق المواد الخام market for raw materials وسوق العمل labor market .

هناك بلاد صناعية تحتاج الى المواد الخام قبل احتياجها الى سوق السلع ومنها اليابان وبريطانيا في عهد سابق . والسبب هو أن اليابان وبريطانيا كانتا بحاجة ماسة للمواد الخام لبناء صناعتهما لافتقارهما الى المواد الخام الكافية لتلك الصناعة . والقاعدة الزراعية للتطور الصناعي فيهما كانت محدودة (بالنسبة لعدد السكان طبعاً). أما الولايات المتحدة وروسيا فحاجتهما للمواد الخام كانت قليلة في المراحل الاولى للتصنيع . فهذان البلدان غنيان بالمواد الخام لذلك سبقت حاجتهما الى أسواق السلع حاجتهما للمواد الخام . ولكن بعد مدة كثر فيهما الانتاج الصناعي لدرجة انهما اليوم تحتاجان الى المواد الخام . وفي حالة الولايات المتحدة صارت اجور العمال عالية لدرجة وجود حاجة الى سوق عمالي . وبالطبع فان الولايات المتحدة احتاجت الى السوق العمالي قبل سوق السلع لانها كانت بلادا بحاجة الى السكان . فالولايات المتحدة بدأت بحاجة لسوق عمالي ثم لسوق سلع واخيرا لسوق مواد خام وسوق عمالي ايضا . لذلك نعتقد ان حاجتها الى التوسع كبيرة للغاية . اما روسيا فحاجتها لسوق السلع اقل من حاجة امريكا وحاجتها لسوق عمالي لم تظهر بعد . أما حاجتها لسوق مواد خام فقد بدأت تظهر وستكون مشكلتها الاولى في وقتنا الحاضر نجد أن التوسع الامريكي هو اكبر من التوسع

Digitized by Birzeit University Library

الروسي ولذلك فهو يشكل الخطر الاكبر .

البلاد المهددة بالتوسع الاقتصادى هي بلاد الاسواق . والحروب العصرية لها ارتباطات بالاسواق فأكثرها او اهمها هي حروب بين بلاد صناعية ، (ولكن هناك حروب من انواع اخرى) . فحروب اسواق السلع تكون بين بلاد صناعية في بلاد متطورة اقتصاديا والحرب العالمية الاولى كان من اسبابها الاولى المنافسة على الاسواق التجارية . حروب اسواق السلع تكون في اراضي بلاد متطورة لأن سوق البلاد المتطورة هو اكبر من سوق البلاد غير المتطورة . فتجارة أمريكا اليوم (أي تجارة السلع) هي مع غربي أوروبا وكندا اكثر من تجارتها مع العالم الثالث . ولكن هناك نقطتان يجب فهمهما : حروب الاسواق السلعية ربما امتدت خارج اراضي البلاد المتطورة الى اراضي البلاد غير المتطورة لأن هدف الحرب هو الانتصار ولذلك فهذه الحروب هي حروب قوى بالاضافة الى كونها حروب اقتصاد . وربما كانت قوة البلاد المتحاربة خارج حدودها السياسية . والحروب الكبيرة تجلب البلاد الصغيرة للحرب بالنظر لارتباطاتها في البلاد الرئيسية المتحاربة وهناك رؤيا المصالح الخاصة التي هي ايضا من عوامل دخول الدول الصغيرة الحروب . ثانيا ، السلاح النووي جعل هذا النوع من الحرب مستحيلا لأن خطره على الغالب والمغلوب والحيادى كبير جدا .

أما حروب اسواق المواد الخام فهي في العالم الثالث . وهذا النوع من الحرب أو الاستعمار زادت اهميته واحتمال حدوثه ، لأن اسعار المواد الخام الاستراتيجية زادت . فأميركا زادت اجور العمال فيها وزادت تكاليف المواد الخام فيها ايضا ، مما جعل سوقها التجارية (سوق السلع) ضعيفة وهي اليوم تعاني من هذه المشكلة كما عانت بريطانيا من

Digitized by Birzeit University Library

قبل .

واليوم تتطور سوق رابعة يجب ذكرها وهي السوق التكنولوجية اي سوق المعرفة الكيفية . والبلاد الصناعية هي البلاد المنتجة لها والعالم الثالث هو المستهلك . ولكن هذا النوع من التكنولوجية يحتاج تطويرا اضافيا ليتوافق مع حاجيات البلاد المتخلفة التطورية ، أي أنه تكتولوجية متقدمة جدا هدفها الرئيسي هو توفير العمل وهي بالاضافة تكلف الكثير من رأس المال ولذلك فهي تناقض حاجيات معظم الدول المتخلفة التطورية . (البلاد المتخلفة التي تحتاج هذه التكنولوجية هي بلاد رأس المال النقدى الكبير كالسعودية والكويت مثلا) .

واخيرا يجب ان نذكر تأثير التطور الاقتصادي الصناعي على الفرد والمجتمع : اساس هذا الاقتصاد هو الانتاج والمنافسة والربح هما اساس التنظيم الرأسمالي له . في بداية التطور الصناعي كان المنتج هو صاحب المال والغني والعامل كان كادحا مستغلا . والعلاقات بين الاثنين كانت تقليدية حسب القانون العرفي الانجليزى (في بريطانيا واميركا) أي انه لم يكن للعمال الحق أن ينظموا النقابات وأن يفاوضوا المالك كجماعة لها شخصيتها القانونية او ان يضربوا . وفي اميركا لم يحصل العمال على هذه الحقوق القانونية الا سنة ١٩٣٥ بموجب قانون واجنر Wagner . وهذا حدث بعد أن اصبحت اميركا مدنية اي ان معظم سكانها يسكنون في المدينة اذ أن الاحصاءات تدل على أن سنة ١٩٢٠ هي بداية هذا التحول . قبل تلك السنة كان العامل فقيرا ونسبة اجوره من الدخل القومي قليلة . ولكن حدث ما اظن انه كان ثورة جديدة في الاقتصاد الامريكي وهو ربط الانتاج واجور العمال في نظام المصانع ، وربط المصنع او

Digitized by Birzeit University Library

الانتاج بالسوق الكبيرة . كانت نتيجة هذه الروابط أن اصبح العامل مستهلكا ومعنى ذلك أن النظام اصبح ينظر اليه ليس فقط كعامل منتج بل ايضا كمواطن مستهلك أي أنه بالأحرى اصبح هو السوق الكبيرة . وطبعا كان هو من أسباب التحول في النظرة الاقتصادية ولكن كان هناك رأسماليون عصريون ساعدوا على هذا التحول مثل هنرى فورد الذي كان يأمل بأن يكون عند كل عامل سيارة فورد ،طبعا عن طريق الانتاج بالجملة mass production . وهذا النوع من الانتاج اساسه تكنولوجية ما اسميه "الاكثر الارخص" أي أنه اذا انتجت اعداد كبيرة من السيارات مثلا صارت السيارة رخيصة ، طبعا اذا بيعت هذه السيارات وهذا معناه طبعا السوق الكبيرة . وعندما صارت للعامل حقوق نقابية صارت له قوة اقتصادية وسياسية كبيرة وهذان العاملان ساعدا على زيادة اهميته كمستهلك نشيط .

والسوق الكبيرة تتطلب المنتج الكبير . في النظام الرأسمالي تطور هذا الى وجود الشركات الكبيرة ورأس المال الكبير ، وهذا بدوره قلل من اعداد المنتجين وصارت مشكلة الاحتكار تهدد "السوق الحرة" مما اضطر الحكومة أن تضع قوانين خاصة لمعالجته ولكن هذه القوانين لم تكن فعالة اذ أن عدد المنتجين ظل يقل ولكن الاحتكار لم يصبح كليا .

مع هذا التغير حصل تطور في العمل ايضا ؛ فالعمل صار جماعيا من الوجهة الاقتصادية ، وسوق العمال صارت كبيرة وكلية mass كالأنتاج وسوق الاستهلاك . واصبحت الشركة هي الوحدة الاقتصادية ومركز الولاء العملي في امريكا ، وهي صاحبة الدور الرئيسي في الاقتصاد الامريكي.

Digitized by Birzeit University Library

كل هذا التطور كان له معنى للمجتمع اذ خسرت الفردية معناها التقليدي فالفرد انسلخ عن العائلة كوحدة اقتصادية وانضم الى وحدة اكبر ليس لها علاقات دم ولا علاقات تقليدية اجتماعية . هذه الوحدة كانت عصرية بمعنى أنها مهنية . فالفرد خسر اهميته كفرد لأنه خسر دوره الاقتصادي والاجتماعي اي خسر مركزه وصار جزءا من شيء اكبر ،الشركة والنقابة . ورغم أن فلسفة امريكا ما زالت تدعي الارتكاز على الفردية الا أن الفردية نفسها تغيرت فهي اليوم جماعات خاصة private groups ؛ فالفرد الأمريكي ليس له اهمية الا اذا كان عضوا في جماعة ، واهم الجماعات هي الجماعات الاقتصادية economic groups .

وضاع معنى الفردية التقليدي في الاجتماع وفي السياسة فالنشاطات الاجتماعية صارت جماعية خاصة والتأثير السياسي صار عن طريق الجماعات ايضا كالاحزاب . والأمريكي اليوم لا يشعر بأهميته كفرد ، حتى العمل صار منظما وتكنولوجيته صارت من النوع اللاشخصي impersonal ،والعلاقات في امريكا ، بجميع انواعها ، صارت لا شخصية . فخسارة الفرد لفرديته أثرت على شخصيته وعلى الأنا ، مركزها . وطبعا العلاقات العائلية ضعفت واساليب التربية صارت علمية . وقد أدى كل هذا التطور الى زيادة أهمية السايكولوجية لأن المشاكل السايكولوجية صارت كثيرة واهمية صاحب الاختصاص في هذا الحقل زادت . فالمجتمع الأمريكي اليوم يعاني سايكولوجيا المشاكل الكثيرة فالادمان على الكحول وعلى المخدرات وارتفاع نسبة الجرائم ونوعيتها لها ، كلها علاقة بالعوامل السايكولوجية .

وطبعا الديموقراطية تغيرت معانيها فهي اليوم ، كما قلنا ، ديموقراطية جماعات (جماعية خاصة) لا

Digitized by Birzeit University Library

ديموقراطية فردية أي انها اوليغاركية . والامريكي اليوم يشعر بأن تأثيره على النظام السياسي ، كفرد، قليل او بالاحرى صفر ، الا عن طريق الجماعات التي تسمى جماعات الضغط pressure groups فالاسماء الشهيرة في السياسة الامريكية مرتبطة بالجماعات الكبيرة ولا يوجد في امريكا فرد كبير يستطيع أن يتحدى هذه الجماعات لمدة طويلة . فهي التي تعطيه الاسم الكبير وهي التي تصغره وتضعفه ، وهذا ينطبق حتى على رئيس الجمهورية .

النموذج الشيوعي

الانظمة السلطوية الفرديه هي آيدولوجيا ، اكثر عداء للشيوعية من الانظمة الديموقراطية الفردية . ومعنى ذلك انه على الصعيد الأيدولوجي نجد العالم الثالث يعادي الشيوعية اكثر من العالم الغربي . والسبب أن الايدولوجية الشيوعية ومخاطرها تهدد العالم المتخلف اكثر بكثير من تهديدها للعالم الصناعي المتقدم (الديموقراطي الغربي) . والدليل على ذلك هو أن دول العالم الثالث ، خصوصا المعادية للاستعمار الغربي ، لا تسمح للاحزاب الشيوعية بالعمل فيها . واكثر من ذلك ، فهي تضطهد الشيوعيين اكثر من غيرهم . ولكن العالم الغربي يسمح للأحزاب الشيوعية بالعمل ؛ وهي قوية في ايطاليا وفرنسا وتعمل بحرية في بريطانيا . أما في امريكا فالاحزاب الشيوعية مسموح بها ولكن هناك قوانين تجعل عملها السياسي صعبا للغاية ، وتجعل بعض نشاطاتها مستحيلة ، وهذه القوانين تحرم الشيوعي من حقوق سياسية كثيرة . وامريكا هي الدولة الغربية الوحيدة التي تعادي الشيوعية كأيدولوجية . وربما كان سبب ذلك انها تعادي روسيا كدولة عظمى وتنافسها في

Digitized by Birzeit University Library

كل شيء .

وهنا نحن نميز بين الدولة الشيوعية ، كروسيا والصين مثلا ، وبين الآيدولوجية الشيوعية . الصراع الدولي ، في رأينا ، ليس صراعا آيدولوجيا ولو أن مظهره كذلك ، انه في الحقيقة صراع قوى ومصالح بغض النظر عن المظهر الآيدولوجي . فالايدولوجية في الصراع الدولي هي وسيلة لغاية ، وهي بالنسبة للقوى السياسية ، ولا سيما الدول الشيوعية ، مجرد اداة instrument لسياسات الدول الخارجية . وباستطاعتنا القول أن الصراع الدولي الحالي لا يتغير حتى ولو لم يكن هناك شيوعية في العالم ؛ وعداء الغرب لروسيا والصين ، او عداء روسيا للصين ، ما كان ليتغير حتى ولو لم تكن هناك شيوعية ، اذ ، بعد الحرب العالمية الثانية ، صار التنافس الدولي بين الدولتين العظيمتين روسيا وامريكا . وهذا ما حدث بعد الحرب العالمية الاولى اذ كان التنافس بين بريطانيا وفرنسا من ناحية والمانيا وايطاليا واليابان من ناحية ثانية والايدولوجيات الديموقراطية والنازية والفاشستية كانت مظهرا لهذا التنافس . واسباب التنافس هي اعمق بكثير من المظاهر الآيدولوجية .

ان دول العالم الثالث تعادي الايدولوجية الشيوعية وتمنعها لانها تشعر انها مهدده من قبلها وهي اي تلك البلدان مرشحة لان تصير شيوعية ، اي ان مستقبل الشيوعية هو في العالم الثالث لا في العالم الغربي . فالشيوعية حيث نجحت في البلاد المتخلفة لا في البلاد الصناعية المتقدمة . وكلنا يعلم ان الشيوعية لم تنجح في اي بلد صناعي متقدم ، والدول التي صارت شيوعية كانت كلها غير صناعية . واذا نجحت الشيوعية في بلد صناعي فسيكون شكلها الايدولوجي مختلفا عنه في البلاد المتخلفة اذ انها ستكون

Digitized by Birzeit University Library

اشتراكية ديموقراطية بالفعل ، وشيوعية بالاسم .

وهذا طبعا يخالف نبوءة ماركس فهو توقع ان تكون بداية التطور الشيوعي في البلاد الصناعية المتقدمة وفي المانيا بالذات . ولو عاد اليوم الى الحياة وقيل له ان الشيوعية بدأت في روسيا اولا وهي اليوم في بلاد متخلفة كالصين وكوبا وكوريا الشمالية لأصابته سكتة قلبية وعاد الى قبره . ولكن يظهر ان الماركسية بالرغم من تنبؤات ماركس نفسه لها قوة جاذبية في العالم المتخلف . فالشيوعية هي فكر غربي ننجح ، حيث تنجح ، في بيئة متخلفة حاولت ان تصير عصرية ولكنها فشلت . وكما يقول آدم اولام Adam Ulam في كتابه الشهير "الثورة التي لم تنته" The unfinished Revolution فان الماركسية هي اليوم الآيدولوجية الطبيعية للبلاد غير المتطورة (٧). ويقول البروفسور روبرت تكر Robert Tucker ان الشيوعية نجحت في بلاد اختبرت العصرية او التحديث ولكنها لم توفق فيها ، ويسمي وضع هذه البلاد بالتحديث الموقوف arrested modernization . وعلى رأيه فان روسيا في نهاية القرن الثامن عشر وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر كانت في وضع "تحديث موقوف" كلاسيكي . ففي القرن السابع عشر ، بدأت الحكومة المسكوبية عملية غربنة للمجتمع الروسي ، وهدفها كان الحصول على التكنيك اللازم لمنافسة جيرانها من الغربيين الذين كانوا متقدمين اكثر منها . وفي نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر حول بطرس الكبير Peter The Great عملية الغربنة الى "ثورة من فوق" هدفها التصنيع ، الاصلاح الاداري ، التطوير التعليمي ، والغربنة في الاسلوب واللباس ولكن العملية الاولى وثورة بطرس الكبير لم تستمر وتكتمل حيث تراجعت روسيا الى الوراء في نهاية القرن الثامن عشر واستمرت كذلك خلال حكم "القيصر الحديدي"

Digitized by Birzeit University Library

نيقولا الاول Nicholas I في الربع الثاني من القرن التاسع عشر . وعادت العصرية والتحديث الى النشاط في عهد الاسكندر الثاني في عام ١٨٥٥ حين الغي الرق ، وفي الستينات بدأ هذا القيصر اصلاحات عديدة طورت الصناعة والنظام الرأسمالي ولكن العملية خفت وقلت سرعتها في عهده هو وفي عهد اللاحقين له من القياصرة ،ولما جاءت الثورة البلشفية في عام ١٩١٧ كانت روسيا قد اختبرت العصرية ولكنها كانت ما زالت متخلفة وغير متطورة .

وروسيا كانت لديها مقومات التطور قبل عام ١٩١٧ وبعده ، ولكن المقومات وحدها لا تضمن التطور . والتطور الذي يكون هدفه محدودا لا ينجح وهذه كانت مشكلة التطور في عهد بطرس الكبير وغيره في البلاد الاخرى . في مصر مثلا في عهد محمد علي كان هدف التصنيع والتحديث تقوية الجيش المصري والسيطرة على الامبراطورية العثمانية . أما التطوير الناجح فهو الذي يهدف الى رفع مستوى المجتمع بأكمله اي التطوير الذي يكون له قاعدة جماهيرية او شعبية ، والماركسية لها هذه الصفة .

ولكن الماركسية لا تركز اهتمامها على العالم الثالث بل على العالم الرأسمالي الصناعي ؛ وأحسن ما كتبه ماركس كان عن مشاكل اوروبا في زمنه . والسؤال الآن هو كيف صار للماركسية القدرة على اجتذاب العالم المتخلف . وللجواب عدة عناصر ، اهمها ان الماركسية آيدولوجية او نظرية تاريخية تطورية . ورغم أن علم التحديث علم جديد بدأ بالظهور بعد الحرب العالمية الثانية ، الا ان ماركس سبق علماء التطور والتحديث بقرن على الاقل . فخذ مثلا الكتاب الاول من Capital "راس المال" فهو دراسة عن

Digitized by Birzeit University Library

انتقال المجتمع من الاقطاعية الى البرجوازية . فلو اعتبرت الاقطاعية هي ما يسميه علماء التطور بالمجتمع "التقليدي" واعتبرت البرجوازية ما يسمونه بالمجتمع "العصري" لصار عندك نظرية ماركسية تطورية . اضف الى ذلك كتاباته عن المجتمع الفلاحي ومقالاته عن الحكم البريطاني في الهند فهي كتابات تصور لك عملية التطوير والتحديث في بلاد متخلفة. وفي الحقيقة انه باستطاعتنا اعتبار كُتَيِّبِهِ الشهير "البيان الشيوعي" The Communist Manifesto نظرية في التطور والتحديث . وهذا ما قصده الكاتب المعروف راستو W.Rostow عندما اعطى كتابه "مراحل النمو الاقتصادي" العنوان الصغير The Stages of Economic Growth "مانيفستو غير شيوعي" . في هذا الكتاب ، قدم راستو نظرية تحديث وتطور ترد على نظرية ماركس التطورية وتنتقدها .

بالنسبة لماركس فان معالجته لموضوع ظهور المجتمع العصري من خلال التطور الاقطاعي تعطينا نموذجا لعملية التطور والتحديث (٩). وهذا النموذج يركز على ظهور النظام الرأسمالي مع تأثيراته على جميع نواحي الحياة الاجتماعية والادراكات الانسانية . ولذلك نجد ان التحديث بالنسبة لماركس هو عملية ظهور وانتشار طريقة الانتاج الرأسمالي على نحو ما آلت اليه في اوروبا بعد العصور الوسطى . هذه العملية صورها ماركس وكأنها ثورة اقتصادية جاءت بعد الانتقال من طور عمل الرقيق الى طور العمل المأجور . والدافع لهذه العملية التحديثية هو رغبة الرأسمالي في توسيع وزيادة رأسماله عن طريق استغلال عمال الاجرة البروليتاريين في المصنع . ولجمع رأس المال يحدث الرأسمالي تكنولجية الانتاج ويطورها بطريقة عصرية لا مثيل لها في تاريخ التطور الانساني . في هذا التطور الرأسمالي تظهر ضرورة انتقال

Digitized by Birzeit University Library

السلطة السياسية من الملكية القديمة الى الطبقة البرجوازية الجديدة . وهذا الانتقال ليس هو الدافع الرئيسي للثورة الاقتصادية الرأسمالية اذ هو في الحقيقة ضرورة للتخلص من موانع النظام الاقطاعي القديم لتطور القوى الانتاجية للنظام الرأسمالي الجديد . ان دافع الثورة الاقتصادية ليس سياسيا بل اقتصاديا ناتجا عن طبيعة العملية الرأسمالية نفسها أي ، كما قلنا ، رغبة الرأسمالي لتجميع رأس المال وزيادته .

وحسب النظرية الماركسية الكلاسيكية فان عملية التحديث لها وسيط يقودها ويعطيها السرعة والقوة وهذا الوسيط هو البرجوازية . فأبطال التحديث هم البرجوازيون وضحايا هذه العملية هم البروليتاريون - من العمال والفلاحين . وهذه الطبقة البرجوازية يصفها ماركس في كُتَيِّبِهِ الشهير "المانيفستو" بأنها الطبقة التي تحدث ثورة في وسائل الانتاج وعلاقاته لان التطور التكنولوجي هو ضروري لوجودها ولاستمراريتها . فهي تطور وسائل الانتاج وتؤثر على جميع نواحي الحياة من مؤسسات وثقافة واسلوب حياة وقيم اجتماعية موجودة فيما يسميه ماركس "التركيب الفوقي" super structure . وهذا التطوير لا يقف عند حدود قومية الرأسمالي بل يتعداها الى الساحة الدولية . يقول ماركس في "المانيفستو" ان البرجوازية تجذب الى حضارتها حتى اكثر الامم تخلفا او بربرية فهي "تخلق العالم حسب تصورها ونظرتها" (١٠).

وطبعا الدافع لخروج الرأسمالي الى الساحة الدولية هو ايجاد الاسواق لارضاء رغبته في الربح ، هذه الرغبة كان قد حد منها تقلص السوق القومية . ولكن تأثير البرجوازية في حقل التحديث والتطور وصل البلاد المتخلفة ولم يقف عند حدودها القومية . ففي الهند مثلا هدم الانجليز القاعدة الاقتصادية للنظام القروي ، وسببوا اول ثورة اجتماعية في آسيا .

Digitized by Birzeit University Library

ويتضح من هذا ان الرأسمالي الاوروبي كان يهدم القديم في العالم المتخلف ويضع فيه اسس الجديد ، اي ان البرجوازية الاوروبية صدرت ثورتها التحديثية الى آسيا عن طريق الاستعمار الاوروبي ووضعتها في شكل ثورة تقريبية revolution of Westernization .

ولكن خروج الرأسمالية الاوروبية والامريكية الى الساحة الدولية لا يخلصها من الهبوط والتدهور ، فهذه الرأسمالية التي ظهرت كقوة للتغيير والتحديث تصبح طبقة محافظة جدا اذ لم تعد تستطيع التقدم في علاقات انتاج كالتي اوجدتها بين رأس المال والعمل . والبرهان على ذلك وجود الانتاج الفائض في المجتمع البرجوازي ، وتطور الازمة الى الصعيد الدولي. في هذه المرحلة المتقدمة من التطور الرأسمالي تصبح البرجوازية غير متوازنة حيث يتطور الصراع الطبقي بينها وبين البروليتارية. وتصبح وسائل الانتاج means of production مركزة وتصير طرق العمل labor processes اكثر تعاونية واجتماعية ، كما انها تصير ميكانيكية. وتزداد عملية الانتاج الرأسمالي تمدنا cosmopolitan وتصبح الدولة القومية غير فعالة وعتيقة obsolete . ويصبح الصراع الطبقي اكثر استقطابا more polarized الى أن تثور البروليتارية ضد ما سماه ماركس وانجلز "تجريد الحياة من الانسانية" dehumanization of life .وتوقع ماركس وانجلز ان تحدث الثورة البروليتارية في عدد من البلاد المتقدمة وأن تصير محور الثورة العالمية لأن الرأسمالية والسوق العالمي طورا المجتمع الى وحدة ارضية كبرى .

ان نظرية ماركس في التطور لها حدود اذ تتوقف العملية في مرحلة استقبالية . وهذا معناه ان البرجوازية

Digitized by Birzeit University Library

هي عجلة التحديث العصري فهي التي تطور الصناعة والتكنولوجيا الآلية وتهدم الانظمة التقليدية وتحول السكان الى مدنيين وتسيطر على الطبيعة وتجعل المجتمع دوليا . اما الشيوعية في المرحلة الاخيرة فهدفها ليس التحديث بل اعطاء الحياة النوعية الانسانية الراقية والانسان التكامل مع نفسه ومع الطبيعة وجعله بمجموعة "سيد الظروف" sovereign of circumstances اي ان الانسان يصبح لاول مرة حضاريا civilized .

ولكن هذه النظرية ، رغم تركيزها على المجتمعات الصناعية البرجوازية المتقدمة ، صارت آيدولوجية لتطور البلاد المتخلفة واول من اعطاها هذا الشكل وطبقها في بلد متخلف هو لينين . ولا شك ان لينين رأى في الماركسية تطورا ثوريا اذ قال ماركس "الثورات هي قاطرات locomotives التاريخ" . وتبع لينين زعماء اخرون في بلاد متخلفة اخرى واهمهم طبعا هو ماو الزعيم الصيني الذي اعطى الماركسية الطابع الاسيوي .

وحيث ان التطور الماركسي الديناميكي يحدث في العالم الرأسمالي المتقدم فقد صار من الضروري ان تسبق السياسة الاقتصاد في التطور الشيوعي في العالم المتخلف . ومعنى ذلك اعطاء الاولوية (من قبل الشيوعيين) للسلطة السياسية اذ بدون اخذ السلطة والاستيلاء عليها لا يمكن للبلاد المتخلفة ان تدعي الاتباط بالماركسية والتطور الماركسي . وهكذا وجدت الشيوعية في بلاد لم يتوقع ماركس ان توجد فيها . والسيطرة على السلطة لم يكن لها علاقة بنظريات ماركس اذ كانت عملية منفصلة عنها . وربما كانت عبقرية لينين هي في استراتيجية الاستيلاء على الحكم

Digitized by Birzeit University Library

واستغلال الاوضاع الروسية لهذا الغرض . ففي روسيا سبقت "الشيوعية" حرب عالمية وفوضى داخلية . أما ظروف البلدان الشيوعية الاخرى فقد كانت تختلف . ففي الصين سبقت الشيوعية حرب ضد اليابانيين اشترك فيها ماو واتباعه اشتراكا مشرفا وفعالا . وبعد المقاومة انتقلت الحركة الى ثورة ريفية ضد حكم الكومندان (القوميين). وكان ماو قد فشل قبلها في المدن واصبحت استراتيجيته ريفية . وفي كوبا سبقت الشيوعية ثورة داخليه ولم تعرف بأنها شيوعية حتى آخر لحظة عندما اعلن كاسترو شيوعيته . واما فيتنام فقد سبقت الشيوعية فيها حرب طويلة ضد الفرنسيين وحرب طويلة اخرى ضد الامريكان . في يوغسلافيا كان تيتو من زعماء المقاومة الاشداء ضد الالمان في الحرب العالمية الثانية . أما بالنسبة للبلدان الاخرى كاوروبا الشرقية وشمال كوريا ، فقد جاءت الشيوعية اليها عن طريق الاحتلال الروسي او بمساعدته المباشرة . وما عدا هذه البلدان الاخيرة ، شرقي اوروبا وشمال كوريا ، وصلت الشيوعية البلدان المتخلفة عن طريق ثورات داخلية او حرب ضد الاستعمار الاجنبي . ولكن صار في المدة الاخيرة تطور جديد لم يحسب حسابه من قبل، اذ ان الماركسية جاءت الى بلدان لم تمر في مرحلة "التحديث الموقوف" أي انها لم تختبر الحياة العصرية في مراحل سابقة . والتطور الجديد هو في وجود الماركسية في بلاد متخلفة جدا ووجودها عن طريق الانقلابات العسكرية : بلاد الحبش وافغانستان واليمن الجنوبي هي صنف جديد في العالم الماركسي وطريقها تختلف عن غيرها في البلاد التي سبقتها في الماركسية .

من الوجهة الآيدولوجية ، كانت الشيوعية في جميع الاحوال تتخذ الطابع المحلي رغم ادعاء الماركسيين بوحدة

Digitized by Birzeit University Library

الفكر والممارسة . فكل قومية كيفت الماركسية لتتناسب مع احوالها ، ففي روسيا بدأت الحركة في مدينة بتسبورغ التي صار أسمها لننجراد بعد الثورة الشيوعية . وهناك كان التنظيم اللينيني يعتمد على الجنود والعمال و أضاف اليهم الفلاح لعلمه أن روسيا خارج المدن كانت شبه اقطاعية . فعرف لينين البروليتارية بعناصرها الثلاثة الجنود والعمال والفلاحين . طبعا بالنسبة لماركس البروليتارية الثائرة هي الطبقة العمالية الصناعية ولكن هذه الطبقة كانت صغيرة جدا في بلاد متخلفة كروسيا ولا يمكنها أن تثور بنجاح او ان تكون القاعدة الثورية ضد النظام القيصري .

أما ماو فبعد ان فشل في المدينة انتقل الى الريف فكانت ثورته فلاحية . ولكن الفلاح معروف بتحفظة ، فهو تقليدي ومن الصعب تنظيمه سياسيا . والذي ساعد ماو هو الوجود الياباني العسكري في الصين والحاجة الى مقاومته وطرده من البلاد . فالفلاح تحرك من اجل قوميته ضد الاستعمار الياباني وماو استطاع استعمال قوته ضد الحكم الكومندانى الفاسد فغزا المدينة بقوة الريف . ولأن العدو الاول كان اجنبيا ، ولأن الحركة كانت قومية ، جاء ماو بتفسير جديد لكلمة "بروليتارية" فهي بالنسبة له تجمع اربع عناصر سكانية ، البرجوازية الصغيرة والفلاحين والعمال والرأسماليين الذين هم ضد الاستعمار . وادخال العنصر الرأسمالي في الحركة معناه أن ماو كان يحاول ايجاد وحدة قومية ضد الاستعمار . لذلك نجد الشيوعية الماوية مرتبطة بأحوال العالم الثالث اكثر من اللينينية ، لأن الاستعمار بالنسبة لماو كان اكثر واقعية كمشكلة منه للينين رغم وجود جيوش اجنبية في اراض روسية في نهاية الحرب العالمية الاولى . واذا كان الوجود الروسي في العالم الثالث هو اليوم اكبر من الوجود الصيني فهذا لأن اساسه علاقات

Digitized by Birzeit University Library

دول او قوى لا علاقات آيدلوجية . فالعالم الثالث ، خصوصا المعادي للعالم الغربي ، بحاجة الى التكنولوجية الروسية والسلاح الروسي اكثر من حاجته للمساعدات الصينية . وموقع روسيا الجغرافي وكونها دولة عظمى هما سببان مهمان أيضا ، ولكن ربما تغيرت الظروف في المستقبل وصارت الصين اهم من روسيا في العالم الثالث .

يقول البروفسور جون كوتسكي John H. Kautsky إن الآيدولوجية الماركسية هي لعبة تلعبها الدول الشيوعية لتحقيق مآربها وأن علاقتها بالحقائق وواقع هذه الدول ضئيلة جدا (١١) . فهو يعتقد أن الاسباب الحقيقة لنجاح الدول الشيوعية هي التي يجب أن تظهر للعالم الثالث وهي القدرة على تسلم الحكم والغاء الاقطاع وتحطيم الارستقراطية والانتصار على الاستعمار الاجنبي ، وتصنيع البلاد . وهذه هي الاشياء التي يريدها العالم الثالث والتي حققتها الشيوعية حيث وجدت . واننا نوافق مع كوتسكي في رويته لما حققته الشيوعية مجردا من الآيدولوجية . ولكن لا نوافق معه على أن الآيدولوجية ليست مهمة ، فيظهر أنه يحط من قيمتها السياسية ولا يأخذ بعين الاعتبار الدور الذي تلعبه الآيدولوجية في التطور والتحديث . فالايدولوجية الشيوعية هي عقيدة او ، اذا اردت ، هي دين دنيوي وكغيرها من الأديان تتفاعل نفسيا مع المؤمن بها ، وهذا التفاعل هو الذي يسير الناس ويحركهم نحو الاهداف ، اهداف العقيدة نفسها . واذا كان الشيوعيون يفسرون عقائدهم لتناسب اوضاعهم فليس معنى هذا أن العقيدة لم تعد تلعب دورا مهما او أنها اصبحت لعبة يجب التخلص منها .

لا شك أن قوة جاذبية الشيوعية في العالم الثالث هي في امكانياتها التطورية لا في مادتها السياسية ، ولنفهم

Digitized by Birzeit University Library

هذه الظاهرة ، علينا أن نفرق بين الشيوعية كنظام سياسي والشيوعية كنظام تطور وتحديث . فعلاقات الشيوعية كنظام سياسي هي علاقات بين دول وهي علاقات قوى ومصالح لا علاقات ايمان وعقائد . وكنظام سياسي فالدول الشيوعية لا تختلف عن الدول الأخرى غير الشيوعية الا في تقييمها لمصالحها وعلاقاتها . واننا لا نرى على سبيل المثال فرقا بين الاستعمار الروسي والاستعمار الأمريكي الا في الاسلوب فالنوعان من الاستعمار يهدفان الى خدمة المصالح القومية للطرفين . والشيوعية يجب ان ننظر اليها من ناحيتين : من كونها آيدولوجية دولة وكونها حركة راديكالية . من الناحية الاولى ، هي اداة لسياسة الدولة الخارجية ، ومن الناحية الثانية هي حركة سياسة للوصول للحكم وتطوير البلاد . على الصعيد الدولي ، علاقة الدولة والحركة (في الاطار الشيوعي) تتغير حسب الظروف . فعلاقات روسيا (او الصين) مع الاحزاب الشيوعية الاجنبية تتغير حسب مصالح الدولة . ففي مرحلة معينة ، وجد ستالين من مصلحة الاتحاد السوفييتي أن لا يتعاون مع الحزب الشيوعي الصيني وفي مرحلة ثانية انعكست هذه السياسة . وعندما تسلم الشيوعيون الحكم في الصين صارت علاقات الشيوعية الصينية والشيوعية الروسية علاقات دول ووجدت الاثنتان تضاربا في مصالحهما القومية فتطورت العلاقات الى علاقات عدائية . في مصر ، وجد خروشوف من مصلحة دولته تجاهل الحزب الشيوعي المصري الذي كان مضطهدا من قبل عبد الناصر وعلى هذا الاساس حصل التعاون بين الدولة الروسية والدولة المصرية . أما في السودان ، في فترات خاصة ، فقد وجدت الدولة الروسية من مصلحتها التعاون مع الحزب الشيوعي السوداني واعطت الاولوية لعلاقتها معه . والعالم الثالث ، على العموم ، يفصل كما قلنا بين الشيوعية كدولة والشيوعية كحركة داخلية ؛ فهو يتعامل مع روسيا كدولة ولا يتعامل مع الشيوعية كحركة داخلية . وكما قلنا

Digitized by Birzeit University Library

سابقا ، فهو يشعر بخطر الشيوعية كحركة داخلية . ولكن هناك بلاد في العالم الثالث ، كالسعودية مثلا ، لا تفصل بين الاشنتين بل تعاديهما على حد سواء . ولكن لا يوجد دول في العالم الثالث تصادق الاشنتين ، الا في حالات شاذة وفي فترات خاصة كسوريا والعراق مثلا ، وعادة تكون هذه الصداقة خطرة ولذلك فهي علاقة وقتية .

قوة الشيوعية التطورية هي في افتراضها أن الحالة الراهنة لبلاد ما سيئة للغاية ومستحيلة . لذلك فان لها قوة جاذبية في العالم المتخلف اكثر منها في العالم المتقدم حيث الحالة الراهنة ليست مستحيلة وحيث الشعور قوي بأن البلاد متقدمة اكثر من غيرها . والشيوعية تضع تفسيرا لاسباب استحالة الوضع الراهن وهذا التفسير موضوع في قالب تطوري تاريخي واقتصادي وسياسي واجتماعي . ومع أن هذا التفسير يمكن ان يكون موضوع حوار وجدل ، الا أن قاعدتة الجدلية ، أي افتراضه أن الحالة الراهنة مستحيلة سليمة ولها جاذبية بين بعض الجماعات في العالم المتخلف، خصوصا الانتلجنتسيا اي المفكرين والمتعلمين والمثقفين . لذلك تترعرع الشيوعية وتصبح خطرا داخليا على السلطة السياسية القائمة ، في البلاد التي فيها فوضى وبلبلة فكرية ـ سياسية ، وفي البلاد الفقيرة جدا . فكلما كانت الحالة سيئة او كان الأمل في التخلص منها ضعيفا كلما كانت الشيوعية اقوى جاذبية .

وكعقيدة ، تضع الشيوعية اهدافا تطورية كما تضع الطرق والوسائل الضرورية للوصول لهذه الاهداف وهذا مهم جدا للتطور . وهناك عامل نفسي مهم وهو نفعية العقيدة التطورية .فالايمان هو سايكولوجية ضرورية للانتظام في خط معين ولتحمل التضحيات وآلام التطور . فهناك تفاعل

Digitized by Birzeit University Library

سايكولوجي ، مثل التفاعل الكيماوي ، بين الشيوعي وعقيدته، هذا التفاعل يسبب انفجار قدرات المؤمنين بالعقيدة ويطلق قواهم الفكرية والعضوية ويدفعهم لتكريس جهودهم وحياتهم كلها من اجل الأهداف العقائدية . وهذا شأن كل العقائد القوية (وليس كل عقيدة لها هذه الصفات) . فالاسلام دفع عرب الجزيرة المتخلفين الى التقدم بعد صقل نفوسهم واعادة تركيب قيمهم وجعلهم يضحون من أجله ، فأعطاهم القوة والمقدرة على بناء حضارة مجيدة وامبراطورية كبيرة. والشيوعية كذلك عندها المقدرة لتغيير المؤمن بها واعطائه المقدرة لتغيير غيره .

ولأن الشيوعية تدعي أن الحالة الراهنة ، النظام القائم، فاسدة فهي تدعو الى التغيير الكلي أي انها تتطلب خلق حياة جديدة وانسان جديد ونظام جديد ، وهذا ايضا مهم لأن التطور الحضاري لا يمكن أن يحصل عن طريقة ترقيع الحياة الحاضرة او العودة الى اسس حضارة سابقة ، كما ذكرنا سابقا . فلا اللباس المرقع ولا اللباس العتيق يصلح ليكون لباسا جديدا . والشيوعية تعني أن الفاسد يجب أن يزول بكليته اذ ليس له علاج الا القتل أو التحطيم او الهدم . فتحطيم النظام القائم يصبح واجبا "مقدسا" عند كل شيوعي حقيقي . وحيث أن التغيير ، أي احلال الجديد، يجب أن يكون كليا ، نجد الشيوعي يؤمن بتغيير نفسه اولا قبل تغيير الآخرين . فهو يدخل في عراك نفسي مع نفسه ويعد أن يسمح للعقيدة أن تترسخ في جذوره تجده يدخل في عراك مع غيره ، فاما ان يقنعهم كما اقنع نفسه أو يستعمل القوة لاجبارهم . لذلك فالشيوعية عندها الادراك السايكولوجي للتطور فهي تهدف الى تغيير شخصية الفرد واعادة تركيبها لتناسب اهدافها والحياة الجديدة التي وضعتها . ولتغيير شخصية الفرد ، كما سنشرح في الفصل القادم

Digitized by Birzeit University Library

تستعمل المؤسسات الاولى ، كالعائلة مثلا ، وللوصول الى هذا الهدف ، ترى السيطرة على الحكم سيطرة كاملة أمرا مهما للغاية ، لأن السلطة السياسية تساعدها وتعطيها القدرة الكاملة على السيطرة على المؤسسات الأولية وعلى بناء المؤسسات الثانوية الضرورية لتطوير المجتمع تطويرا كاملا.

وكون الشيوعية آيدولوجية مادية هو ايضا مهم للتطور لأن العصرية في زمننا مادية . وكما ذكرنا سابقا فان الشيوعية جزء من الحضارة الغربية المادية .

ومن ناحية خاصة نستطيع القول ان الشيوعية هي نظام تصنيع وغربنة . ففي العالم المتخلف ، تكون الشيوعية نظام تحويل الى حياة صناعية غربية مادية. وهي تختلف عن اساليب وطرق التطوير الاخرى في العالم الثالث بأنها تعطى العصرية للبلد المتخلف مع ثقافتها أي أن التطور ليس عضويا فقط بل هو ثقافي ايضا . ونجاح الشيوعية في البلاد المتخلفة يجعل هذه البلاد غربية ليس بالمظهر فقط بل بقيمها ونظرتها وثقافتها . وبدون النظرة المادية لا يمكن للبلد المتخلف أن يكون عصريا حسب المقاييس الحالية أي الموجودة في زمننا ، الا اذا وضع اسسا جديدة لحضارة جديدة ، كما ذكرنا في الفصل السابق.

ومن مشاكل العالم المتخلف نظرة الناس للعمل ، فالعمل اليدوي مشين والكسل عند بعض الناس له فلسفة خاصة ومنطق خاص ، ولا يشعر الناس بالخزي او بالاثم اذا تكاسلوا ولم يعملوا او لم ينتجوا . وهذه النظرة لها علاقة باسباب التخلف . والعامل ، عامل اليد ، ليس له مكانة في المجتمعات المتخلفة وأجوره ضئيلة وحظه من الحياة الطيبة قليل ، وهو يشبه العبد المسترق في التاريخ

Digitized by Birzeit University Library

الاوروبي فالملاك مسؤول عنه يحميه ويعامله معاملة شخصية (عاطفية) اذا هو قدم له الولاء ورضخ لأمره . لذلك نجد العامل خادما او شبه خادم ، ولأن اجوره ضئيلة فهو ليس مستهلكا نشيطا وقلة الاستهلاك تسبب قلة الانتاج وتخلف المجتمع .

وتؤكد الأيدولوجية الشيوعية على اهمية العمل والعمال فخذ مثلا دستور ستالين (١٩٣٦) حيث ينص على "قدسية" العمل وحقوق العمال . ورغم ان هذا الدستور ليس له اهمية واقعية في نظام سلطوي ودكتاتوري كالنظام الروسي الا انه يعكس الارادة الشيوعية وبعض العناصر الماركسية . وعندما يعلن ماركس ان العامل هو الاساس الحقوقي للانتاج ويعتبر قيمة الاشياء على اساس قيمة العمل الداخلة فيها ، ويعطيه كجماعة ،السلطة السياسية في مرحلة "الدكتاتورية البروليتارية" ،نستطيع أن نفهم معنى الماركسية المادي والتطوري . وتشدد الماركسية على الانتاج واهميته ففي المخطط الماركسي التطوري ، الانتاج هو من اسس نظام "الدكتاتورية البروليتارية" ومن مسؤولياته الاولى .ماركس يعطى الانتاج مركزا مهما في تطور النظام الرأسمالي الذي ينتقده بشدة ويتوقع زواله بالقوة . والتكنولوجية هي مفتاح التطور بالنسبة لماركس اذ انها ستكون الوسيلة للوصول للمرحلة الاخيرة ، الشيوعية ، حيث تكون الحياة شبيهة بالحياة في جنة الفردوس .

القيم المادية التي يشدد عليها ماركس ليست جديدة الا في العالم المتخلف . ولأن العالم الثالث يحتاجها نجد أن الشيوعية لها ارتباط مع هذا العالم اكثر من غيره . أما في العالم "المتقدم" أي العالم الغربي فقد تطورت هذه القيم واصبحت من ضمن الثقافة الغربية قبل ماركس . وهذا سبب

Digitized by Birzeit University Library

آخر لقولنا أن الشيوعية هي من ضمن الثقافة الغربية وليست منفصلة عنها ابدا . اضف الى هذه القيم أن ماركس يعتبر الصناعة عملية التطور . أما الحياة الزراعية "الريفية" فليس له فيها محبة وأخاله يحتقرها . والغريب هو ان الشيوعية تعطي هذه القيم الغربية للعالم الثالث وبنفس الوقت تجعله يتنكر للعالم الغربي وذلك عن طريق رؤية مساوىء الرأسمالية ومقاومة الاستعمار . من الناحية السايكولوجية هذه العملية مهمة لأنها تمكن الشعوب من الاقتراض دون ان تكون مدينة واكثر من ذلك فهي تمكنها من الاقتراض من العالم الغربي وشتمه في نفس الوقت . وهذه السايكولوجية ضرورية لمن عنده مركب نقص والشعوب المتخلفة عندها مثل ذلك المركب .

ولكن الماركسية متفائلة بالنسبة لمستقبل الانسانية كلها . فالنهاية هي السعادة للجميع ، أي أن الجميع موعود بالفردوس الابدى في آخر مراحل التطور الانساني . والفردوس الشيوعي يختلف عن فردوس الاديان السماوية الثلاثة بأنه سيكون على هذه الارض وليس في السماء ،ولكنه يشبهه في تصنيف الناس الى صالح وطالح ، والصالح في الاطار الشيوعي هو الشخص الذي يؤمن بالعقيدة ويأتمر بها اما الطالح فهو الذي يعارضها ويقاومها . وفي الفردوس الشيوعي يأخذ الانسان حسب حاجته ويعطي حسب مقدرته ،ولا يوجد تناقض اذ لا توجد طبقات وصراع طبقي ، ولا يوجد دولة او حكومة لأن الدولة وجدت كأداه للاستغلال الطبقي . وبدل الحكومة يكون ما سماه ماركس "ادارة الاشياء" التي تظهر لنا وكأنها تكنولوجية مسؤولياتها غير سياسية . وباختصار فان فردوس الشيوعيين هو اليوتوبيا أي الحياة الكاملة والمثالية .

Digitized by Birzeit University Library

واذا نظرنا الى مراحل التطور الشيوعي وجدنا انها تسير من السيء الى الاحسن فكل مرحلة هي اكثر تقدما من المرحلة التي تسبقها الى أن تنتهي ، كما قلنا ،بالفردوس وبعكس الأديان التي تطلب الموت أي نهاية الحياة للوصول الى الفردوس فان الشيوعية لا تبحث الموت . ولذلك قلنا انها عقيدة دنيوية لان الدين بالنسبة للشيوعية هو "أفيون الشعوب" وهو يسكن في الاساس الفوقي مع الدولة والسياسة والقانون . وكما أن الفردوس الشيوعي يكون على هذه الارض فكذلك الجحيم الشيوعي يكون عليها ويخيل لنا أن الجحيم هو في المراحل الاولى والفردوس في المرحلة الاخيرة . والطالح هو الكافر بالشيوعية ولكن حتى هذا الشخص له امل بالحياة لان الشيوعية لديها برنامج او عملية اصلاح rehabilitation له ولامثاله .

والشيوعية تتجاوب مع حاجيات العالم الثالث من ناحية اخرى مهمة للغاية فهي تعطي تفسيرا ايدولوجيا قويا لحالتهم السيئة او حالتهم المتخلفة فهي تلوم الاستعمار والاغنياء من ابناء البلاد . وحيث ان الفقر كثير في العالم الثالث فان الفكرة تظهر جميلة ومعقولة للكادحين . والعالم الثالث لدية الخبرة في الاستعمار الغربي وليس لديه الخبرة في الاستعمار الروسي ،وهو ما زال يشعر بخطر الاستعمار الغربي ، ولديه الحاجة النفسية لفهم اسبابه ومعرفة طريقة مقاومته وحماية نفسه منه . والشيوعية تعطي تفسيرا ماديا لظاهرة الاستعمار وهو تفسير مستمد من نظرية الاستغلال الرأسمالي . فهو تفسير واقعي يتطابق مع خبرة العالم الثالث الذي لا يتذكر الامبراطوريات التي سبقت الاستعمار الاوروبي ، فعدوه هو العالم الغربي . وماركس يتكلم عن الرأسمالية الصناعية المتقدمة وهذا

Digitized by Birzeit University Library

معناه العالم الغربي ، وتفسير ماركس يجذب الشخص المثقف الذي يريد تعليلا ليظهر بالعلمانية ، والشخص البسيط الذي يريد تعليلا قصيرا وبسيطا . فالمثقف يستطيع ان يتكلم عن الاحتكار والاسواق على اساس علم الاقتصاد ، والانسان البسيط يستطيع أن يفسر الاستعمار بقوله انه استغلال الرأسمالي للبلاد او الاسواق في العالم الثالث ، لا اكثر ولا اقل . وعلى العموم فان من مميزات الشيوعية انها سهلة في التحول الى شعارات . فمثلا ، كلمة "برجوازي" اصبحت شعارا لاهانة الاشخاص ولكنها بنفس الوقت لها معنى كبير وتقع في اطارات ليست سخيفة من الوجهة الفكرية .

ويقول البروفسور ارمسترنج John A. Armstrong أن النظرية الامبريالية الشيوعية هي من صنع لينين خاصة فهو اكثر اهتماما بها وتعبيرا عنها من ماركس نفسه . ويقول ان لينين لم يكتب عن الاستعمار للعالم الثالث او المتخلف فهو لم يقصده ولم يهدف لاسترضائه ولكن مع الوقت وجد الشيوعيون ان نظرية لينين الامبرياليه تلقى استجابة في العالم المتخلف اكثر مما تلقى في العالم الغربي ولينين طور النظرية الامبريالية استجابة لسؤال ولحل مشكلة معينة في الفكر الماركسي ؛ فهو أراد ان يفسر او يعطي السبب لتحسن وضع العامل المادي في العالم الرأسمالي رغم قول ماركس ان هذا الوضع سيتدهور ويسوء مع الوقت . لذلك قال لينين ان الاحتكار الرأسمالي خرج في عملياته الاستغلالية الى البلاد المتخلفة الضعيفة لاستغلال اسواقها وهذا الخروج جعل تحسن وضع العامل في البلاد الرأسمالية المتقدمة ممكنا ، أي أن الرأسمالي في البلاد المتقدمة استطاع "أن يصدر الاستغلال" الى بلاد اجنبية وأن "يرشو" العامل في بلاده ذاتها بعد أن فشل في زيادة ربحه النسبي وجمع رأس المال عن طريق احتكار السوق القومية (١٢) .

Digitized by Birzeit University Library

وأخيرا بالنسبة للعناصر الايدولوجية التي لها علاقة بالتطور ، يجب أن لا ننسى ادعاء الماركسية بأن عقيدتها علمانية . وهذا معناه أن حقيقتها مطلقة وغير نسبية ونظرتها للحقيقة هي من عناصرها السلطوية . وهي بذلك تشبه الاديان فكلمة الله هي مطلقة وكذلك كلمة ماركس الذي نستطيع أن نشبهه بالانبياء . وفي الحقيقة انه بالنسبة للشيوعيين اكبر من الانبياء ، لأن للانبياء سلطة عليا هي سلطة الله أما ماركس فلا يوجد بالنسبة لاتباعه سلطة أعلى منه . والمهم ان علمانية الماركسية لها علاقة بتخلف العالم الثالث غير العلماني ، فالمجتمع المتخلف يحتاج الى الايمان بالعلم والعلمانية . والماركسية تجعل من العلم والعلمانية مواد مهمة في عقيدتها لا يمكن لها دونها أن تدعي الشرعية الفكرية . ونحن نعلم أن التطور الغربي لم يكن ليحدث دون العلم أي دون العقلية العلمانية والنظرة العلمانية . وفي الحقيقة أن الماركسية هي من ضمن علمانية الغرب وبدون هذه العلمانية الغربية ما كان ماركس ليهتم بتفسير الوجود الانساني التطوري . ولذلك فماركس لم يكن أول من تكلم عن اهمية العلم والعلمانية ولكنه أول من وضعهما في اطار عقائدي منظم . وبالنسبة للعالم الثالث ، فهل هناك اقوى من عقيدة تؤمن بالعلم لمن يفتقر الى العلم ويحتاج اليه من أجل تطوره الحضاري ؟

العقيدة الشيوعية لها علاقة بالتطور من نواح اخرى مهمة للغاية تقع خارج الاطار الآيدولوجي ،فالتطور هو اكثر من نظرية ! فهو عملية بالاضافة الى كونه نظرية اذ أن الآيدولوجية وحدها لا تكفي لاحداث التطور الشامل ، لان التطور يحتاج الى تنظيم فعال وهذا يأتي عن طريق التنظيم الشيوعي الحزبي . ووظيفة الحزب ، من وجهة التطور فقط هي حشد الطاقات وتحريك الجماهير والقوى معها نحو اهداف جديدة .

Digitized by Birzeit University Library

ومن الخطأ أن ننظر الى الاحزاب الشيوعية وكأنها تشكيلات سياسية فقط ، فالسياسة بالنسبة للشيوعي هي وسيلة لغاية معينة . ورغم أن الاستيلاء على السلطة هو امر مهم للاحزاب الشيوعية في جميع الدول ، الا أن هذه السلطة هي وسيلة للوصول لاهداف تطورية ، منها احداث التغيير الشامل في الحياة . والشيوعية تعتبر التطور الاقتصادي الأساس في التطور الشامل .

لذلك نجد ان من وظائف العضو الشيوعي تحريك الانتاج، وهذا النشاط يكون على المستوى الاولي primary في التنظيم الشيوعي الحزبي . ولهذا السبب نجد أن الحزب الشيوعي السوفييتي يعتبر أن الوحدة الاساسية في التنظيم الحزبي هي مكان العمل ، في المصانع ، وفي المزارع ، وفي المكاتب . والتطور الاقتصادي في الدولة الشيوعية يصحبه التطبيع socialization وهو عملية نشر العقيدة وترسيخها في النفوس . وهدفها طبعا تغيير الاطباع والنظرات التقليدية واستبدالها بنظرة جديدة منتجة . ولكن هناك على المستوى الحزبي عملية ثانية مهمة وهي تتعلق بتثبيت السلطة السياسية للحزب الشيوعي وضبط المواطنين بطريقة تكفل تعبئتهم mobilization نحو اهداف النظام التطورية . العمليتان التثقيفية والسياسية مرتبطتان في عملية التنسيق والتكامل اذ ان التطور الكبير يتطلب التنسيق والتكامل على جميع المستويات وفي جميع المراحل كما سبق ان ذكرنا . فالحزب الشيوعي يراقب هذا التطور ويمنع الانفجارات التي تحصل من وجود الفجوات والثغرات فيه قبل حدوثها . وطبعا من الاساليب التي يستعملها ، بالاضافة الي التطبيع ، استعمال القوة وسلطة الدولة البوليسية . وعند تسلم الحكم تغير الشيوعية المؤسسات فهي لا تعمل ضمن المؤسسات القديمة ابدا والتغيير

Digitized by Birzeit University Library

في المؤسسات يكون كليا . المؤسسات السياسية تتبع النظام المركزي الذي يعرفه الشيوعيون بالنظام المركزي الديموقراطي. هذا النظام ليس له علاقة بالديموقراطية ولكنه ينطوي على عمليتين واحدة من تحت الى فوق والاخرى من فوق الى تحت . وتهدف الاولى الى استيعاب المعلومات وتقييم الاوضاع الشعبية وبهذه الطريقة تعرف القيادة الحزبية ، قيادة الدولة ، مشاكل الناس وآراءهم وحالتهم عامة . والاستيعاب مهم جدا فأي نظام لا يستوعب الكفاءات والمؤهلات والآراء النافعة لا يكون نظاما تطوريا . وليس ضروريا ان يكون الاستيعاب عن الطريقة الديموقراطية والكثير من الناس ، خصوصا المسؤولين العرب ، يخلطون بين الاستيعاب والديموقراطية فتراهم لا يستوعبون خوفا من الديموقراطية ولذلك نجد المؤسسات العربية فقيرة لانها لا تستغل الكفاءات الى اقصى الحدود . الاستيعاب شيء والديموقراطية شيء . الاستيعاب معناه معرفة الكفاءات والمؤهلات واستغلالها وهذا ممكن في ظل نظام سلطوي او توتاليتاري او ديموقراطي اما الديموقراطية فلها علاقة بالموافقة ،موافقة الناس وانقيادهم للمسؤولين . فاصحاب العمل اليابانيون ليسوا ديموقراطيين ولكنهم يصغون للآراء ويستغلون الكفاءات ويتقبلون المعلومات ولا يقررون الأمور الا بعد جمع المعلومات واستشارة اصحاب الكفاءات واصحاب الاختصاص . طبعا نحن نتكلم عن المفاهيم اليابانية عن يابانيين لا يسيرون بالمقاييس الثقافية . والشيوعيون التطوريون يفهمون معنى الاستيعاب ولكنهم لا يفهمون معنى الديموقراطية . أما العملية الثانية ، من فوق لتحت ، فهي لاصدار الاوامر والسيطرة على الناس .

والتطور يحتاج الى نخبة تكون هي نفسها متطورة وتعرف كيف تقود الناس للتطور . ولينين هو الذي وضع فكرة

Digitized by Birzeit University Library

النخبة في الطريقة الشيوعية . وعلماء التطور والتحديث يعترفون بأهمية النخبة او ال elite وهناك كتابات كثيرة عن الدور الذي تلعبه النخبة في التطور . ولذلك فاننا نجد في اللينينية تفهما عميقا لمعنى النخبة الثوري؟ والتطوري . ان العضوية في الحزب الشيوعي ليست من حق المواطن بل هي من حق الحزب والقيادة الحزبية ، فهي أي القيادة تختار العضو عن طريق التنقية الدقيقة . والحزب يختار "احسن" الناس واخيرهم . وفي روسيا لا تزيد نسبة العضوية عن ٧٠٪ من السكان (في عام ١٩٧٦ كانت ٦٫٠٨ بالمئة) وهذا معناه أن الحزب هو النخبة . وحسب النظرية الماركسية فالحزب يمثل الطبقة البروليتارية ولكن ماركس تصور التنظيم البروليتاري ديموقراطيا فقد وضع البروليتارية بمكان الدكتاتور عندما وضع نظام "دكتاتورية البروليتارية" ولكنه جعل البروليتارية ديموقراطية في نظامها الداخلي . فدكتاتورية البروليتارية هي على الاخرين غير البروليتاريين ، ولكن ضمن البروليتارية توجد ديموقراطية ، حسب التفكير الماركسي . أما لينين ، رجل الدولة ، والعبقري في الاستراتيجية ، فلم يجد لهذه الديموقراطية منفعة فعلية وفي الحقيقة رآها خطرة وغير واقعية . لذلك رأي أن الثورات تحتاج الى ثوريين مهنيين ، والتطور بالنسبة له يحتاج الى نخبة ؛ لذلك فقد انشأ في الحزب الشيوعي نخبة قيادية فصارت في النظام الشيوعي نخبة داخل نخبة ،بمعنى أن الحزب هو نخبة وداخل الحزب توجد نخبة ثانية وهي القيادة المؤهلة للحكم وتسير المجتمع في الطريقة التطورية . والنخبة في الحزب الشيوعي هي تسلطية لأن النظرية التوتاليتارية ككل النظريات السلطوية تؤمن بوجود المؤهلين للقيادة (ولكل شيء آخر) ، وهؤلاء المؤهلون هم كذلك بحكم الطبيعة وبحكم المعرفة او بحكم الخبرة او حسب

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية
Digitized by Birzeit University Library

مقاييس لا علاقة لها بالأختيار او بارادة الناس . ونخبة لينين هي مهنية professional لا تخضع لارادة الشعب ولا حتى لارادة الاعضاء ، لأن الانتخاب في الحزب ليس حرا اذ لا ينزل الانتخابات في الاتحاد السوفييتي الا عضو واحد. ويدعي الحزب بأن عملية غربلة "ديموقراطية" تسبق الترشيح من الوجهة الديموقراطية ، ولكن هذا الادعاء غير صحيح . أما من وجهة التطور العلماني فالنخبة المهنية لا بأس بها ولكن اذا كان انتقاؤها خطأ ، واحتمال ذلك كبير ، فالمشاكل تكون كثيرة والمأساة تكون كبيرة . المهم أن النخبة الشيوعية تكون النخبة المثالية ، من الوجهة العقائدية ، أي انها التجسم الانساني للعقيدة ، ومعنى هذا انها اول عينة للتطبيق العقائدي ، او اول دفعة متطورة بالمعنى الشيوعي . النخبة هي التي تغيرت عن الناس وصارت عندها الارادة لتغيير الناس . وهذا ، من الوجهة التطورية ،مهم للغاية لأن التطور يعتمد على المتطور وقدرته على التطور والتطوير .

وعادة تختلف النخبة الشيوعية عن غيرها في العالم المتخلف بأنها ترى التطور مجتمعا وكليا ، وهذا لأنها ترى البروليتارية كأكثرية في الشعب ، فالتطور الشيوعي جماهيري بهذا المعنى . وحيث أنها ترى الاكثرية كادحة مستغلة ومستعبدة فانا نجد نظرتها للتطور تنطوي على مفهوم قوي للمسؤولية العامة رغم أن هذا المفهوم يصحبه الحقد على الاقلية الرأسمالية وانعدام النظرة الانسانية نحوها . والشعور الشيوعي بالمسؤولية ذو نوعية قوية ،فهو يتعدى شعور الاديان نحو الفقراء وهو شعور ممزوج بالحقد نحو من سبب للكادحين كدحهم وللفقراء فقرهم ، فبالنسبة للنخبة الشيوعية تحطيم البرجوازية الرأسمالية واجب تاريخي لا مناص منه . والطبقة الكادحة هي ليست فقط طبقة فقيرة

Digitized by Birzeit University Library

اذ هي طبقة منتجة لانها عاملة ولذلك فان لها الحق وعندها الاستحقاق . واستعادة حقها هو واجب وليس ، كما تعتبره الاديان ، عملا من اعمال الخير . هذه النظرة "الجماهيرية" للتطور تشبه "المسؤولية العامة" في الفكر الغربي ، وهذه الفكرة نجدها ضعيفة في النظرة المتخلفة اذ ان التطور في العالم المتخلف هو تطور طبقة وتطور جغرافية محدودة .

والشيوعيون يعتبرون الثروات كلها ، الطبيعية والانسانية ، ملكا عاما ، رغم سلطوية النظام الشيوعي وعدم ديموقراطيته . وهذا الاعتبار منهم من الناحية النفسية رغم خطئه الحسابي والواقعي . فالشيوعي يستغل كل الامكانيات لانها ملكه باسم الاكثرية الكادحة . لذلك فهو عندما يتسلم الحكم يضع يده ، باسم الشعب او الجماهير، على جميع الثروات الانسانية والطبيعية وذلك عن طريق المصادرة . وكما قلنا ، من الناحية الاقتصادية فالمصادرة معناها الحصول على رأس المال دون دفع ثمنه أي دون التعويض . والشيوعيون لا يدفعون التعويض لانهم لا يعترفون بالحق الخاص او الملكية الخاصة . فاذا كان الحق الخاص هو حق مسلوب فلماذا التعويض . ومعنى ذلك ، كما قلنا ، الحصول على رأس مال كبير يستعمله الشيوعيون في عملية التطوير . وهم الوحيدون في العالم المتخلف الذين لديهم ادراك لهذه المنفعة الاقتصادية التطورية ولو أنها من ناحية القيم التقليدية غير اخلاقية . وهذا النوع من رأس المال لا يوجد في العالم الثالث على مستوى كبير ولم يوجد في تطور البلاد غير الشيوعية الا في العالم "الجديد" اي الذي كان جديدا ، في بلاد كأمريكا واستراليا . ففي امريكا استولى الاوروبي على الاراضي دون تعويض السكان الاصليين عنها ، أو بدفع ثمن بخس لها او بالاستيلاء عليها بالقوة (كما حدث في الاراضي التي كانت تحت سيطرة المكسيك) . وهذا ما

Digitized by Birzeit University Library

حدث في بعض المناطق الافريقية (مثل جنوب افريقيا وروديسيا) وفي اسرائيل حيث استولى الصهاينة على القسم الأكبر من البلاد دون تعويض اهلها الاصليين وعن طريق القوة ايضا .

ولكي نفهم التطور الشيوعي على حقيقته ، علينا أن ننظر اليه كحرب شعواء تعلن ضد النظام القائم بجوانبه السياسية والاجتماعية . وككل حرب تسبقها التعبئة واعلان حالة الطوارئ العسكرية وتوقف الحياة المدنية بجميع مؤسساتها السياسية والقضائية والشرعية . ويسير الحزب الشيوعي كجيش بجنراله وضباطه وجنوده ، ويزحف نحو اهدافه بالقوة وبدون رحمة فيحطم كل مقاومة تتصدى له ، ويتطلب من جنوده الطاعة العمياء ويطبق عليهم القانون العسكري وقضاء شبيها بالقضاء العسكري وحكما شبيها بالحكم العسكري . والموت والعذاب والخراب عنده هي من نتائج المعركة الضرورية للنصر النهائي الذي لا غنى عنه لتحقيق النظام الجديد والحياة الجديدة .

Digitized by Birzeit University Library

(١) William Ebenstein, Today's Isms (Englewood Cliffs, N.J.: Prentice - Hall, Inc., 1958), p. 91.

(٢) William M. McCord, The Springtime of Freedom London : Oxford University Press Inc., 1965. Also, by the same author "The Case for Pluralism" in Frank Tachau, ed., The Developing Nations (New York : Dodd, Mead and Co., 1972) p. 141.

(٣) اعلا من كتيب نشرته

The Tanganyika Standard, Dar-es-Salam.

وترجمت المقالة في

Paul Sigmund, ed., The ideologies of The Developing Nations (N.Y, : Frederick A. Praeger Inc., 1968)

ونحن قرأناها في

Frank Tachau, The Developing Nations, pp. 173-180.

(٤) T.W. Adorno and Others, The Authoritarian Personality (New York : Harper, 1950).

Digitized by Birzeit University Library

(٥) I.R. Sina:, The Challenge of Modernization (New York : W.W.Norton & Company, 1964).

William McCord, "The Case For Pluralism".

(٦) مصدر سابق .

(٧) Adam Ulam, The Unfinished Revolution (New York : Random House, 1960), p. 264.

(٨) Robert C. Tucker, The Marxian Revolutionary Idea (London : George Allen & Unwin Ltd., 1969), pp. 112-114.

(٩) هذه المقارنة يبحثها روبرت تكر في المصدر السابق ، صفحات ٩٣ - ١٠٢ .

(١٠) The Communist Manifesto, in Marx and Englels, Selected Words, I, p. 38.

(١١) John H. Kautsky, Communism and The Politics of Development (New York : John Wiley and Sons, 1968).

(١٢) John A. Armstrong, Ideology, Politics, and Government in The Soviet Union (New York : Praeger, 1967), p. 33.

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الخامس

Digitized by Birzeit University Library

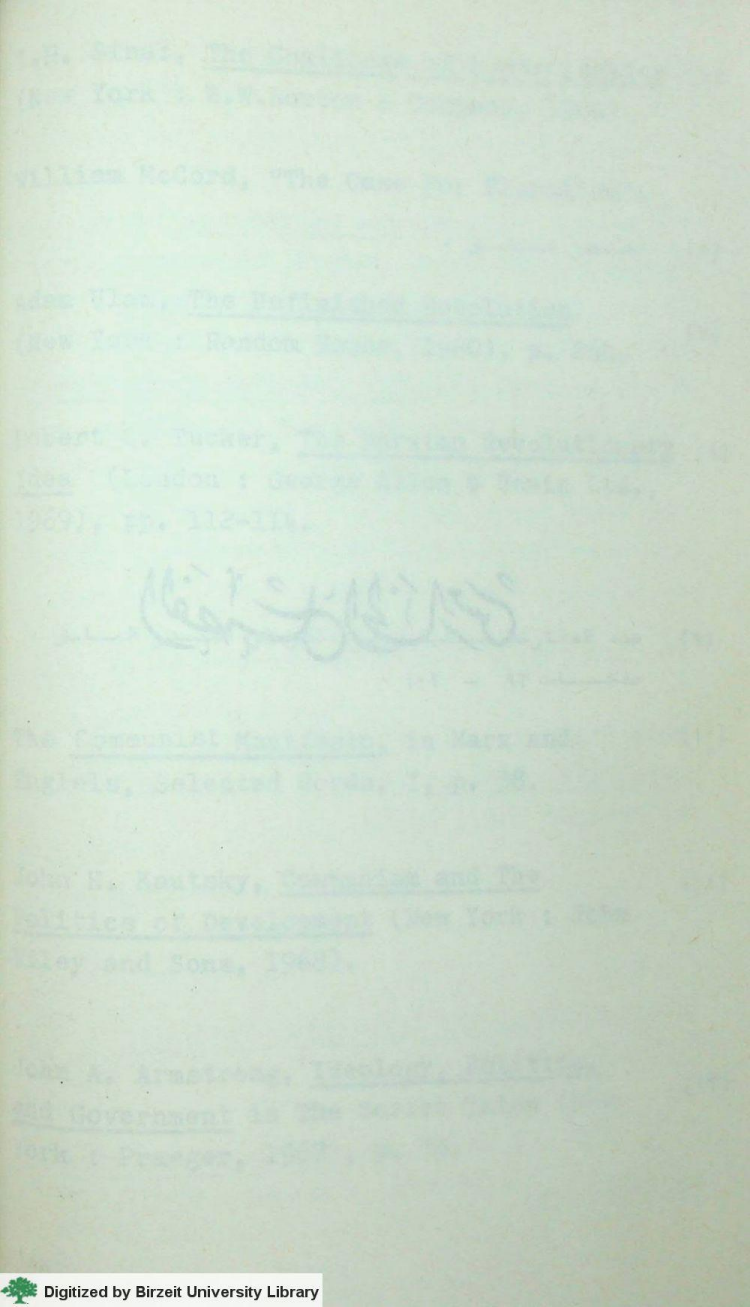

القومية العربية والتطور

من عناصر القومية الأساسية هوية الناس الذين يدعون أو يعارضون قومية معينة . والجواب على السؤال " من نحن؟" مهم للغاية ؛ فالتطور العصري صعب ان لم تعرف الجماعة هويتها أو ان لم تتفق عليها . والجماعة هي كالشخص ان لم يعرف هويته لا يستطيع بناء حياته . مثل هذا الشخص يكون غير متزن عاطفيا ويكون بحاجة الى معالجة نفسية . والجماعة التي لا تعرف هويتها القومية هي عادة في مرحلة تخلف وتوتر سياسي والجماعات المتقدمة العصرية يندر أن تكون جاهلة لهويتها . لذلك فأزمات الهوية identity crises هي من صفات التخلف ، ومن اسباب التوتر الداخلي .

معرفة الهوية أمر قيم جدا للتطور لأن التطوير له اهداف مجتمعية فاذا كان هدفه رفع المستوى المعاشي فالسؤال يكون مستوى معاش من ؟ واذا كانت هنالك منافع منه فلمن هذه المنافع ؟ واذا احتاج التطوير الى مواد خام وطاقات بشرية فلمن هذه المواد والطاقات ؟ في عصرنا هذا ، تحدد الهوية القومية التطور من وجهة النوع والاهداف .

وفي عصرنا هذا لا نجد العالم العربي يعاني من مشكلة الهوية . ولأسباب عديدة سنذكرها فيما بعد فان الشعور القومي فيه غير قوي . ان الهدف لكل أمة هو أن يكون لها دولة رغم أن الكثير من الأمم ليس لها دولة قومية . أما في العالم العربي فلا توجد الأمة - الدولة ، ولأن شعور الأمة العربية القومي لم يكتمل فانها أمة متخلفة وغير عصرية . واذا نظرنا الى العالم العربي من وجهة

Digitized by Birzeit University Library

الأمة - الدولة فانا سنجد أن الأمة هي من صنع الامبراطورية العربية التاريخية أما كياناتها السياسية فهي من صنع الكولونيالية الأوروبية . فبينما نجد الأمة العربية نتيجة تطور تاريخي عظيم نجد أن كياناتها السياسية هي تطور عربي يعكس الضعف والتخلف . فهذه "الدول" (الكيانات السياسية) لم تكن موجودة قبل الحرب العالمية الأولى واكثرها كسوريا ولبنان والأردن وليبيا والجزائر لم يكن موجودا قبل الحرب العالمية الثانية ، بمعنى أنها لم تكن مستقلة ولم يكن لها حدود سياسية معترف بها دوليا . وهذه الدويلات خلقها الاستعمار الانجليزي والاستعمار الفرنسي (أو هيئة الأمم في حال ليبيا مثلا).

في البداية ، وحتى اليوم ، لم يكن لهذه الدويلات شخصيات قومية أبدا ولكن مع الوقت وتدريجيا صار لها اقليمية قوية تحتوي بعض العناصر القومية . والدليل على أن هذه الاقليمية ما زالت قوية هو استمرارها لهذه المدة الطويلة وفشل جميع المحاولات لتحطيمها . خذ مثلا عبد الناصر فقد كان اكثر شخصية محبوبة في العالم العربي منذ استقلال دويلاته المتعدده ولكنه فشل في خلق وحدة قومية عربية . وربما اختلفنا على أسباب فشله فلام بعضنا الاستعمار ولام البعض الآخر الطبقة الحاكمة ولام آخرون عبد الناصر نفسه ،ولكن الحقيقة تظل ملتزمة بالنتيجة وهي أن هذه الدويلات ما زالت موجودة . ومهما كانت أسباب استمرار وجودها ، سواء كانت خارجية أو داخلية أو هذين الصنفين مجتمعين ، فان بقاءها يدل على ضعف العناصر الوحدوية وقوة الأقليميه في العالم العربي . وهذا معناه أن الكولونيالية الأوروبية نجحت في ترسيخ شخصيات جديدة داخل القومية العربية ، حتى يومنا هذا على الأقل . أما فيما يختص بالمستقبل البعيد فالسؤال هو هل ستصير الأقليمية قومية ؟

Digitized by Birzeit University Library

ان الأمة العربية هي وليدة الامبراطورية العربية الاسلامية ، وكما سبق وقلنا كانت هذه الامبراطورية انجح الامبراطوريات التاريخية اذ نجحت باعطاء معظم سكانها أو شعوبها هوية حكامها . فاليوم سكان المنطقة الواقعة بين الخليج العربي والمحيط الاطلسي يعتبرون انفسهم عربا (أومستعربين) ، باستثناء أقليات معروفة لا تعترف بقوميتها العربية . ورغم أن عروبة هؤلاء السكان لم تتبلور في قومية واحدة الا في مراحل متأخرة الا أن المواد الخام أو العناصر الأساسية لهذه القومية كانت موجودة من قبل وهي مرتبطة بالامبراطورية العربية التاريخية . ومن العوامل التي ساعدت على وجود هذه العناصر عوامل كانت موجودة قبل الأمبراطورية وأهمها الهجرات العربية التاريخية التي خرجت من الجزيرة العربية الى المناطق المجاورة . ومن العوامل التي ساعدت القومية العربية بعد الأمبراطورية هو العامل الجغرافي ، أي وجود العناصر الأساسية لهذه القومية في قاعدة أرضية غير متقطعة . ان هدف القومية العربية الكبير هو ايجاد دولة قومية لتصير الأمه دوله أي هو الوصول الى حالة وجودية سياسية نستطيع تسميتها أمة ـ دولة . وحيث أن هذا الهدف هو مستقبلي فهو لذلك تطوري . ومعنى هذا أن التطور العصري هو لصالح القومية العربية لا لصالح الأقليمية . فاذا نجح التطور العصري في العالم العربي نجحت القومية العربية بالوصول الى هدفها السياسي وهو خلق دولة قومية . وحيث أن الدولة هي التنظيم السياسي للأمة فلا يمكن للأمة أن تنجح دون دولتها القومية . ومن مشاكل الأمة العربيه عدم وجود الدولة القوميه لأن الدولة هي التي تساعد على التطور العصري . وحسب الدراسات العلمية نجد أنه في العالم الحاضر وفي معظم الأحوال ، تسبق الدولة الأمة وليس العكس (١) . وكما قلنا فان

Digitized by Birzeit University Library

المواد الخام للقومية العربية أو اكثرها على الأقل كانت نتيجة الدولة العربية التاريخية التي أوجدتها . ولولا هذه الدولة التاريخية لبقيت العناصر القومية الأساسية موجودة في الجزيرة العربية وليس خارجها (الا في بعض العناصر المحدودة). واليوم نجد أن الأمة العربية بحاجة الى خلق دولة قومية. واذا نجحت الأقليمية في خلق قوميات صغيرة فهذا معناه استمرار التخلف العربي . لذلك نحن نربط نجاح التطور العصري بنجاح القومية العربية ونجاح الاقليمية العربية باستمرار التخلف . وهذه الفكرة ستثبت في اذهاننا حال انتهائنا من هذا البحث .

ان ادراك العرب للأمة أقوى بكثير من ادراكهم للدولة (القومية) في نطاق معادلة "الأمة الدولة" أي ان الطرف الأول من المعادلة أقوى عندهم من الطرف الثاني . ويقول البروفسور مايرون وينر Myron Weiner أن ايجاد الوعي القومي يكون أسهل اذا وجدت الدولة القومية أولا أي اذا سبقت الدولة الأمة (٢). الدولة هي جهاز قومي يمكن استعماله لتقوية الأدراك والشعور القوميين وتثبيت السلطة القومية على أرضها وتقوية ارتباط الجماعة بأرضها . أما اذا كانت الأمة ليس لها دولة كالأمة العربية اليوم فانشاء الدولة القومية يكون صعبا للغاية .

الأمة موجودة في الوضع العربي الراهن أما الدولة فغير موجودة . ايجاد الدولة صعب جدا ولكنه غير مستحيل؛ لحسن الحظ لا يوجد في العالم العربي ممن لا يعترف بالقومية العربية الا القليل . وعلى الصعيد السياسي لا توجد قوميات مناهضة للقومية العربية الا في لبنان ومصر وبين بعض الاقليات كالأكراد مثلا . وحتى رؤساء الدويلات العربية الذين تدعمهم الأقليمية يعترفون بأن بلادهم جزء من الأمة العربية.

Digitized by Birzeit University Library

ولا نجد بينهم أحدا يستعمل كلمة "أمة" لتمييز الاردني أو السوري أو المراكشي أو الليبي . فهم يستعملون كلمة "شعب" أو "شعوب" لهذا التمييز . لذلك نجد سببا آخر لقولنا إن المستقبل التطوري هو للقومية العربية لا للأقليمية التي رغم قوتها الحاضرة لا تتطور على اساس قومي انفصالي الا في اطار محدود . وطبعا نحن نعلم أن رؤساء الدويلات العربية يطلبون الولاء لكياناتهم السياسية ويرغبون باستمرار هذه الكيانات ونعلم أن هذا يتناقض مع اعلانهم لعروبتهم ولكن المهم أن كياناتهم ليست لها قواعد قومية ولذلك فليس لها مستقبل قومي فاستمرارها سيكون استمرار كيانات سياسيه واستمرار اقليمية ، لا اكثر ولا أقل . ولو كان العكس صحيحا ، أي لو طورت الكيانات السياسية شعورا قوميا خاصا بها (اردنية أو عراقيه) لكان الخطر على القومية العربية كبيرا للغاية .

ان انشاء الدولة القومية لن يكون عن طريق هذه الكيانات السياسية (الا تحت ظروف خاصة سنبحثها) لأن كل كيان عربي له جماعات تدعمه وترى مصلحتها في وجوده واستمراره ولن تقبل هذه الجماعات بزواله مهما كانت درجة ايمانها بالقومية العربية . ولا شك أن هذا من الاسباب القوية لقولنا إنه اذا كانت الأمة تسبق الدولة فانشاء القومية يكون صعبا للغاية لأن أجهزة الكيانات السياسية العربية ستحاربه بغض النظر عن نوعيتها ، ان كانت راديكاليه أو محافظة ، ملكية أو جمهورية ، او غير أيدولوجية .

وربما تساءل الناس كما يتساءل الغربيون لماذا يتقاتل العرب ويتشاجرون اذا كانوا كلهم أو اكثرهم يعترفون بالقومية العربية . والجواب هو أن الأقرباء

Digitized by Birzeit University Library

يتقاتلون ويتشاجرون اكثر من الغرباء . فعلاقات سوريا مع الاردن القريب هي عادة أكثر توترا من علاقاتها مع اليابان الغريب. فاذا كان أفراد العائلة الممتدة يتقاتلون على الأرض فلماذا لا تتقاتل هذه الكيانات السياسية على السيادة على الأرض . والقرابة التي يكون من نتائجها الشجار والخصام هي القرابة التي لا تعترف باستقلال أفرادها الذاتي . واعتراف العرب بالقومية معناه أن القرابة العربية توجد في اطار أزدواجية . وهذا معناه أن الواحد هو عشرة او عشرون وهذا من وجهة المنطق ومن وجهة الواقع مستحيل . فاما أن يكون واحدا أو عشرين . واذا وجدوا معا ، الواحد والعشرون ، فوجودهم يجب أن يكون متوترا اي أن علاقاتهم تكون متوتره الى أن ينتصر الواحد على العشرين أو العشرون على الواحد . فالكيانات العربيه لها حياة منفصلة عن الأمة العربية وهي كالانسان عندما يلد يطلب الحياة وعندما يكبر يدافع عنها ويرفض الموت . والقومية العربية هي كالأم الحامل والطفل الذي تتوقعه هذه الأم هو الدولة القومية . وهي في الوقت الحاضر تمر في مرحلة المخاض دون أن تلد لأن ولادتها تتطلب موت الكيانات العربية السياسية التي تصر على الحياة ، اي أن الولادة لا تكون الا عن طريقة العملية الجراحية المسماه بالقيصرية Caesarean من الناحية النظرية عندما تسبق الأمة الدولة" القومية" فتكوين "أمة ـ دولة" غير ممكن الا بثورة شاملة . وهذه الثورة يجب أن تستمر في اكثر من كيان واحد لأنها اذا نجحت في كيان واحد فقط فستحول نفسها الى حكومة محلية أي انها تصبح الكيان نفسه بقيادة جديده وربما بنظرة جديدة . وهذه النظرة تكون ثورية وقومية ولكنها مع الوقت تصبح مثل غيرها محافظة ،تعكس الوضع الراهن السياسي اى the political status quo الحكومة الجديدة تشترط وحدة قومية تحت قيادتها وحسب ارادتها . ومعنى ذلك مزيد من التطاحن والتشاجر ، وصراع

Digitized by Birzeit University Library

يشبه الصراع الأول الذي سبق الثورة .

ولكن ، من الناحية النظرية أيضا ، هناك طريقة ثانية للوصول للوحدة القومية السياسية وهي ما اسميه "طريقة الأبتلاع" حسب هذه الطريقة يبتلع كيان سياسي معين الكيان الآخر ويتوسع بهذه الطريقة الى أن تتم الوحدة وهذا طبعا لا يكون الا بالقوة . وصعوبة هذه الطريقة تكمن في طبيعة الوضع الدولي وتدخل الاطراف الخارجية . وهنا نجد ظاهرة الاستعمار قوية جدا خصوصا اذا كانت الدولة المهددة لها حلفاء أقوياء . وفي الحقيقة أن الدول العظمى لا تحب الاتحادات عن هذه الطريقة والسبب هو أنها تريد حليفها أن يبقى ضعيفا بغض النظر عما اذا كان هذا الحليف هو البالع أو المبلوع (الا اذا كان البالع تحت سيطرتها المباشرة) . ومن الصعب جدا أن تتم الوحدة عن هذه الطريقة بسبب احتمال تدخل الدول العظمى واحتمال تطور صراع الوحدة الى أن يكون جزءا من الصراع الدولي .

وهناك طريقة ثالثة وهي الأتحاد بسبب التهديد الخارجي لأحد الكيانات أو لعدد منها . وهذا الاتحاد محتمل اذا كان التهديد فعليا وكبيرا بحيث يشعر المهددون بالزوال اذا لم يتحدوا .

من ناحية الأوضاع العربية ، نجد أن الوحدة عن طريقة الثورة الشاملة غير واردة ، فلم تحدث ثورة شعبية شاملة ضد الكيانات العربيه حتى الآن . فالثورات التي حدثت في الاقطار العربية منذ الحرب العالمية الثانية لا يمكن اعتبارها ثورات قومية عربية رغم ادعاء قياداتها بذلك . هناك في التاريخ العصري العربي ثورة

Digitized by Birzeit University Library

واحدة كان لها أمل في أن تكون ثورة وحدة ، وهي ثورة ١٩١٦ . ورغم أن هذه الثورة لم تكن شعبية بالمعنى الصحيح الا أن هدفها كان استقلال الأراضي العربية (المنطقة الاسيوية) قبل أن تتجزأ هذه المناطق وتصبح وحدات سياسية تحت سيطرة فرنسا وبريطانيا . ولكن المحاولة فشلت لانها استنفدت قواها القتالية ضد الحكم التركي ولأن المستعمر الأوروبي القوي منعها واستولى عليها .

أما الوحدة العربية عن طريق الابتلاع فقد كانت هناك محاولات فاشلة في هذا الاتجاه ؛ فعندما حاول عبد الكريم قاسم ابتلاع الكويت منعته بريطانيا ، وعندما حاولت سوريا مساعدة المنظمات ضد الكيان الأردني هددت اميركا واسرائيل بالتدخل وانسحبت سوريا من المعركة . ولكن هناك امكانية قوية لسوريا لابتلاع لبنان . وعملية الابتلاع ممكنة في وضع دولي مناسب يعزل التدخل الخارجي أو يتغلب عليه وفي وضع داخلي في البلد المبتلع يكون فيه النظام القائم ضعيفا . ولكن هذه الاحتمالات نادرة جدا .

وأما الوحدة عن طريق التهديد الخارجي فهي ممكنة وقد جربت مرتين في العالم العربي . الأولى في عام ١٩٥٨ عندما اتحدت سوريا مع مصر في ما سمي "الجمهورية العربية المتحدة" وكان قد سبق هذه الوحدة تهديد داخلي للكيان السوري من قبل الشيوعيين السوريين مما سبب تهديدا خارجيا من قبل تركيا وامريكا [٣]. والوحدة كانت رد فعل للتهديدين . وطبعا كان مما ساعد الوحدة وجود حكام في سوريا يؤمنون بالقومية العربية أي البعثيين ، وكما نعلم فشلت هذه الوحدة بعد ثلاث سنين ورغم كون اسباب فشلها كثيرة ومعقدة ، لكننا نرى أن سبب الفشل هو ضعف

Digitized by Birzeit University Library

القومية العربيه في مصر مما جعل حكام مصر في سوريا يسلكون وكأنهم كولونياليون .

والتجربة الثانية كانت في نفس السنة عندما اتحد العراق مع الأردن . وهذا الاتحاد كان رد فعل للاتحاد بين مصر وسوريا ومن اسباب فشله انه كان كذلك. ومن الممكن أن نعتبر هذا الاتحاد بأنه رد فعل لتهديد خارجي (بالنسبة للكيانين ولو أن التهديد كان عربيا) . وكان هذا الاتحاد ، كالذي سبقه ، شبيها بالزواج العربي والانفصال شبيها بالطلاق . والاتحادان هما كذلك لأنهما عربيان فالعربي عندما يقع في الحب يخسر عقله وتوازنه واذا كره طلق بكراهية متطرفة. والاتحادات العربية السياسية هي شبيهة بالزواج تكون بين رئيسي دولتين والفسخ هو طلاق بين الاثنين . وبالطبع فان الاتحاد الدائم يجب أن يكون بين شعبين لا بين شخصين ويجب أن يكون اكثر من ذلك كما سنبين في هذا الباب .

ولكن هناك سؤال مهم : هل من الممكن حصول الاتحادات العربية عن الطريقة الديموقراطية؟ والجواب على هذا السؤال يجب أن يكون بالنفي لأن الثقافة العربية ليست ديموقراطية . طبعا جميع الطرق التي ذكرناها هي اجبارية وظهر لنا أنها صعبة واحتمالها ضعيف . أما الطريقة الديموقراطية فهي أقل احتمالا لأن مصلحة الحكام هي في بقائهم في الحكم ولن يستشيروا شعوبهم بما يسبب نهايتهم . حتى في أحوال تكون فيها القرابة قوية جدا نجد أن مصلحة الحكام هي في الوضع القائم أي في استمرارهم في الحكم . فخذ مثلا العراق وسوريا اللتين يحكمهما حزب البعث فبدلا من اتحادهما نجد أنهما اتجهتا نحو العداء . فحزب البعث انقسم الى شطرين وذلك لدعم

Digitized by Birzeit University Library

الوضع السياسي الانفصالي . فمصلحة الحكام هي أقوى من مبادىء البعث . أما في عام ١٩٧٩ فقد تغيرت الحالة وتحسنت العلاقات بين البلدين وذلك لشعورهما بخطر خارجي، الخطر الاسرائيلي - المصري بعد معاهدة الصلح . ولا نعرف اذا كان رد الفعل لهذا الخطر سيضطر البلدين للاتحاد أم لا . ولا نعرف اذا تحققت الوحدة ما اذا كانت ستستمر وتدوم . ومن الأشياء التي يجب مراعاتها في هذه الوحدة هي الطريقة العلمية . حتى ولو كانت الوحدة غايتها جميلة ونوايا المسؤولين عنها طيبة فمن الممكن فشلها لأن ميكانيكيتها وتنظيمها وعملية الدمج ليست علمية ، عملية الوحدة ليست مسألة سهلة واليوم تطورت المعرفة الكيفية لدمج الجيوش بطريقة تحول دون حدوث انفصال أو انقلاب، وعملية الوحدة يجب أن تأخذ بعين الاعتبار الكثير من المشاكل : مشاكل الأقليات ، مشكلة الاقليمية التي هي اكبر المشاكل خطرا على الوحدة ، مشكلة توزيع المنافع والتكاليف واحياء نظرة جديدة لمعنى الوحدة السياسية وهذا مهم للغاية . وبالاختصار يجب تطوير واحياء تفكير جديد حتى يصبح العراقي والسوري ينظران الى الوحدة ليس بالمنظار الاقليمي بل بالمنظار الوحدوي لكي يستطيعا تحمل تكاليفها واخطائها وآلامها في البداية لينتفعا منها فيما بعد . اذ يجب أن نتذكر بأن الشجار والخصام والغيرة والحسد تزداد عند لقاء الاقرباء خصوصا بعد انقضاء فترة الحماس والترحاب والسلامات . وهذه الفترة الصعبة تحتاج الى التضحية التي لا يمكن أن تكون دون الادراك القوي لمعنى الوحدة ومنافعها .

لكن الاتحادات الخيارية أي غير الاجبارية لا تتم الا بين الشعوب الديموقراطية حيث تكون ارادة الشعب قوية واذا كان الشعور القومي بين الناس قويا حدثت الوحدة

Digitized by Birzeit University Library

واكتملت . وبما أن الكيانات العربية هي كيانات سلطوية فان المسؤولين عن الحكم يرون سلطتهم ابدية ، تدوم حتى موتهم . ولو كانت هذه الكيانات ديموقراطية لكان احتمال الوحدة أقوى لأن الحكام يعرفون أن وجودهم في كراسي الحكم مؤقت وهذا يجعلهم أكثر مرونة تجاه التيارات الوحودوية المدعومة برغبات الشعوب المعنية ، خصوصا اذا كانت الوحدة السياسية ستعطيهم فرصة لزيادة تأثيرهم السياسي عن طريق الانتخاب .

ومن الناس من يقترح النظام الفدرالي للوحدة كأفضل حل لتوزيع المصالح القومية ومصالح الحكام وموازنة القومية والاقليمية . من وجهه المبدأ نحن نوافق على هذا الاقتراح . ولكننا لا نراه حلا نهائيا للوحدة بل طريقة تساعد على الأبتداء لعجلة الوحدة وعلى حل المشاكل الأولية حلا مؤقتا واعطاء الوحدة القومية للتطور . أما كحل نهائي ، فالفدرالية لا تنجح الا في بلاد ديموقراطية تكون القانونية legalism عنصرا قويا في تقليدها ، كالولايات المتحدة وكندا وسويسرا (٤). والنظام الفدرالي يقوم على أساس توزيع السلطات وهذا غير ممكن الا في المجتمعات التي تحترم القانون وتطيع الدساتير والا انفسخ الاتحاد نتيجة للاختلاف حول توزيع السلطات ومصالح الوحدات السياسية . والنظام الفدرالي السوفيتي ليس الا شكلا اداريا لنظام هو في الحقيقة وحدوي أي unitary وحتى في اميركا نجد أن النظام الفدرالي قد اتجه نحو الوحدوية وأن السلطة القومية قد اغتصبت الكثير من صلاحيات الولايات التقليدية . وهناك علماء سياسيون يعتقدون أن النظام الفدرالي الأمريكي انتهى ولم يعد له قيمة فعلية . ولم يبق الا النظام الفدرالي السويسري فهو ما زال قويا رغم الاتجاهات الوحدوية التي تؤثر عليه ،

Digitized by Birzeit University Library

وسبب قوته هو الخوف من الأنقسام والتفسخ الكامل بسبب وجود أربع قوميات داخله .

وفي رأينا أن الوحدة العربية سيكون لها ظروفها الخاصة وطريقتها الخاصة . ففي الأوضاع الحاضرة لا توجد احتمالات لثورات ناجحة . أما طريقة البلع فهي خطرة في الوقت الحاضر ، وربما كان التهديد الخارجي هو الامكانية الوحيدة للوحدة ولكنها ستكون وحدة جزئية غير شاملة . وربما كانت الطريقة الأيطالية الوحدوية تتناسب مع الوضع العربي . فهذه الطريقة تحتاج الى جندي ثائر مثل جاريبولدي وحاكم قدير وحازم مثل كافور وآيديولوجي عظيم مثل مزيني ، وملك حكيم مثل ايمانويل (٥) .

الوحدة العربية بحاجة الى شعور قومي قوي وهذا الشعور القومي يجب أن يكون على اساس مفهوم "الأمة - الدولة" . هذا المفهوم ضعيف جدا في الوقت الحاضر . بالنسبة للاكثرية الساحقة من الشعوب العربية وسنحاول في هذا البحث أن نشرح مشاكل هذا النوع من القومية .

مشكلة القومية العصرية: ليس سبب ضعف الاحساس بالقومية العربية هو فقط عدم وجود الدولة القومية الضرورية لتطوير هذا الاحساس وانما ايضا وجود عناصر في الأمة لا تؤمن بهذه القومية وعناصر أخرى تعترف بها ولكنها لا تعبر عنها سياسيا . أما العناصر الكبيرة التي لا تؤمن بها فهي موجودة في مصر ولبنان بشكل قوميات انفصالية . هذه القوميات تختلف عن الأقليمية التي توجد في الاردن وسوريا مثلا لأن الاقليمية العربية لا تدعي قومية منفصلة مناهضة للقومية العربية .

هناك في مصر حركة وادراك قومي مصري غير عربي . وهذا القطر لم يكن فيه ، على المستوى الشعبي ، ادراك قوي

Digitized by Birzeit University Library

للقومية العربية منذ قرون رغم أن عبد الناصر حاول أن يحرك هذا الأدراك ويطوره . وفي الحقيقة أن الأدراك الاقوى في مصر كان دائما للقومية المصرية لا للقومية العربية . الزعماء المصريون الذين سبقوا الاستقلال المصري مثل مصطفى كامل وسعد زغلول والذين جاؤوا بعده مثل مصطفى النحاس وصدقي وعلى ماهر واحمد ماهر والنقراشي وعبد الهادي وغيرهم كلهم قوميون مصريون ومن الكتاب العرب من يحاول أن يبرهن أن سعد زغلول كان يؤمن بالقومية العربية ومنهم اكرم زعيتر الذي كتب مقالة في "العربي" يقول فيها أن ما قيل عن سعد زغلول ، بأنه لا يؤمن بالعروبة ، هو خطأ (٦). وفي الحقيقة أن السيد زعيتر برهن على أن الزعيم المصري والزعماء المصريين الآخرين كانوا يشعرون ببعض المسؤولية تجاه الشعوب العربية الأخرى وكانوا يشعرون بالقرابة نحوها ولكنه لم يبرهن على أنهم قوميون عرب بمعنى الأيمان بأنهم جزء من الأمة العربية وبأنهم ليسوا أمة مصرية .

واذا اطلعنا على خطابات الزعماء المصريين نجد أن عبارة "الأمة المصرية" دارجة في خطاباتهم الى حد لا يمكننا معه ان نتجاهل العوامل النفسية وراء هذا الاستعمال. واذا قارنا خطابات زعماء سوريا والعراق والاردن ودول الخليج نجد هذه المقارنة مهمة لأن الزعماء العرب غير المصريين لا يستعملون كلمة "الأمة" الا مع صفتها العربية . وفي التحدث أو الرجوع الى الناس الذين يعيشون تحت سلطتهم وفي كياناتهم نجدهم يستعملون عبارة "الشعب" فيقولون "الشعب الاردني" "والشعب العراقي" وهكذا . ومن الضروري أن نلاحظ أن الشعارات والرموز واسماء المؤسسات وحتى اسماء المحلات التجارية كلها توحي بأن ادراك المصري لعروبته ضعيف جدا بالنسبة لادراكه لقوميته المصرية . فكلمة "عربي" لا تجدها في اسماء الأحزاب المهمة . والبافطات التجارية قلما عبرت

Digitized by Birzeit University Library

عن عروبة المكان وحتى اسماء البنوك والشركات تغلب على الاستعمال فيها كلمة "المصرية" و "المصري" .

وقد حاول الرئيس عبد الناصر تغيير هذه التعابير وتشجيع استعمال كلمة "عربي" والتغيير الذي حصل كان في عهده ولكن ما زالت مصرية المكان في جميع مظاهرها هي المتغلبة .

واذا نظرنا الى تاريخ مصر وجدنا ظاهرة مهمة وهي أن الحكام الأقوياء الطموحين يتبعون سياسة عربية واسعة تتعدى القومية المصرية وحدودها السياسية وتظهر هذه السياسة وكأنها قومية عربية . فخذ مثلا محمد علي الذي حكم مصر من ١٨٠٥ الى ١٨٤٩ ورغم أنه لم يكن مصريا ولا عربيا في الأصل الا أنه اتبع سياسة توسعية عربية وامتدت سلطته الى سوريا . وهذه السياسة لم تكن في حقيقتها تؤمن بالقومية العربية بل كانت تعبيرا عن طموحه الشخصي لا اكثر ولا أقل . وفي منتصف هذا القرن تقريبا ، تزعم النحاس باشا ، بالتعاون مع شوري السعيد وبايعاز من بريطانيا ، الجهود التي أدت الى انشاء الجامعة العربية ،لا لأنه كان يؤمن بالقومية العربية بل لأن السياسة العربية تخدم مصالح مصر القومية . وفي جميع هذه المحاولات المصرية كانت مصر دائما تصر على أن تكون القيادة العربية في يدها .

ولا أشك بأن عبد الناصر كان أول رئيس مصري دعا للقومية العربية ، رغم شيء من المماطلة والشك في امكاناتها السياسية، وهو يختلف عن زعماء مصر السابقين بأنه كان يستعمل عبارة "الأمة العربية" في خطاباته ، وبأنه عمل برنامجا قوميا لتعريب مصر وأحياء ادراكها للقومية العربية . والحزب العربي الاشتراكي كان أول حزب كبير في مصر يحمل اسم القومية العربية بصراحة تامة . ولكن رغم كل هذا فعبد

Digitized by Birzeit University Library

الناصر لم يختلف عن غيره من الذين سبقوه في الاصرار على ترؤسه الاتحاد العربي وعلى جعل مصر مركز ثقله .

ولما جاء السادات تغير الوضع تدريجيا . فقد مر بمرحلة كان يستعمل فيها العبارتين : "الأمه العربية" و "الأمه المصرية" في خطاباته . وهو ، كعبد الناصر ، أراد أن يكون زعيم العالم العربي ولما فشل في أقناع الكيانات العربية بخطواته نحو السلام مع اسرائيل أعلن نفسه قوميا مصريا . ومن الواضح أن عبد الناصر كان يختلف عنه في هذا الخصوص لأنه لم يتراجع عن دعوته للقومية العربية حتى بعد فشل وحدة مصر مع سوريا . فعبد الناصر عاش ومات عربيا .

لم يقصد مما تقدم أن مصر ليست عربية أو أن "الأمة" المصرية تظهر العداء للأمة العربية بل قصد به اظهار أن الاحساس بالقومية المصرية هو الأساس والاقوى في مصر . والتناقض ليس عداء ؛ فالمصري لا يكن الحقد والكراهية والعداء لغيره من الشعوب العربية بل بالعكس فعوامله النفسية تتخذ الايجابية نحو العالم العربي . والتناقض انما هو في استحالة وجود قوميتين على أرض واحدة في نفس الوقت ونجاح الأثنتين معا . ورغم أن القومية المصرية لا تعادى القومية العربية الا انها تكون مشكلة مهمة لها . فالاتحاد العربي هو ليس اتحاد قوميات بل اتحاد شعوب تنتمى الى قومية واحدة . والقومية المصرية تجعل الاتحادات السياسية العربية وكأنها ترتيبات سياسية مؤقتة . وبالأضافة ، فالاتحاد العربي على اساس تعدد القوميات (بالنسبة لمصر مثلا) لا يمكن الا أن يعكس مصلحة مصر ويتجاهل مصالح الشعوب الأخرى . فالاتحاد العربي هو عربي ورغم كون مصر اكثر البلاد العربية عددا فهذا لا يعني وجود مصلحة خاصة لها فمصلحتها يجب أن تكون على اساس كونها عربية لا على اساس كونها مصرية .

Digitized by Birzeit University Library

وفي الحقيقة أن من مشاكل الوحده العربية ما اسميه "العقدة المصرية" الموجودة عند العرب غير المصريين وهذه العقدة هي نظرة العرب الى مصر على أنها هي المركز ، وهي القائد ، ولا يمكن أن يحدث شيء في العالم العربي بدونها ، وكأن العالم العربي يجب أن ينتظر مصر لتتحرك قبل أن يتحرك هو . والشعوب العربية تضع آمالها في الشعب المصري وكأنها تنتظر عودة صلاح الدين لانقاذها . هذه العقدة ليست في صالح القومية العربية أبدا . ولا شك أن مصر هي بحاجة الى تقوية الادراك القومي العربي في صفوف شعبها وغرس روحه في نفسية ابنائها . وبدون هذا الادراك تكون الاتحادات العربية ضعيفة ومهددة بأنانية القومية المصرية .

ومن الناس من يتساءل عن اسباب القومية المصرية وضعف القومية العربية في مصر . أولا مصر هي الدولة العربية الوحيدة ذات الوحدة التاريخية والجغرافية . فالأرض لها تاريخ طويل معروف باسمها كتاريخ مصري لا كتاريخ أقوام عاشت في مصر وكأن الأقوام هي أهم من الأرض . فالتاريخ المصري هو تاريخ ملتصق بالأرض المصرية رغم انقسام الحكم فيها أو توسعه الى اراض خارجها . ومصر هي عكس الهلال الخصيب حيث الأرض عرفت باسم الأقوام التي عاشت عليها عبر التاريخ . ولذلك لم يتبلور في الهلال الخصيب فكر قومي وشخصية قومية باسم الارض . فالأقوام التي وجدت في الهلال الخصيب هي أشهر من الأرض التي عاشت عليها لأن لها اسم أما الأرض التي عاشت عليها فلم يكن لها اسم . فالتاريخ يعرف الفينيقيين والاشوريين والسومريين والكلدانيين والبابليين والعبريين والعباسيين والامويين العرب وحضارات أخرى متفرقة ولا يعرف تاريخا باسم الأرض التي عاشت هذه الأقوام عليها وهناك اختلاف على اسم هذه الارض ولأن الهلال الخصيب لم يحظ بوحدة تاريخية جغرافية فلم تتطور فيه قوميه تأخذ اسمها

Digitized by Birzeit University Library

منه أي من أرضه ولذلك نرى اللبناني انطون سعادة يتنبه لهذه المشكلة عندما وضع اسس القومية السورية وذلك بربط تاريخ الأقوام بأرضها على اساس وحدتها الجغرافية التي سماها سوريا وهو الأسم الذي عرفت به ، أو عرف جزء منها به اكثر من غيره . ولكن فكرة القومية السورية فشلت لعدم تمكنها من الاستيلاء على كيان سياسي لتطوير الادراك القومي السوري واستعماله كقاعدة للدولة القومية . وقومية أنطون سعادة السورية تشبه القومية المصرية في أنها تعترف بأن الأمة السورية هي عربية بمعنى أن ثقافتها عربية وقرابتها عربية وفي أنها تدعي أنها مركز العالم العربي وقائدته . فالعروبة عند سعادة والقوميين المصريين هي صفة القومية لا اسمها .

ولكن القومية المصرية متصلة بالدين الاسلامي اتصالا وثيقا ومتعلقة به تعلقا متينا . والدين الاسلامي مهم للمصري اكثر بكثير من القومية العربية وعروبة مصر هي اسلامية اكثر منها قومية ، هذا بالنسبة للمفاهيم المصرية المعاصرة . فبينما لا نجد أهمية تاريخية سياسية للقومية العربية في مصر نجد العكس صحيحا بالنسبة للاسلام . فالبلاد كانت فيها حركات سياسية اسلامية في الماضي ولكن لم يكن فيها حركات قومية عربية مهمة وقد كانت (وما زالت) مركزا اسلاميا ، فكريا وسياسيا وثقافيا . أما مركز القومية العربية فلم يكن في مصر أبدا فالحركات القومية العربية وفكرها وتنظيمها كان مركزها سوريا . الا أن سوريا لم تكن عندها الزعامة أو القيادة لهذه الحركة . فالحركة القومية العربية كانت قوتها السياسية والثقافية في سوريا أما زعامتها فقد كانت في خارجها . وهذا كان دائما من نقاط الضعف ومن مآسي القومية العربية ، أن يكون مركزها في بلاد وزعامتها في بلاد أخرى . ولذلك

Digitized by Birzeit University Library

فطريقتها الوحدوية كانت دائما بعيدة عن محورها وهذا كان من اسباب فشلها . وفي القرن العشرين ، كانت الحركات الاستقلالية في مصر (١٩١٩) وفي الهلال الخصيب (١٩١٦) تدعم اسلامية الاولى وعروبة الثانية لأن العدو المصري كان مسيحيا والعدو العربي في الهلال الخصيب كان مسلما . فمصر استخلصت استقلالها من بريطانيا المسيحية وعرب الهلال الخصيب استخلصوه من تركيا المسلمة . لذلك لم يواجه المصريون مشكلة الدين في ثورتهم ضد الانجليز ، أما في الهلال الخصيب فالمشكلة كانت حقيقية والسؤال كان عن التحالف بين العرب المسلمين والانجليز المسيحيين ضد الاتراك المسلمين . ولم تحل المشكلة الا على اساس القومية العربية ، اي تعليل الثوره على اساس حقوق العرب القومية لا على اساس حقوقهم الدينية (رغم أن تعليلا دينيا كان في حيز الوجود والتركيز على الملك حسين بحكم كونه من السلالة النبوية كان له اهمية في تنظيم الثورة) . وهكذا فقد كانت ثوره ١٩١٦ في الهلال الخصيب ثورة عربية واما ثورة ١٩١٩ في مصر فقد كانت مصرية وذلك بالنسبه لأهدافها وعناصرها البشرية .

وحتى قبل الثورتين فقد كانت التطورات والدلائل تبرهن صحة النظرية السابقة . ما سبق الثوره المصرية (١٩١٩) كان عبارة عن حركات سياسية واحزاب وقيادات تركز على مصرية البلاد لا على عروبتها (٧). ورغم أن زعماء مصر في مطلع القرن العشرين وقبل الثورة كانوا قوميين مصريين (مثل مصطفى كامل وبعده سعد زغلول) لكنهم كانوا متأثرين بالدين ؛ فسعد زغلول كان متأثرا بالشيخ محمد عبده ، المفكر الأسلامي الكبير . أما ما سبق الثورة العربية في الهلال الخصيب فقد كان تأثيرا قوميا عربيا اكثر منه دينيا . فبينما كان الشيخ عبده يؤثر على الفكر المصري السياسي عن طريق الدين ، كان مسيحيو الهلال الخصيب يؤثرون على الفكر السياسي عن طريق

Digitized by Birzeit University Library

القومية . والحركة الادبية التي سبقت الحركة القومية السياسية في الهلال الخصيب ومهدت لها كان في طليعتها الادباء المارونيون . وهناك سببان لذلك : اولا ، المسيحيون في الهلال الخصيب لم يشعروا بالانتماء identify الى الدولة العثمانية لانها كانت اسلامية . وحيث انهم ارادوا التخلص من النظام العثماني ولم يكن لهم القدرة على ذلك لقلة اعدادهم وقوتهم السياسية وجدوا القومية العربية الوسيط الوحيد لهدفهم . فهذه القومية لغتها وثقافتها عربية مثل لغتهم وثقافتهم وهي العامل غير الديني المشترك بينهم وبين المسلمين . ثانيا : ان القومية كفكرة سياسية عصرية هي تطور اوروبي ، وهذا التطور اثر على المسيحيين العرب قبل المسلمين . واذا نظرنا الى الامبراطورية العثمانية وجدنا ان اولى القوميات التي ثارت ضد هذه الدولة الاسلامية بهدف الاستقلال عنها كانت غير المسلمة وغير العربية كاليونانيين والصرب وجاء بعدهم المسيحيون العرب وبعدهم المسلمون من الطبقات العليا اي أن القومية ، كحجاب المرأة ، تأثرت حسب عملية الغربنة في المنطقة .واذا عدنا لمصر قلنا انها مشكلة عربية اذ انها بلاد لا تعادي العروبة ولكنها لا تسلك مسلكا عربيا الا لمصلحتها . وكما قلنا سابقا هي بحاجة الى تقوية الادراك العربي القومي فيها وهذا ممكن وضروري لأن المواد الخام او العناصر القومية موجودة فيها كما هي موجودة في سوريا . ولكن من الوجهة الواقعية يجب أن تبدأ الدولة القومية العربية بالهلال الخصيب وذلك لسببين مهمين : اولا الشعور القومي العربي فيه اقوى بكثير منه في مصر ، وهذا الشعور يمكن تطويره الى آيدولوجية دنيوية وليس الى قومية اسلامية ،وهذا معناه قيام قومية عصرية . وثانيا ،الكيانات السياسية في الهلال الخصيب ليس لها تاريخ طويل وهي مصطنعة لأنها من صنع الدول الاوروبية الكولونيالية.

Digitized by Birzeit University Library

وليس لهذه الكيانات المقومات لأن تكون دولا ، خصوصا بالنسبة للاردن ولبنان وفلسطين ، واقتصاد هذه الكيانات متمم لبعضه البعض . ولذلك يجب أن تركز الحركة القومية عليها ويجب ان تتجه الانظار اليها وان يتقبل اهلها زعامة منها لا من مصر حتى تتم وحدتها وتنطلق الى الدول العربية الاخرى بما فيها مصر . ومن الوجهة التكتيكية فان اتحاد الهلال الخصيب مع الجزيرة العربية اسهل من اتحاده مع مصر في المراحل الاولى . ونحن نعتقد أن دخول مصر للوحدة القومية على اساس قومي صحيح يزيد احتمال الوحدة ويقويه في حالة قيام الوحدة في الهلال الخصيب وبينه وبين الجزيرة العربية اولا . والا كانت الوحدة غير قومية لأن مصر سيكون سلوكها استعماريا غير عربي . وربما استطاع العرب البدء بوحدة تدريجية تكون حول اربع مراكز : وحدة النيل بين مصر والسودان ، وحدة شمالي افريقيا ، ووحدة الجزيرة العربية ، ووحدة الهلال الخصيب . وبعد اكتمال هذه الوحدات الاربع يمكن وصلها في اتحاد عربي كبير . واصعب عناصر هذه الوحدة الكبرى ستكون مصر لأنها ستصر على مصريتها وعلى السيطرة على الوحدة . ولكن اذا استغلت الوحدة الكبرى للصالح العربي القومي وذلك بهجرة الملايين من المصريين الى مناطقها الاخرى مع برنامج لتعريبهم القومي صارت الوحدة حقيقية وقومية صحيحة . واننا نعتقد انه لو انتبه عبد الناصر الى ضرورة هجرة المصريين الى سوريا وتعريبهم لما ضاعت تلك الوحدة . (هذا لا يعني أن المشاكل الاخرى لا تحتاج الى معالجة ومن هذه المشاكل كون البلدين غير متصلتين ارضيا بسبب وجود اسرائيل بينهما) .

مشكلة القوميّة اللبنانية : بالاضافة الى مصر نجد في لبنان تضاربا في الشعور القومي . والتضارب هو بين القومية اللبنانية

Digitized by Birzeit University Library

والقومية العربية. أما القومية اللبنانية فهي متأثرة بالشعور الطائفي المسيحي والقومية العربية بالشعور الطائفي الاسلامي. القومية اللبنانية تجد دعما معظمه من السكان المسيحيين ولكن محوره هو الطائفة المارونية. والقومية العربية تجد دعما من الطوائف الاسلامية ولكن محورها هي الطائفة الاسلامية السنية. ولكن هناك مسلمون يدعمون فكرة الدولة اللبنانية المستقلة ومسيحيون يدعمون فكرة الوحدة العربية. المسيحي الرومي (الارثودكسي) يميل للقومية العربية أو القومية السورية التي يدعو لها الحزب السوري القومي الاجتماعي. ويجب أن نفرق بين الدعم للقومية العربية والقومية اللبنانية وبين الدعم لفكرة الاستقلال اللبناني اي فكرة الدولة اللبنانية. فهذه الفكرة الاخيرة لها دعم في جميع الطوائف ومعناها هو لا قومي اي ان الفكرة مؤسسة على الوجود اللبناني السياسي دون ارتباطه بقومية معينة ان كانت عربية او لبنانية. وقوة هذه الفكرة اساسها ان لبنان ككيان سياسي هو اكثر ديمقراطية من الكيانات السياسية الاخرى في العالم العربي وهو ايضا اكثر جمالا واعلى مستوى، ثقافيا واقتصاديا، من غيره. ولكن هناك علاقة بين فكرة الدولة المستقلة وفكرة القومية، اذ أن لكل من القومية العربية والقومية السورية اهدافا خارج الكيان السياسي اللبناني وعندما تقوى أي من هاتين القوميتين سياسيا فهي تهدد الكيان اللبناني. أما القومية اللبنانية فهي تدعم الكيان اللبناني السياسي ما دامت تسيطر على هذا الكيان الطائفة المارونية. لذلك فالقومية اللبنانية هي مشروطة وهي في الحقيقة طائفية مارونية. والكيان اللبناني السياسي هو في الحقيقة ليس دولة بل ما اسميه اتفاقية او نظام هدنة. هذه الهدنة هي بين طوائف تسلك كأنها قبائل في حالة حرب مع بعضها البعض. وأساس هذه الهدنة هو اتفاقية ١٩٤٣ التي كانت

Digitized by Birzeit University Library

بين زعماء الطوائف الدينية والتي اعطت الموارنة رئاسة الجمهورية في نظام تطور ليكون رئاسيا. واليوم بعد حرب اهلية دامية استمرت اربع سنين ما زال الموارنة يصرون على سيطرتهم السياسية في لبنان رغم أن نسبتهم السكانية اصبحت ضئيلة .

القومية اللبنانية ، حسب ظن الكثيرين من المارونيين ، اساسها العنصر الفنيقي اي ان النظرية المارونية تقول أن اصل اللبنانين هم الفنيقيون وانهم ، اي اللبنانيين ، يكونون امة واحدة . وهذا من الوجهة التاريخية شيء لا يمكن أن يبرهن . ففي عام ١٩٤٦ سئل العلامة الدكتور فيليب حتي عن اصله عندما كان يتحدث الى لجنة الخارجية في الكنجرس الامريكي بمناسبة جلسات هذه اللجنة بخصوص القضية الفلسطينية فأجاب بأن ابناء طائفته يعتقدون أن اصلهم فينيقي ولكنه كمؤرخ لا يستطيع اعطاء البرهان القاطع على صحة اعتقادهم . واننا نضيف الى ذلك قولنا ان شمال فلسطين كان يسكنه الفنيقيون ، أي أن لبنان بحدوده السياسية لم يكن يطابق الوجود الفنيقي السكاني .

واذا دققنا قليلا في معاني القومية اللبنانية الضئيلة نتوصل للنتيجة الحتمية وهي أن هذه القومية هي تغطية للنعرة المارونية الطائفية وانه يجب علينا أن لا نستعملها كعبارة صادقة وان نستبدلها بالتعبير الاصح وهو "القومية المارونية". والقومية اللبنانية هي تعبير اخترعه الكتائب لاشراك لبنانين غير مارونيين في مصلحة بقاء لبنان مستقلا عن باقي العالم العربي وبقائه كذلك تحت سيطرة المارونيين .

ولو كانت هنالك قومية لبنانية حقيقية وغير طائفية لما مانع زعماء المارونيين في قبول رئيس للدولة من

Digitized by Birzeit University Library

الطائفة الاسلامية في سبيل الحفاظ على استقلال لبنان وتخليصه من الحرب الاهلية الاخيرة . فهذه الحرب اما ان تنتهي بانقسام لبنان ابديا او بضم اجزاء منه الى سوريا وربما حتى خسارة جنوبه الى اسرائيل . والقومي اللبناني الحقيقي لا يمكن ان يقبل بمثل هذه المصائب والنتائج فهو يفضل أن يتفق على اي لبناني من اي طائفة ليكون رئيسا على أن يصل لبنان الى هذا الحد .

والذي ساعد لبنان على بقائه كيانا سياسيا مستقلا هذه المدة الطويلة (نسبيا) هو ادراك الطوائف الدينية بأن النسب السكانية لها متقاربة مما يسبب اضطرابا داخليا الا اذا سارت حسب قواعد اتفاقية ١٩٤٣ ، اي ان البديل لنظام الهدنة هو الحرب الداخلية . وطبعا حالة البلاد الاقتصادية والحريات الناتجة عن التعايش السلمي جعلتها احسن نسبيا من جيرانها . ان النسب السكانية حسب التقديرات الرسمية لم تسمح لأي طائفة دينية ان تغير اتفاقية ١٩٤٣ دون مجابهة الموارنة بقوة السلاح . ولكن هذه النسب تغيرت في صالح المسلمين . فالمارونيون يشكلون ٢٣ بالمئة من مجموع السكان بينما الفئات الدينية الاخرى لها النسب التالية : الروم الكاثوليك ٧ بالمئة ، الارمن ٥ بالمئة ، والمسلمون السنيون ٢٦ بالمئة ، المسلمون الشيعيون ٢٧٪ والدروز ٧٪ (٨) . واصبح المسلمون اكثر من المسيحيين ، المارونيون صاروا في الرتبة الثالثة بين الفئات الدينية ، المسلمة والمسيحية . وهذا التغير في التوازن جعل اتفاقية ١٩٤٣ غير شرعية لأن هذه الاتفاقية تأسست على افتراض لم يعد صحيحا وهو أن المسيحيين هم الاكثرية وان الموارنة هم اكبر طائفة . ولم يبق لنظام التعايش الطائفي القائم الا توافر اسباب اخرى تؤدي الى هزه وتحطيمه . هذه الاسباب الاخرى ، داخلية وخارجية ، تجمعت في عام ١٩٧٥ فحصلت الحرب الاهلية التي

Digitized by Birzeit University Library

كشفت عن وجه لبنان الحقيقي وهو انه لم يكن فيه قومية لبنانية بل تعايش طائفي مؤقت .

والحقيقة هي اكثر من ذلك ، فلبنان هو بلد اقطاعي رغم مظهره العصري[٩] . والتطور الذي حدث فيه لم يكن متكاملا بل كان مملوءا بالفجوات ، فجوات طائفية ، فجوات طبقية ، وفجوات جغرافية . فلبنان لم يكن لبنانا واحدا اذ كان هناك لبنان الجنوب ولبنان الشمال ولبنان بيروت والمصايف المجاورة ، وكان هناك لبنان الغني والاجنبي ولبنان الفقير؛ وبالاضافة كان هناك لبنان الطوائف ، لبنان المسلم ولبنان المسيحي . واكثر الناس تألما في المجتمع اللبناني كان اللبناني غير الطائفي واللبناني من الطبقة المتوسطة لأن غير الطائفي يجد نفسه بدون حماية وبدون وسيط او محسوبية ، والذين هم من الطبقة المتوسطة كانوا يشعرون وكأن الفقر يجذبهم ، ولئلا ينجح في جذبهم الى القعر كان الكثير منهم يضطرون الى ترك مقاييسهم الاخلاقية للبقاء فوق الفقر وتحت الغنى .

ولكن المظاهر العصرية ، أنست الناس الفجوات الكبيرة الموجودة في المجتمع لمدة طويلة . وحتى اصحاب الاختصاص انغروا بالمظاهر ونسوا حقيقة لبنان . وقد كتب البروفسور شارلز عيساوي عام ١٩٦٤ يقول بأن الفوارق الاقتصادية في لبنان قلت [١٠] . وفي مطلع السبعينات كتب البروفسور ايلي سالم كتابا عنوانه "التحديث بدون ثورة" باللغة الانجليزية عن لبنان وفيه حاول أن يبرهن على أن لبنان نجح بالتحديث دون اللجوء الى احداث ثورة داخلية [١١] . وعندما قرأت هذا الكتاب جال بخاطري أن اقترح على الدكتور ايلي أن يكتب كتابا ثانيا يكون عنوانه "تحديث تهدمه الثورة" ، وذلك لأنني خلال زياراتي الى بيروت وجدت الوضع في

Digitized by Birzeit University Library

لبنان غير طبيعي ، ولاحظت ان التطور الذي حدث في لبنان كان على طريقة خطرة جدا اذ انه ترك فجوات كثيرة وكبيرة ولم يكن متكاملا ابدا . (وهذا الشعور ينتابني اليوم بالنسبة للاردن فقد القيت محاضرة عام ١٩٧٧ في فندق الاردن بدعوة من نادي عمان الروتري وانذرت تجار المدينة واغنياءها بأنهم ان لم ينتبهوا الى مشكلة الفجوات التطورية فانه "سياتي يوم يصعد فيه فقراء الوادي الى الجبال ليحرقوا فيلاتكم ويدمروا ثرواتكم") .

من هذا يتضح لنا انه لم تكن في لبنان جذور اجتماعية لا للتطور العصري ولا للقومية اللبنانية اذ أن التطور كان غير متعادل وغير متساوٍ ، والقومية اللبنانية كانت تغطية للطائفية المارونية والتعصب الديني . ومستقبل لبنان، في رأينا ، لا يمكن ان يكون منفصلا عن مستقبل سوريا والكيانات العربية المجاورة . هذا المستقبل إن كان تطورا ناجحا شمل لبنان أما اذا كان تطورا فاشلا فللبنان الحق أن يتذكر ماضيه الطائفي ويتذكر استقلاله ككيان منفصل .

مشكلة السكان الريفيين: من مشاكل القومية العربية انقسام السكان الى مدنيين وريفيين انقساما يتعدى الضرورة الاقتصادية وكون هذا الانقسام توترا بين نوعين من اساليب الحياة . وفي الحقيقة أن العالم الثالث ، ليس العالم العربي فقط ، تنقسم كل بلد من بلدانه الى امتين امة الريف وامة المدينة . المدينة في حياتها واسلوبها متأثرة بالثقافة والاساليب الغربية والناس فيها او اكثرهم تركوا الزي القومي ولبسوا الزي الغربي وتعلموا في مدارس تقلد المناهج الغربية ومنهم من يتكلم اللغات الاجنبية والكثير منهم اقتبسوا اساليب التسلية الغربية خصوصا الذهاب الى السينما وصالات الرقص

Digitized by Birzeit University Library

والنوادي الليلية . طبعا هذا الاسلوب هو اسلوب الطبقة البرجوازية ولكنه في اصله اسلوب الحياة المدنية الاوروبية وهو غير محدود في طبقة معينة وهو اليوم كذلك في العالم الثالث ما عدا بعض الناس من الطبقة الدنيا الذين لا يقتدرون ماديا على اساليب الحياة المدنية الا في الاشياء الرخيصة والجيل الاول من الذين هاجروا من القرية الى المدينة . وهذا الانقسام يشبه وصف الاسكندر هيرزن Alexander Herzen لروسيا بعد اصلاحات بيتر العظيم اذ قال هيرزن أن هذه الاصلاحات قسمت البلاد الى شطرين واحد اوروبي والآخر "قديم، محافظ ، تقليدي ... دين ، يلبس اللباس القومي ، وغير متأثر بالحضارة الاوروبية" (١٢) . ورغم أن الأوروبي بالنسبة لهيرزن هو الطبقات العليا ، الا اننا نجد وصفه للمجتمع التقليدي "القديم" يطابق حياة الريف في جميع بلدان العالم الثالث .

في العالم العربي يحتقر ابن المدينة ابن الريف وفي بعض البلاد كفلسطين يستعمل الناس العبارة "فلان فلاح" لأهانة الشخص ويعنون بذلك انه متخلف او "اهبل" او متأخر بطريقته . ولكن عندما يقول "العصري" او ابن المدينة "انا فلاح" فهو يعني التواضع اي انه انسان عادي وفي بعض الاحيان يراد من العبارة القول ان الشخص هو "ابن بلد" او "اصلي" وفي مناسبات خاصة ، في السياسة مثلا ، يعنى بالعبارة ان الشخص له شعبية او هدفه الشعبية . وهذا التناقض بين معاني كلمة فلاح سببه نظرة العرب الى انفسهم فالعربي ؛ كما قلنا سابقا ، هو مجموعة تقاليد بالاضافة الى جنسية معينة ، هذه التقاليد هي اقوى في الريف منها في المدينة . فاذا سألت الناس "من هو الاكثر عروبة ؟" قيل لك أن البدوي هو اكثر العرب عروبة ويتبعه الفلاح ويأتي في الاخير ابن المدينة .

Digitized by Birzeit University Library

وهذا معناه ان النظرة العامة تعتبر الحياة العربية الاصيلة ليست حياة المدن التي تعتبر فسادا او حتى فسقا بالنسبة للحياة العربية الاصيلة والنظرة طبعا تعود الى الاصل اذ أن العربي القديم اي الاصلي هو عربي البادية ولذلك فالحياة العربية الاصيلة هي حياة البادية . هذه الحياة تطورت الى حياة زراعية مستقرة وفي تاريخ العرب كان يوجد توتر بين الحياتين حياة البدو وحياة الريف ولما اصبح ابن الريف بشكل الاكثرية واصبحت حياة الريف هي الحياة المعروفة عند اكثر الناس واصبح البدوي هو الاقلية صارت حياة الريف عربية اصلية . وبظهور المدن الكبيرة والتأثير الغربي عليها صار التوتر بين القرية والمدينة فأصبحت القرية هي الاصل والمدينة هي الشذوذ . وكما كان الصراع في دوره الاول بين البداوة والريف صار ابن القرية يتهم ابن المدينة بالانحراف عن العادات والتقاليد اي عن الحياة العربية الاصيلة على نحو ما فعل البدوي بابن القرية قبل ذلك . وهكذا فان الاول هو الخاسر في عملية التطور والخاسر هو الاصل والجديد هو الفاسد والفاسد هو المنحرف .

والفلاح بدوره يحتقر ابن المدينة اذ يعتبره "مائعا" يميل الى التخنث بمعنى انه "ناعم" وليس رجلا بالمعنى الصحيح ، لأن الرجولة فيها الخشونة بالنسبة لابن الريف . وابن الريف ينظر الى ابن المدينة على انه مصطنع اي "مزيف" لأنه ترك الكثير من تقاليده واستبدلها بطرق اجنبية او غريبة اي غير عربية او غير اصيلة .

والحقيقة ان الحركة القومية العربية هي حركة مدنية من وجهة الدعم السياسي والتنظيم والادراك . ولهذا نجد من الوجهة السياسية ان القومي العربي القوي هو ابن المدينة ويتلوه في القوة الفلاح واخيرا البدوي الذي يكون شعوره القومي

Digitized by Birzeit University Library

وادراكه له ضعيفا للغاية الى درجة عدم الوجود . وهذا هو عكس النظرة العامة لمن هو العربي الحقيقي ، اي ان اكثر العرب عروبة ، حسب النظرة العامة ، هو اقلهم عروبة من الناحية السياسية ومن ناحية الوعي القومي .

وحيث ان العالم العربي اكثرية سكانه (فوق الستين بالمئة) يقطنون الريف فاننا نجد أن الادراك القومي العربي فيه ضعيف للغاية . ولذلك فان اكبر عقبة للوصول للاهداف القومية والتي اهمها انشاء الدولة القومية العربية هي ضعف الادراك القومي عند معظم السكان . فالقومية العربية هي ، من الوجهة السياسية ، حركة اقلية لا حركة اكثرية . ورغم أن النجاح السياسي ممكن عن طريق الاقلية الا ان انقسام الامة العربية الى اكثرية ريفية واقلية مدنية هو في صالح الاقليميات ، ولذلك فهو في صالح الحالة الراهنة status quo اي في صالح الكيانات السياسية القائمة .

ومعروف أن الريف له خصائص ليست في صالح التحرك السياسي political mobility الضروري لنجاح الحركة القومية . فاتصاله بالخارج ضعيف والعزلة هي من خصائصه المهمة ، وكذلك فهو محافظ ويميل للتجانس الثقافي والسلالي وهو متدين اكثر من المجتمع المدني (١٣) . فعالم القروي ضيق قلما يتعدى الحمولة او القرية واقتصاده اقتصاد الكفاف . ورغم أن الحياة القروية تتعرض اليوم الى تأثيرات كثيرة وتغييرات جديدة ، الا ان اكثرية اهل الريف العربي ما زالت تقليدية وحتى حياة المدينة العربية نجدها متأثرة بالريف بسبب هجرة الكثيرين منه اليها . ولا شك ان من اسباب التحفظ السياسي الذي يجتاح العالم العربي في الوقت الحاضر وضعف التحرك السياسي على الصعيد القومي العربي نزوح الاعداد الكبيرة من سكان القرى الى المدن العربية .

Digitized by Birzeit University Library

ولكن المدينة هي المركز السياسي حيث يقوى الوعي القومي وتشتد التأثيرات الايدولوجية السياسية . والسبب هو أن اقتصاد المدينة اكثر قومية من اقتصاد القرية الذي هو عادة محلي . ومستوى المدينة الثقافي أعلى من مستوى القرية كما أن في المدينة المؤسسات العديدة التي تحركها سياسيا وتزيد من قوة ادراكها القومي . لذلك تبدأ الثورات باضطرابات المدن ولكن هذه الثورات لا تكون قومية ولا تنجح في اهدافها الكبرى الا اذا دعمها سكان الريف ، وهذا النوع من الثورات ممكن ضد الاستعمار وصعب ضد الحكومات المحلية والاهلية . ولذلك تجد هذه الحكومات الاهلية تحاول فصل الريف عن المدينة سياسيا واستغلال اقليمية سكان الريف . والحقيقة أن شرعية legitimacy الحكومات الاهلية مستمدة من اقليمية الريفيين.

أما البدو فهم انواع ثلاثة : البدو الرحل وهم الاقلية بين الانواع الثلاثة ، والبدو شبه الرحل ، والبدو المستقرون وهم الاكثر عددا بين فئات البدو . وكما قلنا فان الادراك القومي ضعيف بينهم خصوصا بين الرحل منهم . ورغم اختلاف درجات الادراك القومي بينهم فنحن نجدهم لا يفهمون معنى السلطة المركزية . وفكرة الوطن القومي ومفهوم الحدود السياسية كلاهما ضعيفان لديهم . لذلك نجد انهم في البلاد التي يوجدون فيها بأعداد كبيرة يشكلون مشكلة سياسية كبيرة للسلطات المركزية التي ترغب في تثبيت سلطتها على ارضها وشعبها وللحكومات التي ترغب في تطوير البلاد تطويرا عصريا .

أما في الاردن ، فالبدو هم عنصر ايجابي بالنسبة للحكومة وذلك لأن ولاءهم هو للملك . وهذا الولاء هو ولاء شخصي ولكنه اصبح تقليديا بعد أن استطاع ملك الاردن الاول السيطرة على القبائل التي عادته في البداية . والملك عبد الله

Digitized by Birzeit University Library

استطاع كسب القبائل الى جانبه باستعمال الاسلوب القبلي . فبعد أن برهن عن قوته العسكرية المتفوقة على القبائل كسب القبائل عن طريق الدين والهبات المالية لا عن طريق القومية او الوطنية او المثل العليا الاخرى . وانتماؤه الى سلالة النبي ساعده كثيرا على ربط القبائل بنظامه السياسي .

ورغم ان عدد البدو الرحل ضئيل بالنسبة لمجموع السكان (لا يتعدى الاثنين بالمئة) (١٤)، الا أن الحياة البدوية ما زالت تؤثر على الحياة العربية المعاصرة . ومعنى ذلك أن قيم المجتمع العربي الحاضر ما زالت متأثرة بالقيم القبلية (وطبعا بالقيم الدينية التي هي الاقوى) . وحتى التطور العصري لم يستطع التخلص من النظرة القبلية التي تجدها قوية في التنظيمات النشاطية وخصوصا في العمل السياسي . والقبلية تتجسم اليوم في نظام الحمولة والعائلية الذي كان ، حتى مدة قريبة ، أساس القوى السياسية في العالم العربي والذي ما زال سائدا في مناطق وكيانات معينة مثل الضفة الغربية ولبنان والخليج العربي . وفي رأينا ان النظرة القبلية هي من اسباب فشل المنظمة العربية العصرية والعربي لا يستطيع تنظيم النشاطات الواسعة على اساس عصري بسبب النظرة القبلية. وفي دراستي لشركة كويتية وجدت ان المسؤولين العرب في الشركة يحاولون توظيف اقاربهم وابناء بلدهم بغض النظر عن كفاءاتهم . ووجدت ان فعالية هذه الشركة متأثرة بهذه الطريقة التقليدية التي تؤثر حتى على اصحاب الشهادات الذين منهم من تعلم في العالم الغربي . وفي الحقل السياسي تتمتع النظرة القبلية بوجود قوي للغاية ؛ فعلاقات الكيانات العربية مع بعضها البعض متأثرة بتلك النظرة وكذلك الاحزاب السياسية تجدها تنقسم بعد فترة الى قبائل وهذا ما حدث لحزب البعث وللحزب السوري القومي الاجتماعي . وحتى المقاومة الفلسطينية تجدها متأثرة بالنظرة القبلية فهناك "قبيلة" الفتح

Digitized by Birzeit University Library

و"قبيلة" الجبهة الشعبية و"قبيلة" الجبهة الديمقراطية وهكذا . وعلاقات هذه "القبائل" هي ايضا متأثرة بالاسلوب القبلي : الثأر ، والغزو ، والتحالف والولاء كلها لها اسماء عصرية ولكنها من الناحية النفسية متأثرة بالتقليد القبلي . وطبعا هناك اسباب اخرى للانقسام والتفسخ ولكن ما اسميه القبلية العصرية هي سايجولوجية قوية في التنظيم العربي وعلاقاته .

ومن البديهي الاستنتاج من تحليلنا هذا أن مستقبل القومية العربية مربوط بمستقبل عملية التمدين urbanization وحيث أن عملية التمدين هي في عملية التطور العصري نجد أن العصرية هي في صالح القومية العربية . واننا نعتقد أن التطور الاقتصادي بالذات هو الأهم . فالاقليمية تعيش في اقتصاد زراعي وهي اقوى في المناطق التي تعتمد على اقتصاد الكفاف ، فكلما كان الانعزال الاقتصادي اكثر كلما كانت الاقليمية اقوى . وفي الحقيقة نستطيع ان نقيس درجات الانعزال او الارتباطات الاجتماعية بنوعية السوق التجارية . فالاقليمية سوقها محلي أما القومية فسوقها قومي . والروابط القومية الكبرى تزيد بالتفاعل الاقتصادي بين الوحدات الاجتماعية والجغرافية . واقوى الاسواق القومية هي التي يدعمها انتاج قومي . والاسواق التي لا يدعمها انتاج داخلي هي اسواق اما ان تكون زراعية محلية او اسواق كبيرة لانتاج خارجي . وفي الحالة الاولى يكون السوق اقليميا (زراعيا) أما في الحالة الثانية فيكون استعماريا او خاضعا لدولة اجنبية . والسوق القومي الذي يدعمه الانتاج القومي المتوازن هو اساس القومية غير الاستعمارية . ولا شك أن زيادة العلاقات الاقتصادية بين البلدان العربية تزيد من ترابطها القومي ، ذلك اذا كانت هذه العلاقات الاقتصادية غير وقتية وغير مشروطة سياسيا واذا كانت علاقة اسواق

Digitized by Birzeit University Library

مشكلة الدين والأقليات: لفهم وضع الاقليات في العالم العربي يجب ان نعرف ان التقليد العربي هو اسلامي وتاريخ الاقليات وتطورها هو في مجتمع اسلامي ٠ لذلك علينا قبل الخوض في موضوع الاقليات فهم قاعدته التقليدية الاسلامية . والمؤرخون ، الا اصحاب الاهداف الخاصة منهم ، يعترفون بأن الدين الاسلامي يتسامح بالنسبة للأديان السماوية الاخرى (اليهودية والمسيحية) ولا يعاديها ٠ فالاسلام يعترف بها ويعتبر نفسه منطلقا عنها وتأثير الدين اليهودي عليه كبير ومعظم انبيائه يهود والكثير من طقوسه تشابه ، في بعض عناصرها ، الطقوس الدينية اليهودية ٠ وحتى النزاع العربي الاسرائيلي لم يغير من شعور العربي المسلم نحو اليهودية الا ان المسلمين كانوا من البداية يعتقدون أن اليهود انحرفوا عن دينهم الصحيح ٠ ورغم هذا الاعتقاد ، فان النظرة الاساسية للدين اليهودي والدين المسيحي هي التي طورت تطبعات العرب المسلمين نحو هذين الدينين وهذه التطبعات هي ايجابية ٠ ولكنا اليوم نجد بعض المؤرخين يقولون أن اليهودي والمسيحي كانا في عهد الدولة الاسلامية مواطنين من "الدرجة الثانية" ٠ والحقيقة أن هذه العبارة غير لائقة لأنها غير لازمة ٠ وهي غير لازمة لانها تقارن عهد الاسلام بالوقت الحاضر وهذه المقارنة غير عادلة لأن الفكرة القومية والحقوق الدستورية لم تكن كما نعرفها اليوم ٠ فالمقاييس في عهد الاسلام كانت تختلف عن مقاييس اليوم ٠ ولو قارنا وضع الاقليات في عهد الاسلام بوضعها في العهود التي سبقته لوجدنا الوضع الاسلامي هو الأحسن ٠ والدليل على ذلك أن اليهود والمسيحيين غير الروم رحبوا بالجيوش الاسلامية في المناطق التي كانت تحكمها الدولة البيزنطية المسيحية مما يدل على أن

Digitized by Birzeit University Library

وضعهم في هذه المناطق لم يكن حسنا . واذا درسنا العهد الذهبي في التاريخ اليهودي نجده يطابق العهد الذهبي في الدولة العربية الاسلامية والسبب هو ان النشاط الادبي والثقافي اليهودي تطور تحت رعاية الدولة العربية الاسلامية وبتشجيع منها . ولا شك ان بعض علماء الدولة الاسلامية العربية الكبار كانوا يهودا اشتركوا في العصرين الذهبيين . ولا شك ان هناك فترات في التاريخ الاسلامي كان فيها اليهود مضطهدين ولكن اذا درسنا تلك الفترات بدقة وتمعن وجدنا ان الاضطهاد كان يشمل المسيحيين والمسلمين لان الحاكم كان ظالما بغض النظر عن دينه . ولذلك يجب ان نفرق بين الاسلام كدين والحاكم الظالم الذي يدعي ان دينه الاسلام .

كانت الاقليات الدينية في العهد الاسلامي تعيش في ظل قوانينها وطقوسها الدينية اذ ان الاسلام منحها الحرية الدينية . وحسب مقاييس الدين الاسلامي كانت العضوية في المجتمع تتطلب ان يكون العضو مسلما كما ان الحقوق الكاملة هي للمسلم . ولذلك فان المسيحي واليهودي لم يكونا من اعضاء المجتمع الاسلامي لأنهما غير مسلمين . ولذلك كان للمسيحيين واليهود مجتمعهم وحقوقهم حسب طقوسهم الدينية . ولكن حيث انهم كانوا يسكنون على ارض تحت السيادة الاسلامية اي داخل اراضي الدولة الاسلامية صار من الضروري ان يعطوا ولاءهم لهذه الدولة وذلك بدفع الجزية ؛ ومقابل هذه الجزية كانت الدولة تحميهم وهذه الحماية كانت من مسؤوليات الدولة الاسلامية المهمة . وطبعا باستطاعة انسان القرن العشرين ان ينظر الى القرن السابع والثامن ويقول ان الاقليات في العهد الاسلامي لم يكن لها نفس الحقوق كالاقليات في العهد الحاضر . ولكن مثل هذا القول لا يكون عادلا لأن المقارنة هي بين نظامين تفصلهما قرون عديدة . فمقياس الحقوق اليوم هو القومية التي هي في البلاد العصرية غير دينية . أما في القرن السابع والثامن

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسة
Digitized by Birzeit University Library

فقد كان مقياس الحقوق الدين اذ ان الدولة كانت دينية . واذا اردنا المقارنة بين وضع الاقليات في العهد الاسلامي ووضعها في العهد الحاضر في البلاد المتطورة فعلينا ان نعمل المقارنة بين الامريكي وغير الامريكي الذي يعيش على ارض امريكية . مثل هذه المقارنة تعطينا نتيجة ايجابية بالنسبة لوضع الاقليات في العهد الاسلامي . واننا نعتقد أن وضع الاقليات الدينية في عهد الاسلام ، باستثناء فترات خاصة ، كان على العموم احسن بكثير من وضع بعض الاقليات في العالم الغربي اليوم ، هذا اذا اعتبرنا الاقليات غير الدينية في العالم الغربي ، كالزنوج في امريكا مثلا . أما الاقليات المسلمة غير العربية في عهد الاسلام فقد كانت حقوقها كاملة ، مثل الفارسي والتركي .

لكن عصرنا هذا هو عصر القوميات والدولة الدينية لم تعد في حيز الوجود . والعالم العربي يعيش في ازدواجية مزعجة . فرغم نص الدساتير العربية على ان دين الدولة هو الاسلام الا اننا نجد ان النظام السياسي والكثير من قوانين الكيانات العربية هي لا دينية وهي تتبع النموذج الاوروبي . ومبدأ فصل الدين عن الدولة غير معترف به وهذا المبدأ ضروري للاقليات الدينية في العالم العربي اذ بدونه لا يمكن المساواة بينهم وبين المسلمين . والقومية العربية تعاني من هذه المشكلة الصعبة . وهناك اسباب لفشلها باحداث الفصل النهائي بين الدين والدولة . والسبب الاول هو ان القومية العربية ليست دولة وانما هي امة بدون دولة . واننا نعتقد انه اذا نجحت الامة العربية في انشاء دولتها القومية فان هذه الدولة ستكون دنيوية وليس دينية ، الا اذا كانت الوحدة غير قومية اي اسلامية . ولكن الامة العربية لها كيانات سياسية مستقلة لا تفصل الدين عن الدولة وهذا معناه أن الاسباب تتعدى عدم وجود الدولة القومية . فالدين الاسلامي هو طريقة حياة ، ثقافة ونظام سياسي اجتماعي وتشريع .

Digitized by Birzeit University Library

فصل الدين عن الدولة معناه تجاهل هذه الشريعة وهذا النظام، والمسلم لا يستطيع ان يعيش دينا بدون شريعة الاسلام ومؤسساته . والعكس صحيح بالنسبة للمسيحية ولذلك كان فصل الدين عن الدولة في اوروبا اسهل بكثير . فالمسيحية في اوروبا ، قبل فصل الدين عن الدولة ، لم تكن شريعة متطورة كالاسلام وقوانين الكنيسة الكاثوليكية لم تكن بأكثريتها تشريعا الهيا مباشرا بل تشريعا انسانيا اي تشريع المؤسسة الكنائيسة نفسها . فالدين المسيحي هو مبادىء اكثر منه قوانين .

وهناك سبب آخر لصعوبة الفصل في العالم الاسلامي العربي وهو أن الاسلام ، بعكس المسيحية ، ما زال يحتفظ بوحدته الروحية لأن الانقسامات الدينية داخله قليلة . ورغم أن هذه الانقسامات كانت عنيفة ونتجت عنها الحروب فهي لا شيء بالنسبة للحروب الدينية الاوروبية . وهذه الانقسامات الداخلية لم تطرح السؤال عن علاقة الدين بالدولة كالانقسامات في المسيحية الاوروبية التي تحدت سلطة البابا ودعت الى فصل الدين عن الدولة . ففي اوروبا لم يكن الصراع الديني ضد السلطة الدنيوية بل ضد السلطة الدينية .

الاكثرية الساحقة في الاسلام سنية ، والطوائف الاسلامية الاخرى نسبتها ضئيلة فالشيعية في العالم العربي تتمركز في العراق واليمن ، والدرزية في لبنان وسوريا وفلسطين . وفي الحقيقة أن الوحدة الدينية في العالم العربي اقوى من الوحدة القومية بمعنى أن الانقسامات الايدولوجية فيها اقل . ولهذا نجد أن القومية العربية ما زالت متأثرة الى حد كبير بالنظرة الدينية الاسلامية لانها الاقوى . وباستثناء المثقفين والعصريين المدنيين ، ما زال العرب يعتقدون أن العربي هو المسلم . وهذا الرأي سائد في الريف اكثر منه في المدينة

Digitized by Birzeit University Library

وبين المستويات غير المثقفة من المستويات المثقفة وبين العصريين المتأثرين بالحياة الغربية من التقليديين . وهو اكثر وضوحا في المغرب العربي اذ في بلاد كليبيا كان المسيحي العربي يعتبر مسلما لأن الليبي ، حتى فترة قصيرة ، كان يعتبر أن المسيحي هو الاوروبي فقط والايطالي بصفة خاصة اي ان المسيحي لا يمكن ان تكون لغته عربية .

ومن اسباب صعوبة فصل الدين عن الدولة ، هو أن الدين الاسلامي ليس له كهنة وتركيب منفصل عن الدولة . فرئيس الدولة هو المسؤول الديني الاول اي أنه امير المؤمنين ولكنه ليس له صفة الكاهن أو البابا فأي مسلم يستطيع أن يحل محله ، هذا من وجهة المؤهلات لا من وجهة طريقة الاختيار . أما في اوروبا الكاثوليكية فلم يكن ممكنا للكاثوليكي المسيحي أن يكون بابا الا اذا كان من ضمن الجهاز الكنائسي وعندما كان البابا هو الامبراطور كانت الكنيسة هي الدولة وليس العكس كما هو في الاسلام .

لذلك ففصل الدين عن الدولة في اوروبا كان عملية تخليص الدولة من الكنيسة اما عملية فصل الدين عن الدولة في نظام اسلامي فهي تتطلب تخليص الدين من الدولة . وحيث أن الدين بدون الدولة يصير بدون مؤسسات فالفصل يقتل الدين ويؤدي الى ضعفه وتلاشيه كنظام شريعة ونظام دولة . واذن فهذا الفصل ليس من مصلحة الدين . وعملية الفصل هذه تكون ثورة على الدين لا على الكنيسة التي لا توجد في الدين الاسلامي رسميا الا في نظام دولة . والثورة على الدين اصعب بكثير من الثورة على الكنيسة اذ في التاريخ الاوروبي كانت "الثورة" على الكنيسة ولما نجحت بقي الدين دينا وعلاقته بالدولة صارت علاقة تعايش في نشاطات منفصلة . أما الثورة على الاسلام كدين فان نتيجتها تكون وخيمة على الدين نفسه

Digitized by Birzeit University Library

لأن الدين سيصير بدون كنيسة التي هي الدولة ، والفصل يكون بين الكنيسة والدين .

وحيث أن الكيانات العربية تعيش في ازدواجية لم تحسم موضوع علاقة الدين بالدولة ، صار من الصعب جدا تطوير آيدولوجية دنيوية ، ولذلك فالعصرية في العالم العربي لا يوجد لها قاعدة آيدولوجية وهذا ليس في مصلحة القومية العربية . وفي الوقت الحاضر تجد الهوية الدينية اقوى من الهوية القومية ، الا بين الاقلية من المثقفين والعصريين . وهذه الهوية الدينية ليست مجرد ايمان وعقيدة وصلاة وأذان وانما هي انتساب الى جماعة فهي بذلك قريبة لأن تكون هي نفسها قومية . فالشخص يظل مسلما حتى اذا لم يتبع تعاليم الدين كأن يشرب الخمرة او يترك الصلاة والصوم او يزني. فما دام يعلن اسلامه فهو مسلم حتى لو كفر بالدين ، فالاسلام يختلف عن الكاثوليكية المسيحية بأنه لا يوجد فيه طريقة طرد او عملية فصل excommunication . ولأن الدين هو هوية فهو من اسباب ضعف القومية العربية لانها هي ايضا هوية ولكن الانتماء لها يتطلب مقاييس ومؤهلات تختلف عن العضوية في الجماعة الدينية . ولا يمكن للقومية العربية أن تصير عصرية الا بفصل الدين عن الدولة .

ولكن فصل الدين عن الدولة يتعدى المسائل الشرعية والدستورية فهو شيء نفسي . وفي الحقيقة أن الاسلام لم ينجح في بدايته الا بعد أن تغلغل في مركز الشخصية الفردية عن طريق العقيدة والعائلة . وما زالت تركيبة الشخصية الفردية اسلامية في ثقافتها فلا يمكن فصل الدين عن الدولة الا باعادة تركيب الشخصية عن طريق آيدولوجية دنيوية تضع مفاهيم جديدة للحياة وتعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله . وكما قلنا هذا صعب جدا ولكنه ليس مستحيلا . هو

Digitized by Birzeit University Library

صعب لأن الدين الاسلامي قوي للغاية كنظام عقاب ومكافأة يملأ وصفه لجهنم قلب المسلم بالخوف كما يشجع وصفه للجنة على الايمان الصحيح . فهو كما يقولون في العالم الغربي نظام عصا وجزرة ، العصا لمن يعصي والجزرة لمن يفي . ولا أجد دينا مثل الاسلام في تأثيراته النفسية على الاشخاص . وكثيرا ما تجد مسلمين لا يتبعون التعاليم الدينية ولكنهم يدافعون عنها ويدعون بأن الاسلام هو اعظم الأديان واصحها .

وطبعا الاسلام هو الذي صنع عروبة الناس خارج الجزيرة العربية . فعروبة هؤلاء هي من خلقة الاسلام وفصل العروبة عن الاسلام يشبه فصل الأب عن ابنه . ولكن العالم الغربي فصل الأب عن ابنه وكانت نتيجة الفصل انتاجية اكثر وعائلية اقل . وفصل الاسلام عن العروبة سينتج عن انتاجية عظيمة وروحانية اقل للأثنين .

ولحسن الحظ ، من الوجهة العصرية الزمنية ، تتطور القومية العربية آيدولوجيا في اتجاه دنيوي لا ديني والمثال على ذلك هو حزب البعث الذي اسسه رجل مسيحي ، ميشيل عفلق . فهذا الحزب فصل الدين عن الدولة في مبادئه واعتبر الاسلام تاريخا عربيا مجيدا . ولكن الآيدولوجية شيء والناس شيء ثانٍ ، اذا لم يتفاعل الاثنان . فالبعث ، لضعفه الآيدولوجي ، لم يستطع اقناع الناس او حتى ارغامهم على الايمان بأن الدولة شيء والدين شيء اخر . ولما حاول الرئيس الأسد تعديل الدستور لفصل الدين عن الدولة شعر بأنه ان اصر على مبدئه ربما فصل هو عن الدولة . لذلك نجد ان اقوى القوميين العرب هم مسيحيون لأنهم يرون القومية بمنظار دنيوي لا ديني ومعنى هذا انهم من الوجهة العصرية اكثر العرب عصرية . ولكن لأن الاسلام يناهض القومية العربية في عنصر الهوية نجد انه مشكلة للاقليات والاقليات

Digitized by Birzeit University Library

هي مشكلة له . هذا لا يعني أن كل المسيحيين هم قوميون عرب بالمعنى الدنيوي ولا أن كل المسلمين هم قوميون عرب بالمعنى الديني اذ لا يزال هناك بين المسيحيين افراد وجماعات متعصبة لدينها . وعلى العموم فان اقوى المسيحيين العرب قومية هم الروم الارثوذكس Greek orthodox وذلك لانهم شرقيون ولان تقدم اليونانيين الحضارى متأخر بالنسبة لباقي اوروبا . ولكن القومية عندهم مجردة من انسانيتها بمعنى انها مبدأ مفصول عن حقيقته الانسانية التي هي كون المسلمين الاكثرية وكونهم عربا . فعندما يحصل التفاعل بين المسيحي والمسلم العربي تجد الطائفية موجودة وبوضوح تام ؟ اي أن المسيحي مع المسلم هو مسيحي وبدون المسلم هو عربي قومي . وأظن أن المسيحي اكثر طائفية من المسلم لانه اقلية يشعر بعدم الأمان ، فطائفيته تظهر في الدفاع عن نفسه كأقلية . اما المسلم فلا يوجد عنده هذا الشعور اي انه لا يشعر بالتهديد من قبل المسيحي لأنه مرتاح بوضعه النفسي بحكم كونه اكثرية . ومن الاجراءات التي يتخذها المسيحي للدفاع عن نفسه توظيف المسيحيين واعطاؤهم الاولوية على غيرهم . وهذا صحيح بالنسبة للمسلم فهو طائفي ايضا ولكن لأنه الاكثرية تجده يشرك المسيحي في النشاطات العامة كالسياسة التي يشترك المسيحي فيها اشتراكا فعليا وفي الكثير من البلاد العربية خصوصا في فلسطين العربية وفي الاردن كان المسيحيون ممثلين في المجالس العامة بنسبة تفوق اعدادهم . وحتى عندما كانت زعامة فلسطين في يد المفتي ، رجل الدين المسلم ، كان المسيحيون ممثلين في الهيئة العربية بنسبة محترمة وكان سكرتير هذه اللجنة مسيحيا . وفي الاردن نجد تمثيلهم في الوزارات والبرلمان في معظم الاحيان لا بأس به . والحكومة الاردنية تتخذ موقفا مشرفا بالنسبة للمسيحيين العرب بصفة خاصة وبالنسبة

Digitized by Birzeit University Library

للاقليات كلها بصفة عامة وهو موقف حماية يجعل الحكومة تتقدم لحماية المسيحيين مثلا في حالة حدوث مجابهة بينهم وبين المسلمين .

ولكن الطائفية لها مظاهر قبيحة وهي اقوى على مستوى الفئات الدنيا من المجتمع بين غير المثقفين في المدن وبين القرويين على العموم . وقد لاحظت انها قوية بين التجار الصغار في المدن الصغيرة . ولكنها اقوى ما تكون في القرى المسيحية المجاورة للقرى المسلمة والعكس صحيح . والغريب أن القرويين المسيحين في فلسطين لا يختلفون عن القرويين المسلمين لا في العادات ولا في اللباس وانما في الطقوس الدينية . وسبب الطائفية في هذه الحالة هو ضعف الثقافة وقلة الغربنة (اي العصرية) فالطائفية عند القروي لها صفات القبلية . ولكن على العموم نلاحظ أن الاقليات المسيحية موجودة في المدن وربما كان هذا سببا رئيسيا لقوة القومية (الدنيوية) لديها . وحتى لا نخلط بين الاثنتين فنحن نقول ان الطائفية قوية بين المسيحيين العرب والقومية العربية الدنيوية هي ايضا قوية بينهم ولا يوجد تضارب بين القولين . وبالطبع فان هذه الطائفية وهذه القومية تتنوع وتتدرج حسب تنوع السكان وجغرافيتهم .

وباستثناء لبنان ، نجد وضع الاقليات المسيحية السياسي في البلاد العربية لا بأس به . (بالطبع هناك فترات في التاريخ الحديث كان وضع اقليات مسيحية معينة سيئا للغاية) وكذلك وضعها الاقتصادي فجده على العموم احسن من وضع الاكثرية المسلمة ومن اسباب ذلك دخولها نشاطات اقتصادية عصرية وغير تقليدية وكذلك نجد مستواها التعليمي ـ الثقافي أعلى وهي طبعا تتلقى الاعانات من

Digitized by Birzeit University Library

الخارج وخصوصا عن طريق الجماعات والجمعيات التبشيرية . ونسبة الهجرة الخارجية بين المسيحيين أعلى من نسبتها بين المسلمين وهذه الهجرة لها دعم مالي قوي لأبناء الطوائف والاقليات .

ومن اسباب الوضع السياسي الجيد للأقليات في البلاد العربية أن الحكومات العربية لا تشعر انها مهددة من قبلها ، بل بالعكس تجدها من العناصر الايجابية بالنسبة للدولة . ومن الناحية السياسية تجد أن الزعامات المسيحية غير طائفية (باستثناء لبنان طبعا) رغم أن الطائفية موجودة بين الناس. والسبب هو أن السياسي المسيحي يعرف أنه يجب أن يعمل مع المسلمين على الصعيد الاهلي او القومي لأن اكثرية المجتمع اسلامية . فاذا هو ظهر بطائفيته صار عمله صعبا ومستقبله السياسي ضعيفا . ولكن الوضع يتغير في لبنان حيث النسب الطائفية متقاربة . وانني اعتقد أن الطائفية في لبنان تظهر اقوى من الطائفية في فلسطين لظروفها الخاصة لا لأن اللبناني بطبيعته اكثر طائفية من الفلسطيني ، فالنعرة الطائفية مرض عام في الشرق العربي . في لبنان ، كما قلنا ، لا يوجد اكثرية دينية ساحقة كما هو الحال في فلسطين ، ولذلك فالوضع النسبي هناك يشجع التنافس السياسي بينما لا يشجعه في فلسطين . فالمسيحي في فلسطين ليس له مستقبل سياسي بدون المسلم لذلك نجد الزعامات المسيحية في الضفة الغربية مثلا غير طائفية سياسيا ، أما في لبنان فالزعامات السياسية طائفية لأن مستقبلها السياسي يعتمد على الوضع الطائفي في البلاد . واذا اردت ان ترى المنافسة عينها في فلسطين ، يجب أن تدرس الطائفية على المستوى المحلي لا على المستوى القومي . واحسن محل لهذه الدراسة هو منطقة رام الله ـ البيرة ؛ فرغم ضرورة دمج هاتين المدينتين في مجلس بلدي واحد لانهما عضويا مدينة واحدة ، الا اننا نجد

Digitized by Birzeit University Library

أن الامر صعب للغاية بسبب الوضع الطائفي . ومظاهر المنافسة بين البلدين موجودة في كل نشاط وفي كل ناحية من نواحي الحياة . وليس غريبا أن نجد رؤساء بلدية رام الله معروفين، على الصعيد العربي والفلسطيني ، اكثر من رؤساء بلدية البيرة والسبب هو أن رام الله مركز سكاني مسيحي أما البيرة فليست مركزا اسلاميا مهما ، بالمقارنة مع المدن الاخرى . ولذلك فرئيس بلدية رام الله يكون عادة زعيما على الصعيد الاهلي او القومي . وهذا الرئيس يلعب دورين: الدور الطائفي في المدينة والدور القومي في البلاد ولكل دور يلعبه سياسة خاصة واسلوب خاص .

والذي يجعل طائفية الفلسطيني اقل حدة من طائفية العرب الاخرين هو مأساة فلسطين . فالاشتراك بمأساة كبيرة كهذه يعطي الناس ادراكا جماعيا اقوى نسبيا من نظيره لدى الجماعات التي لا تشترك في مثل هذه المصيبة . فالمسيحي والمسلم الفلسطينيان لهما عدو مشترك هو العدو الصهيوني . وفي خارج الضفة الغربية والقطاع واجه الفلسطيني تهديدا من الاقليمية العربية وهذا اثر على طائفيته . ففي لبنان مثلا تجد الوحدة الفلسطينية قوية ولها تاريخ يجب أن نذكره . فبعد الحرب الاولى في فلسطين (عام ١٩٤٨) ذهب المسيحي الفلسطيني الى المناطق المسيحية في لبنان والمسلم الى المناطق المسلمة ، وكلاهما الى المناطق المختلطة طائفيا . ولكن في الحرب اللبنانية الاهلية التي بدأت عام ١٩٧٥ وجدنا تنقلات سكانية مهمة فالكثيرون من المسيحيين الفلسطينيين انتقلوا الى المناطق الفلسطينية المسلمة وذلك لشعورهم بخطر التهديد الماروني المسيحي . ففي وجه هذا الخطر وجد المسيحي الفلسطيني انه فلسطيني اولا ومسيحي ثانيا ، اي أن فلسطينيته كانت اقوى من هويته الطائفية .

Digitized by Birzeit University Library

والذي يجب أن نستنتجه من التحليل السابق هو أن المسيحي العربي عربي وأن مستقبله في القومية العربية شريطة أن تكون آيدولوجية هذه القومية دنيوية لا دينية ؛ فطائفيته لن تزول الا على هذا الاساس . ودنيوية القومية العربية لا يكون لها معنى الا بفصل الدين عن الدولة فصلا سياسيا وقانونيا ونفسيا .

وفي الحقيقة أن الاقليات التي تشكل الخطر الاكبر على القومية العربية ليست هي الاقليات الدينية ، باستثناء المارونية ، بل الاقليات الأثنية التي لها اتصال خارجي اجنبي ، كالاكراد واليهود الصهاينة ، او التي لها مراكز جغرافية مهمة كالبربر في شمال افريقيا والاكراد واليهود ايضا . ويجب ان نفرق بين البربر من ناحية واليهود والاكراد من ناحية اخرى لأن الاتصال الخارجي للبربري ضعيف خصوصا بعد استقلال دول شمال افريقيا . ويجب أن نتذكر أن البربر تاريخيا دخلوا الاسلام كجماعة لا كأفراد وقاتلوا مع العرب في اسبانيا وكانوا من دعائم التوسع العربي في تلك البلاد . وهم في المملكة المغربية كثيرون ، اكثر من ٣٥ بالمئة من السكان .

أما التدخل الاجنبي في شؤون الاقليات فله تاريخ طويل في العالم العربي ؛ وهو لم يكن مقصورا على الاقليات الاثنية بل تعداها الى الاقليات الدينية ايضا . والمستعمر استغل الطائفية في المنطقة الى درجة كبيرة ففي فلسطين مثلا كان يعطي الاولوية للمسيحي العربي مما سبب غيرة المسلم وانزعاجه . وحتى بالنسبة للاحصاءات الرسمية كانت بريطانيا تعتبر المسيحيين العرب وكأنهم قومية خاصة . وتاريخ الفرنسيين في لبنان وسوريا معروف بالنسبة لسياستهم الأقلية اذ حاول الفرنسيون انشاء كيانات سياسية على اساس

Digitized by Birzeit University Library

الطائفية ، ولكنها فشلت في سوريا ونجحت في لبنان .

ولكننا نخطىء اذا فكرنا أن الطائفية في العالم العربي خلفها المستعمر والصحيح أن المستعمر استغلها حيث وجدها وجعلها قوية حيث كانت ضعيفة . ان سبب الطائفية في الشرق العربي هو تضارب القومية مع الدين الاسلامي . فالدولة الاسلامية التاريخية ، بحكم كونها دولة دينية ، هي التي خلقت اسس الطائفية . والنظام الاسلامي وضع القواعد القانونية والسياسية للطائفية . أما القومية فهي التي جعلت الطائفية تتضارب مع الاسلام ، والمستعمر استغل هذا التضارب بجعله اساسا للنعرات الدينية . خذ مثلا الاقباط فهم طائفة مصرية عريقة يشعرون بقوميتهم المصرية (لا بقوميتهم العربية) وهم لا يشكلون مشكلة لهذه القومية الاخيرة الا عندما يقوى الشعور الاسلامي السياسي بين المصريين المسلمين . فالدين الاسلامي بمعانيه السياسية والاجتماعية هو الذي يخاف منه القبطي . ولكن الاقباط يشعرون بالطائفية لخوفهم من معاني الاسلام السياسية الا أن هذا الشعور لم يتطور الى نعرة لأن اتصال الاقباط بالمستعمر ضعيف جدا ولأنهم اقلية ضئيلة نسبيا .

Digitized by Birzeit University Library

(١) Myron Weiner, "Potitical Integration and Political Development," in Frank Tachau ed., The Developing Nations (New York: Dodd, Mead & Company, 1972), p. 67.

(٢) المصدر نفســـه .

(٣) Malcolm Kerr, The Arab Cold War (London: Oxford University Press, 1971).

(٤) K.C. Wheare Federal Government (London: Oxford University Press,1951).

(٥) عن الوحدة الايطالية اقرأ المؤلفيـن :

Bolton King, History of Italian Unity, two volumes, (New York: Russel & Russell, 1899).

والمؤلـف الآخـر :

Christopher Seton - Watson, Italy From Liberalism to Fascism 1870 - 1925 (London: Mathuen & Co. Ltd., 1967).

(٦) اكرم زعيتر ،"العروبة في مصر" مجلة العربـي آذار ١٩٧٩ ، صفحات ٦ – ١٢ .

(٧) Jamal Mohammed Ahmed, The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism (London: Oxford University Press,1960).

(٨) Robert P. Clark, Power and Policy in the Third World (New York: Wiley, 1976), P.49.

Digitized by Birzeit University Library

(٩) عن نظام الاقطاع :
Illiya F. Harik, "The Iqta'System in Lebanon," The Middle East Journal, XIX, 4(1965), 405.

(١٠) Charles Issawi, "Economic Development and Liberalism in Lebanon," The Middle East Journal XVIII,3 (1964), 287.

(١١) Elie Salem, Modernization Without Revolution (Bloomington, Ind. :Indiana University Press, 1972).

(١٢) مترجمة عن هيرزن في :
Robert C. Tucker, The Mqrxian Revolutionary Idea (London: George Allen & Unwin Ltd., 1969), P. 117.

(١٣) حسن عايش وعيسى ابو شيخة ، المجتمع العربي ، ١٩٧٥.

(١٤) مجموع البدو في ليبيا والسعودية والعراق والجزائر والسودان وسوريا والاردن والمغرب وتونس ومصر لم يتجاوز ١٫٦٠٥٫٠٠٠ نسمة .
الدكتور صلاح الدين بحيري ، جغرافية الصحاري العربية ، ١٩٧٢ .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل السادس

Digitized by Birzeit University Library

البيروقراطية والأيدولوجية والأحزاب في التطور

لا شك أن هذه العناصر الثلاثة البيروقراطية والآيدولوجية والاحزاب مهمة للغاية في تنظيم التطور العصري وفي مجهوده . والبيروقراطية الحكومية تزداد اهميتها في التطور الاشتراكي بخاصة اذ لا يمكن لهذا النوع من التطور ان ينجح دون جهاز دولة فعال . وفي الحقيقة أن سبب فشل هذا النوع من التطور في كثير من اقطار العالم الثالث الاشتراكي ، في مصر في عهد عبد الناصر مثلا ، هو ضعف البيروقراطية الحكومية . ومن البديهي ان لا يحصل التطور الاشتراكي ، او التطور عن طريق الدولة ، قبل أن يعاد تركيب النظام الاداري لهذه الدولة بطريقة تضمن فعاليته وقدرته على تحمل هذه المسؤولية المهمة . والآيدولوجية لها اهمية نفسية في التطوير ، ولها منافع واقعية ايضا . أما الأحزاب فهي مهمة في تنظيم الجماهير في اتجاه اهداف التطور وفي كونها حلقة الوصل بين الجماهير والسلطة السياسية المسؤولة عن التطور . في هذا الفصل سندرس مشاكل كل من هذه العناصر الثلاثة وعلاقاتها بالتطور والتحديث .

البيروقراطية

نظرة العربي للسلطة السياسية سلبية ، وهناك اسباب عديدة لذلك ؛ أولها تأثير الكولونيالية فيما قبل عهد الاستقلال . وهذا شيء بديهي اذ أن السلطة الكولونيالية كانت سلطة اجنبية غريبة عن العربي من وجهة ثقافتها ومن وجهة قوميتها ، فكان تحقيق الذاتية identification مستحيلا للعربي الا في المملكة العربية السعودية حيث كان مستقلا سياسا . وقبل الكولونيالية الاوروبية كان تحقيق

Digitized by Birzeit University Library

الذاتية ممكنا تحت الحكم التركي الاسلامي لمعظم العرب المسلمين لأن الهوية الاسلامية كانت سياسيا اقوى بكثير من القومية العربية التي لم تظهر حتى آخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وعند ظهورها كان تأثيرها مقصورا على الطبقات العليا في المجتمع العربي الاسلامي وعلى الاقليات التي لم تستطع الشعور بالذاتية تحت الحكم الاسلامي التركي . وبظهور الشعور القومي اصبح العربي يشعر بأنه غريب في الدولة التركية ، وقد كان هذا من اسباب قيام العرب بالثورة ضد الاتراك .

وبعد انتهاء الكولونيالية الأوروبية استمرت النظرة السلبية للسلطة رغم حصول الشعوب العربية على الاستقلال . والسبب هو أن الحكومات العربية التي جاءت بعد الكولونيالية كانت من الطبقة العليا التي لم يكن لها نظرة تطورية لأنها زراعية تقليدية ، وبعيدة عن المسؤولية نحو الجماهير لأن ملكيتها خاصة واقطاعية . وهذا الوضع كان عاما خصوصا في البلاد التي حصلت على استقلالها قبل الحرب العالمية الثانية . ولكنه يوجد على درجات ، ففي الجزائر ، كان الفرنسي اكثر من كولونيالي لأنه كان يطمع في استيطان البلاد وقلب وجهها العربي الى فرنسي . والقيادة الجزائرية التي هزمت قواه كان فيها عناصر كبيرة من الطبقة المتوسطة والثورة اعطت هذه القيادة نظرة تطورية للبلاد رغم أن هذه النظرة لم تكن راديكالية كثيرا . وكيانات الخليج تختلف في نظرة اهلها للسلطة عن باقي البلاد العربية . فالنظرة هناك كانت قبلية ومعنى ذلك أنها نظره مجزأة وغير مركزة . وبعد استقلال هذه الكيانات وحصولها على الثروات الطائلة صارت نظرة الأهالي للسلطة ايجابية ولكنها استمرت في قبليتها وبقيت ضعيفة من الوجهة القومية العربية ، وهذا يظهر واضحا بتمسك الخليجي بثروته وخوفه عليها من العرب

Digitized by Birzeit University Library

الآخرين رغم انه يعطي من هذه الثروة لجيرانه العرب ولكن هذا العطاء هو بشكل هبة هدفها موازنة القوى السياسية في المنطقة .

واستمرت السلبية في النظرة العربية الى السلطة رغم الانقلابات العسكرية وتغير التركيب الطبقي لها . فالنظام المدني التقليدي انتهى في سوريا عام ١٩٤٩ ولكن انقلاب حسني الزعيم والانقلابات التي جاءت بعده كانت تقليدية ايضا لأنها لم تكن سلطات مهتمة بتطوير البلاد . فالنظرة التطورية بدأت في عهد الشيشكلي الذي احدث تطورا في الزراعة نتيجة استعمال القطن لأول مرة . ولكن هذه النظرة التطورية كانت محدودة للغاية . ولم تصبح قوية الا في عهد البعثيين وحتى في هذا العهد فهي لم تتعد الاقتصاد والسياسة ولم تؤثر على الأساليب التربوية التقليدية وعلى الثقافة العامة خارج الآيدولوجية السياسية .

والسلبية نحو السلطة متأثرة بالتناقض بين الاقليمية والقومية العربية فالكيانات العربية القائمة تستمد شرعيتها من الاقليمية ولكن ادعاءها بأن اهدافها قومية عربية بسبب ازمة ثقة عند المثقفين والعصريين في البلاد وعند المؤمنين بالقومية العربية فهؤلاء الناس لا يثقون بحكوماتهم لأنها تكذب والذين يدعمونها منهم هم الذين ينتفعون منها ولكن دعمهم لها اساسه المصلحة الفردية وليس القناعة النفسية بشرعيتها وقانونيتها .

وسبب آخر للسلبية هو دكتاتورية السلطة السياسية . فمعظم الناس في البلدان العربية لا يشعرون بأن حكوماتهم هي لهم لأنها لا تمثلهم ولأنهم لا يشتركون في اختيارها او في رسم سياستها . وهم على العموم يعتقدون أن اصحاب

Digitized by Birzeit University Library

السلطة لا يهتمون الا بمصالحهم الخاصة وببقاء السلطة في ايديهم . وهذا الشعور قوي في بلاد الهلال الخصيب وفي السودان ولكنه ليس قويا في بلاد الخليج العربي حيث يتمتع الناس بمستويات مادية عالية . وهو موجود في شمال افريقيا لكن حدته اقل من حدته في الهلال الخصيب الا في المملكة المغربية حيث اشتراك الناس في الحكم ضعيف

في الهلال الخصيب يوجد ادراك قوي بعدم وجود الحريات الأساسية وبقساوة السلطات السياسية ، وهذا الشعور سببه ، في سوريا والعراق ، كثرة الانقلابات . فكثرة الانقلابات كانت سببا مهما لقلة الثقة بين الناس والحكام . وفي الحقيقة ان الانقلابات عزلت الناس عن السياسة لأن الأنظمة هناك صارت بريتورية praetorian ، ولا ندري الى متى ستدوم هذه الحالة .

ما قلناه عن الدكتاتورية لا يعني أن كل شعب تحكمه دكتاتورية تكون نظرته للمؤسسات السياسية سلبية اذ هنالك شرطان لتصير الدكتاتورية ايجابية : الشرط الاول أن تكون تطورية اي ان هدفها المصلحة العامة ورفع مستوى الناس المادي والروحي ، والشرط الثاني أن تستجيب لرغبات الناس القومية ولمطالبهم . فمن الحكام الدكتاتوريين من يتحسس رغبات الناس ومطالبهم القومية ومن عنده القدرة على ترسيخ الثقة في الناس . ولكننا نؤمن بأن الدكتاتورية هي مخاطرة لأن الدكتاتور الصالح هو صدفه . ورغم هذا الايمان فاننا نعترف أن الناس تجاوبت مع عبد الناصر وخلال معظم فترة حكمه كانت النظرة للسلطة السياسية عند الناس ايجابية. ومن المحتمل أن يخرج العراق من بريتوريته اذا نجح في مشاريعه التطورية قبل حصول انقلاب آخر . وربما كانت الجزائر قد نجحت في تعديل نظرة الناس للسلطة السياسية لأن

Digitized by Birzeit University Library

حكومتها في عهد بومبدين كانت تطورية . وفي ليبيا الآن حكومة ثوروية مهتمة بالبلاد وبالمصلحة العامة ولكن من غير المعروف ما اذا كان الوضع فيها سيستقر ام أنها ستظل في مرحلة طويلة من التخبط .

والنظرة السلبية لها اسباب في تجزئة المجتمع بين ريف ومدينة ؛ فسكان المدن عادة يشعرون بعدم الاكتفاء اي أن حكومتهم لا تعطيهم الكفاية ولا تقدم لهم الخدمات الضرورية ، وأما الريف فانعزاله النسبي هو سبب في جهله لمعنى المؤسسات السياسية ولا سيما القومية منها ، وليست فيه قيادات قومية سياسية لتوجيهه . واكثر أبناء الريف سلبية نحو المؤسسات السياسية هم النازحون منهم الى المدينة ، وخاصة العاطلين منهم عن العمل لأن اعتمادهم على المؤسسات قوي ، وعندما تكون هذه المؤسسات ضعيفة وغير قادرة على اشباع رغباتهم تصير علاقتهم بها صعبة . ولكنهم قلما يعبرون عن سلبيتهم سياسيا الا اذا توافرت لهم الظروف التي من اهمها القيادة . وهم يعبرون عن سلبيتهم عن طريق الجرائم وخرق القوانين أو التستر بالدين .

وأخيرا يجب ذكر سبب مهم للسلبية في العالم العربي وهو النزاع العربي الاسرائيلي . فهذا النزاع اظهر فشل الكيانات العربية بجميع مؤسساتها السياسية بغض النظر عن توعيتها . والفشل يسبب عدم الثقة واستمراره لمدة طويلة يسبب عدم المبالاه في السياسة . والنزاع العربي الاسرائيلي كان من نتائجه اظهار عجز العرب وتقوية مركب النقص فيهم ، فهو يذكرهم بتخلفهم لأن عدوهم حجمه صغير وقوته كبيرة ، ويذكرهم بكثرة مشاكلهم واستحالة وضعهم . فمنهم من يتناسى القضية الفلسطينية او يلوم غيره على عجزه او يصلي لله ويطلب منه المعونة او لا يكترث بالمرة .

Digitized by Birzeit University Library

الموظف المسؤول: ان الموظف العربي لا يفهم معنى "الخدمة العامة" public service أي انه لا يشعر بالمسؤولية نحو الناس؛ فهو يهتم بمركزه اكثر بكثير من اهتمامه بالخدمة العامة؛ فالوظيفة عنده هي مركز ومعاش لا اكثر ولا اقل. وربما كان المركز في نظره اهم من المعاش لأن المركز له مظاهر مرئية، اما المعاش فمظاهره تقع خارج الوظيفة نفسها. وفي الحقيقة يمكننا أن نؤكد انه كلما قل المعاش كلما زادت اهمية مركز الوظيفة التي يدخلها عادة حجم الطاولة التي يجلس الموظف عليها وما اذا كان عليها تليفون او لا، او اذا كانت للموظف غرفة خاصة في الدائرة او لا، أو اذا كان له رتبة او تصنيف للوظيفة او لقب يدعم مركزها. فالموظف صاحب المعاش القليل يرى هذه المظاهر مهمة للغاية وذلك لأنها تستره وتغر الناس فيه فتراه يصرف الكثير من معاشه ليزيد في هذه المظاهر من مثل اللباس الرسمي كأن يلبس البدلة والربطة والقميص الابيض كل يوم وكل ساعة وحتى في ايام الحر التي لا تطاق. وعلى العموم، يكره الموظف أن يستعمل يديه في اي عمل، فالوظائف التي تطلب استعمال الأيدي محتقرة لأن الناس يحتقرونها، والوظيفة المفضلة هي التي تأتي معها الطاولة، والتليفون وهي مفضلة على الوظائف التي تتطلب العمل بالايدي حتى ولو كان معاش الاخيرة اكبر.

ويتوقع الكثيرون من الموظفين أن يظهر الناس احترامهم وتقديرهم لهم. والاحترام عند العرب له لغة خاصة ومظاهر خاصة ولا يقتصر على السلوكية فقط. أما اللغة فتسمعها في عبارات "يا سيدي" "يا بيك" وعبارات التوسل خصوصا من قبل الفقراء، وعبارات المدح والمنافقة خصوصا عند غير الفقراء، والدعاء له ولأولاده بطول العمر أو الدعاء له

Digitized by Birzeit University Library

بكثرة الاولاد او الزواج من بنت حلال اذا كان غير متزوج . ومن الموظفين اصحاب المسؤولية من يظهر مركزه وعظمته باهانة الناس والصياح في وجههم وهذا طبعا يكون بالنسبة للناس الفقراء او "العاديين" . ومن المسؤولين من يتعمد تأخير أعمال الناس ليظهر اهميته فتجد الناس ينتظرون خارج مكتبه بينما هو جالس مع صديق او شخص ذي مركز اجتماعي او مع قريب يشرب القهوة ويتحدث عن امور لا علاقة لها بعمله . وقلما تجد في دوائر الحكومة غرفة انتظار تعبر عن احترام الحكومة للناس او عن أن السيادة هي للشعب أو أن الناس يدفعون الضرائب وبذلك يدفعون معاش الموظف المسؤول . ومن مظاهر الأهمية بالنسبة للموظف المسؤول ان يتعمد احيانا اصدار الأوامر السلبية وذلك برفض طلب أو معاملة . والقصد من ذلك هو حمل صاحب الطلب او المعاملة على الترجي والتوسل أو دفع الرشوة في بعض الاحيان . والرفض له اهمية نفسية اذ يشعر المسؤول بأنه صاحب السلطة وبأنه قوي وأن له تأثيرا وسيطرة على حياة الناس .

يعتبر الموظف نفسه في علاقة مع الناس وكأنه هو الحكومة وليس كموظف حكومة فحسب ، وهذا الاعتبار على درجات وهو قوي عند الجندي وضابط الجيش والشرطي ، فهؤلاء يسلكون وكأنهم هم المشرعون والمنفذون والقضاة في آن واحد ، ومنهم من يضرب الناس ويهينهم ظنا منه أنه هو الدولة . والضابط يرى مسؤوليته ليس في الدفاع عن الوطن ضد اعدائه الخارجيين بل في الدفاع عن الحكومة ضد اعدائها الداخليين ، الا في حالات خاصة حيث تجد ضباطا يرون مسؤوليتهم في الدفاع عن وطنهم ضد حكومتهم وهذا النوع من الضباط يشكلون المواد الخام للانقلابات العسكرية وهم من اسميهم الضباط السياسيين . والحكومة بالنسبة للموظف هي السلطة ، والسلطة بالنسبة له معناها اصدار الاوامر وارغام الناس على الطاعة لأنه ، حسب

Digitized by Birzeit University Library

تفكيره ، هو الذي يصدر الاوامر ومن حقه ارغام الناس ومن واجب الناس الطاعة . من هذا يتبين لنا أن الحكومة شيء والناس شيء اخر ، اي ان الاثنين منفصلان ، والمفهوم الديمقراطي القائل ان الحكومة للناس غير موجود ، وربما استطعنا القول ان الحكومة ترى ان الناس لها وليس العكس ، فهي تطلب ولاءهم دون أن ترضخ لارادتهم . ففي العالم الديمقراطي ، ينتخب الناس حكوماتهم ويعطونها ولاءهم ما دامت ترضخ لارادتهم عن طريق الانتخابات . أما في العالم العربي ، بعكس ما هو الحال في العالم الديمقراطي ، فان الانتقاد يعني عدم الولاء او ربما الخيانة . والولاء عند العرب معناه ينصرف للاشخاص وليس للمؤسسات لأن المؤسسات على العموم ليس لها مفهوم قوي عندهم .

ولأن مفهوم الموظف للخدمة العامة ضعيف فانت تجده يعتزل المجتمع اذا كانت في يده بالفعل مسؤولية كبيرة . والغريب أن طباع الناس تتكامل مع طباع الموظف . واذا سلك الموظف بطريقة تختلف عن الطريقة التي اعتادوا عليها حدث لدى الناس رد فعل سلبي ؛ فمثلا الموظف او المسؤول الذي يعتبر نفسه خادم الناس يعامله الناس كخادم ومن الناس من يظن انه لا يحترم نفسه . وبالعكس اذا اصر احد الناس على أن يعامل كمواطن بالاحتجاج على سلوك موظف ما او بطلب السرعة بمعاملة ما وجد رد فعل سلبي من قبل المسؤولين والموظفين الذين ربما أخروا معاملته او طردوه من المكتب او الدائرة . واذا لم يكن شخصا ذا مكانة في مجتمعه اهانوه وربما ضربوه . طبعا هذه الطباع وهذه المشاكل لا تظهر في كل لحظة وفي كل دائرة حكومية ولكنها تظهر بما يكفي لأن تعتبر طباعا عامة ومشاكل قومية . وحتى معلم المدرسة ينسى مسؤوليته التربوية لمصلحة مركزه الاجتماعي وسلطته على التلاميذ .

Digitized by Birzeit University Library

ويختلف سلوك الموظف مع الأجانب ومع ذوي المراكز الاجتماعية ، فهؤلاء لا ينتظرون دورهم في المعاملات الرسمية بل يدخلون مكتب المسؤول رأسا . وفي بعض الأحيان لا يكتفون بهذا فتراهم يأخذون دور غيرهم ويؤخرون معاملتهم اذ يجلسون مع المسؤول يشربون القهوة والمرطبات ويتحدثون بما ليس له علاقة بالوظيفة او المسؤولية التي جاؤوا من أجلها . والموظف يشعر بالسعادة والأهمية الكبيرة عندما تزوره شخصية مرموقة .

ولا بد أن نذكر الموظف العصري الذي نجده هنا وهناك وكأنه الجندي المجهول . هذا الموظف الذي يشعر بالمسؤولية نحو الناس ويعتبر نفسه خادمهم هو نادر في التنظيم العربي البيروقراطي وحياته صعبة للغاية لأنه عرضة لانتقادات الناس ورؤسائه وزملائه . فهم ينظرون اليه كغريب أو "عامل فيلسوف" او "مصقع" كما يقول أهل بلدتي جنين (الضفة الغربية) . ولكن تجد بين هؤلاء العصريين من ينجح في اكتساب احترام الناس خصوصا بعد مدة من الزمن يبرهن خلالها على أخلاصه واخلاقه العالية . ولكن في معظم الأحيان تجد مثل هذا الموظف يخرج من عمله يائسا من الوضع الذي وجد بلاده فيه ومن عقلية الناس السلبية التي تستمر على حالها من جيل الى جيل رغم ادراك الناس لها ولقساوتها .

وربما كانت البيروقراطية المصرية أسوأ البيروقراطيات العربية ؟ فهي من اقدم البيروقراطيات في العالم ، والاهرام تدل على ذلك ، وهي ايضا أقلها انتاجا وفعالية . وجميع المشاكل والنظرات التي بحثناها موجودة فيها بكثرة ويحده . وانني اعتقد انها كانت من أسباب فشل عبد الناصر في تطبيق النظام الاشتراكي اذ ان هذا النوع من النظام يحتاج الى بيروقراطية فعالة .

Digitized by Birzeit University Library

وربما وجب أن نتساءل عن احوال الناس اذا كانت البيروقراطية سيئة لهذه الدرجة . انهم يضيعون الوقت الكثير ويشعرون بالعذاب الكبير بسبب البيروقراطيات العربية ، فتجدهم ينتظرون في الدوائر وينتقلون من دائرة الى دائرة ويعودون مرارا الى المكان نفسه قبل أن يتم عملهم وتنتهي معاملتهم . ومنهم من يتعذب ويهان بسبب الروتين الحكومي لدرجة انهم يشعرون الشعور القوي بأن ليس في الحكومة من يهتم بهم ولا حتى بانسانيتهم . وحيث أن العربي لا يشترك في صنع القرارات والسياسات الحكومية فانت تجده يطور الوسائل والطرق ليحمي نفسه من عملية تنفيذ هذه القرارات ، خصوصا السلبية والضارة منها . وهناك طريقتان معروفتان في جميع انحاء البلاد العربية ، وهما الرشوة والوساطة . والرشوة معترف بها أدبيا ولكنها في الواقع منتشرة لدرجة انها عارت مؤسسة institution وهي رغم عدم شرعيتها وعدم اخلاقيتها لها ثقافتها الخاصة ، يتوقعها الراشي والمرشي وتخضع لقواعد ونظام خاص(١) . والناس يعتقدون بأن السلطة او الوظيفة ، خصوصا على المستويات العالية كالوزارة ، هي الطريق والوسيلة للغناء الفاحش . ومنهم من يقول أن ستة أشهر في الوزارة تكفي ليصير الشخص مليونيرا . وهناك طريقتان للرشوة : الرشوة عن طريق الوسيط ، وهذه الطريقة بسيطة فبعد أن يجد الراشي الوسيط اما عن طريق السمعة او عن طريق المعرفة او عن طريق الأخرين يعطيه الرشوة والوسيط يسلمها للموظف الذي يطلبها . هنا الراشي لا يهتم الا بانهاء المعاملة والحصول على مطلبه بغض النظر عن الطريقة والاسلوب والاشخاص من المرتبطين بالعملية . وفي بعض الأحيان لا يعرف الراشي المرشي فالوسيط هو الذي يدبر الأمور من أولها لآخرها . وفي هذه الحالة يكون الوسيط محترفا ولذلك فله قسط كبير من الرشوة ، والوساطة بالنسبة

Digitized by Birzeit University Library

له هي تجارة او حرفة . والطريقة الثانية هي ما اسميها الطريقة الداخلية لأن المرتشين والوسطاء كلهم زملاء في نفس الدائرة او الوزارة . ففي مصر ربما كان الفراش هو بداية سلم الرشوة اذ أن هذه العملية تبدأ عادة بموظف بسيط . وهذا الموظف يوزع الرشوة على الآخرين حسب اتفاقية (طبعا غير رسمية) سابقة . والمبالغ التي تخص المرتشين لها علاقة بالرتب فالأعلى يأخذ الاكثر . وهذه الطريقة شائعة في مصر اكثر من غيرها ولكنها موجودة في جميع البلاد العربية وهي مرتبطة بمعاملات خاصة ، مثل الحصول على رخصة سياره ، تغيير اوراق الطابو لحرمان امرأة من حق الأرث ، وفي لبنان حتى الجنسية اللبنانية تخضع لهذه الطريقة ولكنها اكثر تجاوبا مع طريقة الوسيط والوساطة الخارجية .

وفي لبنان ترضخ قيمة الرشوة للسوق التجارية فتجد المعاملة لها سعرها وهذا السعر متأثر بالعرض والطلب . وكما قلنا فان الحصول على الجنسية اللبنانية يتطلب الرشوة ، وكانت الشائعات عام ١٩٧٤ تقول ان الجنسية اللبنانية "تشترى" بستين الى سبعين الف ليرة لبنانية . ولا ندري اذا كان هذا صحيحا ، ولكننا متأكدون من حقيقة بيع الجنسية ووجود الرشوة .

وهناك طريقة ثالثة ولكنها خطرة ، بمعنى انها توقع الراشي بالمشاكل ، وهي الطريقة المباشرة حيث يعرض الراشي الفلوس على الموظف المسؤول فاذا قبل انتهت العملية والا نشأت المشاكل . وعادة تكون العملية بسيطة والمسؤول عنها شخص واحد وهذا النوع من الرشوات يحصل على المستويات المتدنية اكثر منه على المستويات العالية

واذا قارنا الرشوات في العالم العربي بمقابلها في العالم

Digitized by Birzeit University Library

الغربي على اساس ما ينشر في الجرائد في هذا العالم الاخير نجد ظاهرة مهمة ، وهي أن الرشوة منتشرة في العالم العربي اكثر من العالم الغربي . ففي العالم العربي تكاد الرشوة تكون جزءا من النظام البيروقراطي وهي كذلك في مصر . أما في العالم الغربي فالرشوات قليلة على المستويات الدنيا وتكثر كلما ارتفع المستوى وكبر المبلغ . الاميركي مثلا لا يسرق على العموم الا اذا استحقت السرقة المجازفة والمخاطرة من قبله . فسرقات الأميركان كبيرة ومعقدة تحتاج الى الخبرة والمعرفة الكيفية . وطبعا خارج العمل البيروقراطي ، السرقة في امريكا تميل الى الاحتراف ، وبعكس الشرق العربي فان السرقات الصغيرة التافهة قليلة وكذلك الرشوات . والسبب هو أن مقاييس الاخلاق moral standards تكون قوية في الطبقة الكبرى وهي الوسطى ، وضعيفة في الطبقتين الدنيا والعليا : في الدنيا بسبب الفقر وفي العليا بسبب كثرة المادة وطمع الغني بها . أما مقاييس العرب الاخلاقية فهي دينية وحياتهم العصرية المادية هي اليوم بدون مقاييس اخلاقية لأنها بدون قاعدة آيدولوجية دنيوية او لأنها لا تنطلق عن القيم الدينية ، بالأضافة الى صغر الطبقة الوسطى التي هي عادة أقوى الطبقات تمسكا بالمقاييس الاخلاقية وذلك لقلة الضغط الواقع عليها ، ضغط الفقر وضغط اغراء المادة .

والطريقة الثانية التي يتحدها الناس لحماية انفسهم من قرارات لم يشتركوا في صنعها هي الوساطة وهذه الطريقة تختلف عن الرشوة بأنها معترف بها وبأنها لا تعتبر ضد المقاييس الاخلاقية . والوسيط يكون عادة صاحب نفوذ اما عن طريق القرابة او الصداقة او المركز الاجتماعي . وفي بعض الاحيان يحتاج المواطن عدة وسطاء : وسيط للوسيط ، ووسيط لوسيط الوسيط وهكذا . وكلما كان المواطن فقيرا كلما وجد نفسه بين عدة وسطاء ، هذا اذا وجد وسيط

Digitized by Birzeit University Library

الوسطاء او الوسيط الاول . وفي الحقيقة أن نظام الحماية كله يضعف كلما نزلت في السلم الاجتماعي والطبقي . فالفقير ليس له حماية الا القليل لأن الرشوة تحتاج الى المال وهي لذلك مستحيلة بالنسبة له . أما الوساطة فهي ممكنة خصوصا في الجماعات التقليدية القديمة وفي المناطق الزراعية ، فالفلاح يذهب الى الملاك وابن العائلات القديمة ليطلب وساطته وهذا الملاك يشعر بالمسؤولية الشخصية نحوه لأنه ما زال متأثرا بالنظام شبه الاقطاعي القديم . ولكن فقير المدينة لا يستطيع أن يرشو وليس له وساطة وهو أقل الناس حماية . ولأن المجتمع العربي ما زال تقليديا فانا نجد المؤسسات الثانوية فيه ضعيفة ، وهذه المؤسسات الثانوية كالجمعيات الخيرية ، والضمان الاجتماعي ، وجمعيات الحماية لحقوق المواطن ، وجمعيات الشكاية ، وجمعيات حماية المستهلك ، والنقابات ، تكون قوية في العالم الأول المتقدم . ولكنها في العالم العربي ، والعالم الثالث على الاجمال ما زالت في مرحلة التكوين وهي ضعيفة نسبيا . ونتيجة لذلك نجد الفقير بدون حماية أو بحماية ضعيفة ، كما قلنا .

والوساطة ضرورية في كل شيء تقريبا : اذا اردت وظيفة أو اذا اردت أن تدخل الجامعة ، أو اذا اردت رخصة سيارة أو دخول مستشفى في وقت قريب . وعادة تستعمل الوساطة للوصول الى هدف غير مشروع أو للوصول الى هدف مشروع لا يستحقه من يستعمل الوساطة . وفي بعض الاحيان ، تستعمل الوساطة لتقليل المنافسة على الشيء المطلوب ، أو لتفضيل شخص على آخر ، او للحصول على شيء نادر أو قليل . وفي كثير من الاحيان تكون الوساطة ضرورية للحصول على حق يهدده الآخرون ، وهذا شأن الفقير والضعيف في المجتمع العربي .

وكلما كان الانسان محدودا اما ماديا أو ثقافيا

Digitized by Birzeit University Library

كلما احتاج الآخرين لمساعدته . فالفقير هو أحوج الناس للمساعدة واتكاله على البيروقراطية اكثر بكثير من غيره فهو يتكل عليها لأشياء اساسية . واذا زرت دائرة حكومية لها علاقة بالحاجيات الأساسية تجد الناس العاديين والفقراء ينتظرون باعداد كبيرة . وحيث ان الفقير تستطيع معرفته بالمنظر واللباس فانك تراه ولا ترى الميسور الحال الا نادرا وعادة يكون هذا الشخص الميسور غريبا او انتظاره قصيرا . وتسمع الصياح في الدائرة وتلاحظ المعاملة السيئة لهؤلاء المساكين ولكن الوضع معقد فلا تستطيع أن تلوم البيروقراطي لصياحه وسوء معاملته للمواطنين العاديين لان اللوم يجب أن يوجه للعقلية والنظام والطريقة . فالمواطن العادي يشعر بالضعف ولذلك تجده لا يسير بالنظام اما لأنه غير معتاد عليه في حياته العادية البسيطة أو لأنه لا يثق به ويظن انه موضوع ليس لمصلحته بل لمصلحة القوي . فتراه يصيح هو ايضا ولا يأخذ دوره ولا يخضع للتعليمات التي لا يفهمها . ونتيجة لذلك تجد الموظف يصيح عليه والشرطي يجذبه وفي بعض الاحيان يضطر لضربه . وانك تسمع الشتائم والاهانات من هذا الشرطي ولقد اعتاد الناس على هذه الفوضى فالشرطي يصيح ويهين الناس حتى عندما لا يكون هنالك سبب لذلك . والمواطن يحاول أن ينافس ويأخذ دور غيره حتى ولو لم يكن لديه سبب لذلك . واصبحت هذه العلاقات وهذه الطباع والفوضى دائرية لا تعرف اولها من آخرها ولا تعرف من تلوم او لا تلوم عليها . ولكن يجب أن نتذكر أن المواطن العادي لم يشعر بالضعف الا لأسباب مهمة وأن البيروقراطية هي الأقوى وإن لم نستطع تعليل الحالات الخاصة الا اننا نلوم النظام البيروقراطي والتركيب الاجتماعي لوجود هذه المشاكل وهذه العقلية وهذه الفوضى .

Digitized by Birzeit University Library

المتقدمة ، خصوصا في بلاد كأمريكا .

والروتين الحكومي معقد للغاية ويتطلب وقتا اكثر لأن الدوائر الحكومية منتشرة في جميع انحاء العاصمة وليس هناك تركيز في البناء الرسمي اي الحكومي في العواصم العربية ، كما هو الحال في واشنطن مثلا . ومن اسباب التعقيد عدم الثقة في الموظف خصوصا في المعاملات المالية . فالمعاملات الرسمية تفترض أن كثرة التواقيع ضرورية لضمان الأمانة لأن العدد الكبير هو اكثر أمانة من العدد الصغير الا في المعاملات التي يشترك فيها مسؤولون كبار اي على مستويات عالية جدا . وهذه المعاملات الأخيرة لها علاقة بالاقوال الكثيرة وبالسلطة الكبيرة . وهناك منافسة بين المسؤولين في المستويات العليا على حق التوقيع على المعاملة ؛ فالتوقيع يدل على اهمية الموقع ومركزه في السلطة وعلى اهمية دائرته في الوزاره واهمية الوزارة في البيروقراطية ككل . وكثرة التواقيع تصعب الامور وتزيد في تعقيدها خصوصا في بيروقراطيات تكون المسؤوليات فيها غير واضحة .

ويلاحظ أن العلاقات الادارية يسيطر عليها العنصر الشخصي والولاء الشخصي. فالموظف يحاول أن يحافظ على وظيفته باظهار ولائه الشخصي لرئيسه ،والرئيس يحاول مكافأة مثل هذا الموظف. والنظام كله يتصف بمثل هذه العلاقات . كل مستوى اداري يحاول ارضاء المستوى الذي فوقه ولا يهتم بالمستوى الذي دونه الا في اطار التبعية . لذلك تجد في التنظيمات العربية الادارية العلاقات العليا اقوى من العلاقات الدنيا وذلك لأن الموظفين يهتمون بالمصلحة الشخصية اكثر بكثير من اهتمامهم بالمصلحة العامة وبواجباتهم الادارية . فالقاعدة الادارية تكون دائما ضعيفة ، ولذلك نجد أن البيروقراطية العربية غير منتجة . والترقية في البيروقراطية متاثرة كثيرا

Digitized by Birzeit University Library

بالعنصر الشخصي ، أما الكفاءة فلها منزلة ضئيلة . وهذا من الاسباب المهمة لبقاء الكفاءات خارج البلاد وفقدان الحيوية في التطور العصري داخل البلاد .

والمسؤول عادة لا يوظف في مؤسسة من هو اكثر كفاءة منه او من هو معروف اكثر منه لأنه لا يريد المنافسة خوفا من ضياع الفرص السانحة له للترقية والتقدم المادي او خوفا من ضياع الوظيفة . فامكانية المؤسسة العربية محدودة بامكانية المسؤول عنها . ومن المعلوم أن المسؤول الاداري الكفء هو الذي يستغل الكفاءات بعد أن يجدها وينظم قواها وذلك بتهيئة الجو والظروف لانطلاقها الخلاق . واذا كان هذا هو مقياس الادارة الجيدة فاننا نعتقد أن المؤسسات العربية ينقصها الكثير من المسؤولين والاداريين المنتجين .

وهذه المشكلة طبعا لها علاقة بعملية الاستيعاب التي ذكرناها سابقا ، وهي عملية ايجاد واستغلال الكفاءات بطريقة فعالة ونافعة . وهي ايضا عملية جمع المعلومات قبل اتخاذ القرارات وتطبيقها . وكما قلنا فان العربي يخاف من الاستيعاب لأنه يخلطه بالديمقراطية فهو يظن أن العملية الديمقراطية وعملية الاستيعاب هما عملية واحدة . ولأنه سلطوي وغير ديمقراطي فهو لا يستوعب ، ولأنه لا يستوعب فهو لا ينتج . ولأنه ينظر الى ما فوقه وليس الى ما تحته فأنت تجد المستويات السفلى مشغولة بالتملق او الحسد والتآمر . وهناك مشكلة ثقافية فالعربي يحاضر اكثر من أن يصغي ويجب ان يبرهن انه هو الذكي "والشاطر" ولا يسمح لغيره بأن يبرهن انه ذكي "وشاطر" لأن ذكيين وشاطرين ، حسب نظرته ، لا يمكن ان يسعهما مكان واحد . وانني اعتقد ان هذا الطبع اساسه التربية البيتية فالأب لا يسمح للطفل وللشاب والشابة ان يعبروا عن آرائهم فهو يحاضرهم ويتخذ كل القرارات المهمة في

Digitized by Birzeit University Library

مشاكل بيروقراطية خاصة: المؤسسات السياسية او النظام السياسي يتطور وينمو ببطء في العالم ولكن البيروقراطية تنمو بسرعة اكثر . ويقول البروفسور رجز Fred W. Riggs أنه اذا كان نمو النظام السياسي ابطأ من البيروقراطية أو اذا كان نمو البيروقراطية سريعا جدا وقبل اوانه فان تطور العمل السياسي الفعال يكون ضعيفا للغاية (٢). وبالنسبة له فالعكس صحيح ايضا ،وهذا معناه انه اذا كان تطور المؤسسات البيروقراطية ضعيفا فان تطور المؤسسات السياسية يكون قويا. وفي العالم العربي نجد المؤسسات السياسية ضعيفة بينما المؤسسات البيروقراطية قوية وسريعة النمو. ولذلك نجد هناك تحالفا قويا بين الدكتاتورية والبيروقراطية في جميع الكيانات العربية . وهذا التحالف تطور ضد مصلحة المؤسسات السياسية التي ظلت ضعيفة. وهذا معناه أن الدكتاتورية تعمل عن طريق البيروقراطية لا عن طريق المؤسسات السياسية .لذلك فان المجالس التمثيلية والاحزاب ضعيفة في جميع الكيانات العربية وعدد المؤسسات السياسية في هذه الكيانات قليل وهي بدون وظيفة مهمة اي انها ضعيفة لانها شكلية اكثر منها فعلية . والأستاذ رجز يرى ان سبب وجود هذه المشكلة في الكثير من دول العالم المتخلف يرجع الى العهد الكولونيالي : فالادارات الكولونيالية خلقت في مستعمراتها بيروقراطية لا تخضع للسيطرة السياسية الداخلية . واننا نضيف الى قوله ملاحظة مهمة وهي أنه عندما استقلت هذه المستعمرات وخرجت السلطة السياسية الأجنبية كانت البيروقراطية متطورة ولذلك فهي اقدم من السلطة السياسية الأهلية (الداخلية) التي لم تبدأ تتطور الا بعد الاستقلال . وهذا سبب من اسباب تخلف المؤسسات السياسية بالنسبة للمؤسسات البيروقراطية في العالم العربي .

وثمة مشكلة أخرى مهمة هي أن البيروقراطيات العربية

Digitized by Birzeit University Library

تكون عادة كبيرة العدد ، اي تحتوي عددا كبيرا من الموظفين ، لأن الاقتصاد القومي ، خصوصا القطاع الخاص ،ضعيف جدا ولا يستطيع أن يستوعب عددا كافيا من الناس العاملين . فالناس تعمل في الادارة الحكومية لأنها لا تجد اعمالا في القطاعات الانتاجية الخاصة والبيروقراطية صارت مصدر عيش لهم توظف الناس العاطلين لتعطيهم المعاشات بغض النظر عن انتاجيتهم وفعاليتهم أو حتى الحاجة الى توظيفهم . ففي مصر خاصة تجد الاعداد كبيرة والانتاج قليلا والوظيفة تخلق للشخص من اجل ايجاد المعاش له فقط . لذلك فالبيروقراطية المصرية تشبه برنامج المنفعة العامة في الدول المتقدمة وهو برنامج تطور لمساعدة المحتاجين والفقراء . وحيث أن لا علاقة بين الكثير من الوظائف والمراكز والانتاجية والنشاط فأنت تجد المكاتب مكتظة بالموظفين غير المنتجين والمسؤوليات غير واضحة وكذلك خطوط الاتصال تجدها متقطعة . فالمواطن يصرف الوقت الكثير في البحث عن المسؤول وحتى عندما يجد الدائرة فهو لا يعرف من المسؤول فيها . وأسوأ من ذلك أن المسؤول في بعض الاحيان لا يعرف أنه هو المسؤول فيحول المواطن من مكتب الى مكتب ومن موظف الى موظف .وهناك مشكلة عدم قبول المسؤولية لأن الموظف يخاف من رئيسه ويخشى تحمل المسؤولية خصوصا اذا لم يكن هذا الموظف في المستويات العليا من البيروقراطية او لم يكن له سند سياسي او عائلي أي ليس له تأثير سياسي ضمن البيروقراطية ، لذلك تجد المعاملات الرسمية تتطلب تواقيع عديدة من مسؤولين أو دوائر كثيرة مما يسبب للمواطن المتاعب الكثيرة . وباستطاعتنا القول ان المواطن يصرف كثيرا من وقته في المعاملات الرسمية . وهناك معاملات رسمية وتصاريح لكل شيء تقريبا لدرجة أن المواطن العربي يحتاج البيروقراطية في حياته اكثر من المواطن في البلاد الصناعية

Digitized by Birzeit University Library

حياتهم ولا يشجعهم على اعطاء آرائهم ، فعندما يكبر الطفل يقلد أباه فتراه يحاضر غيره ولا يحترم اراءهم ويتكلم اكثر من أن يصغي . وفي المؤسسات العربية يلاحظ أن الشخص الذي لديه استقلال ذاتي او عنده الجرأة لابداء رأيه يكون مستقبله مهددا من قبل الرؤساء والمسؤولين .

ويعتبر العمل في البيروقراطية ذا مكانة كبيرة وهيبة prestige والسبب هو أن الموظف الحكومي يمثل السلطة والسلطة لها قيمتها الاجتماعية كالمال . ولا توجد منافسة بين الوظيفة الحكومية والوظيفة غير الحكومية الا في مناطق معينة ونشاطات محدودة . ولكن نشأت في الضفة الغربية منافسة بين الاشنتين ولذلك قلت مكانة الوظيفة الحكومية الاجتماعية لأن المعاشات في بعض المجالات الاقتصادية الخاصة صارت أعلى . وهذا صحيح في بعض النشاطات الاقتصادية في العالم العربي ، خصوصا في العواصم . ولكن على العموم ، وخصوصا في مصر ، ما زالت الوظيفة تحتفظ بمكانتها الاجتماعية لأن الدخل منها ، رغم كونه ضئيلا ومحدودا ، ما زال مصدر الحياة الرئيسي . وبالطبع فان المنافسة في بلاد الخليج بين البيروقراطية الحكومية والعمل الخاص قوية لدرجة أن المكانة الاجتماعية والمال هما من حظ العمل الخاص .

الأيدولوجية والحزبية

الأيدولوجية هي عقائد ومفاهيم لتعليل السلوكية rationalize behavior لكن لها وظائف تطورية developmental مهمة اذ انها تضع قواعد ووسائل وأهداف حضارة جديدة وتكون السياسة وسيلة وليس هدفا لها .

Digitized by Birzeit University Library

وهناك نوعان من الايدولوجيات : الايدولوجية العامة والايدولوجية الخاصة . والفرق بين الاثنتين ليس في محتوياتهما بل في درجة تأثيرهما على الناس . فالايدولوجية العامة تبدأ دائما كأيدولوجية خاصة ويكون تأثيرها على المجتمع محدودا لكن اذا نجحت وانتشر تأثيرها صارت آيدولوجية عامة اي أيدولوجية للمجتمع بأكمله . والدليل على نجاحها وانتقالها من وضعها الخاص الى وضعها العام هو وجودها في ثقافة المجتمع وتأثيرها على قيمه الاجتماعية ونظرته وتطبعاته . بهذا المعنى ، اي بالمعنى الثقافي ، نجد أن كل مجتمع له أيدولوجية لأن كل مجتمع له ثقافة . ولكن يجب ان نلاحظ اربع مراحل لتطور الأيدولوجية : فهي تبدأ كأيدولوجية خاصة وبهذه المرحلة تتنافس مع أيدولوجيات اخرى او تتنافس مع الثقافة السائدة في المجتمع ويكون هدفها الاستيلاء على السلطة السياسية . وفي المرحلة الثانية تكون قد نجحت في الإستيلاء على السلطة السياسية وتبدأ بتحطيم الايدولوجيات الاخرى المنافسة اما بالقوة او بانتشار نفوذها وتأثيرها بين اعضاء المجتمع . في هذه المرحلة تبدأ باحتلال الايدولوجية العامة السابقة اي انها تتغلغل تدريجيا في الثقافة التقليدية الى ان تسلبها قيمها الاجتماعية وتحل محلها قيما جديدة . وفي المرحلة الثالثة تكون هي مركز الثقافة الاجتماعية ومحور قيمها وعاداتها واطباعها . في هذه المرحلة تكون الأيدولوجية اساسية بمعنى انها طبيعية لا يوجد لها منافس قوي ، ولا يشك بها اعضاء المجتمع اذ ينظرون اليها وكأنها قديمة او كأنها طريقة الانسان ، اي انسان . وفي المرحلة الرابعة ، التي تبدأ بعد مدة طويلة جدا قد تصل الى قرون عديدة ، تضمحل هذه الأيدولوجية وتضعف قواها . ومن علامات ضعفها وانهزامها عدم مقدرتها على احداث التفاعل النفسي في اعضاء المجتمع واثارة

Digitized by Birzeit University Library

مشاعرهم وقواهم الخلاقة ، وفي كثرة المتعصبين لها وهم عادة أناس يتمسكون بها دون ان يتفاعلوا معها وهم لا يريدون التغيير ويعارضون كل شيء جديد ويرددون أقوال وحكم الايدولوجية العامة ويرفعون شعاراتها ويقتلون المعارضة لها وكأنها اصبحت بالنسبة لهم دينا منزلا . واذا كانت هذه الأيدولوجية دينية من البداية فمرحلة الاضمحلال تكون طويلة وصعبة للغاية .

وفي المجتمعات المتخلفة تكون الأيدولوجية العامة ، الثقافة ، في الغالب دينية او تكون متأثرة كثيرا بالقيم الدينية . وهي في هذا العالم في مرحلة الاضمحلال الطويلة حيث يكون الجديد غريبا والمعارضة له قوية خصوصا من قبل المتعصبين . وهذه المعارضة يكون سببها الخوف وضعف الأمن النفسي . أما في زمننا هذا فاننا نجد الأيدولوجية العصرية في العالم المتقدم دنيوية لا دينية . فالعصرية والدنيوية في زمننا الحاضر توجدان معا . واميركا هي المثل الواضح لأيدولوجية عامة في مرحلتها الثالثة . أيدولوجيتها نجحت واصبحت جزءا مهما من ثقافتها القومية . ومن مميزات الايدولوجيات العامة الناجحة وجود الاجماع والاتفاق consensus على عناصرها الاساسية وفي اميركا نجد هذه الظاهرة واضحة جدا . خذ مثلا المبدأ الرأسمالي ومبدأ فصل الدين عن الدولة والمبدأ الديمقراطي تجد معظم الامريكان ، وفي الحقيقة الاكثرية الساحقة منهم ، متفقين عليها ويؤمنون بصحتها وأبديتها وبالتالي بتفوقها على غيرها ، رغم احتمال الجدل بينهم على طرق التطبيق وعلى تفاصيل هذه المبادىء . وهذا شأن الأيدولوجيات الناجحة التي صارت عامة وصارت جزءا مهما من الثقافة القومية . ويقال ان الأمريكي ليس أيدولوجيا وهذا معناه انه لا يشك بصحة المبادىء الاساسية لنظامه وثقافته ، ومعناه ايضا انه لا يوجد ايدولوجية خاصة

Digitized by Birzeit University Library

تنافس ايدولوجيته العامة منافسة فعالة . وليس معنى هذا القول أن الأمريكي في الحقيقة لا يوجد له أيدولوجية عامة . بل بالعكس عنده أيدولوجية عامة ناجحة لأن كل مجتمع يجب أن يكون له أيدولوجية عامة مهما كان نوعها ، ولكن أيدولوجية الأمريكي تظهر ضعيفة ليس لأنها غير موجودة بل لأنه لا توجد منافسة فعالة لها ولان الاتفاق عليها قوي وعام . فالمجتمع الامريكي توصل الى اهدافه الأيدولوجية ، او الى اكثرها واهمها وذلك هو مقياس نجاحه الذي يدل عليه استقرار سياسي معناه وجود الاجماع والاتفاق consensus على المبادئ الأيدولوجية الاساسية . ولكن هذا النوع من النجاح ، اي الوصول الى الاهداف ، له جوانب سلبية لأن توقف الصراع المجتمعي الايدولوجي او نقصانه يترك فراغا في نفوس الناس . فالامريكي يعاني من هذا الفراغ الكثير ، فهو يعيش برفاهية ولكنه يشعر بالوحدة وبضياع معنى الحياة الحقيقي لأن معنى الحياة هو الصراع وبدون صراع لا يوجد معنى للحياة . والامريكي الذي يزور المجتمعات المتخلفة التي تختبر صراعات كبيرة يلاحظ أن الناس في هذه المجتمعات لهم اهداف اساسية . ومن الامريكان من يعود الى بلاده وهو يقدر معنى الصراع ومنهم من يعود الى بلاده ليشكر الله على نجاح بلاده . والنوع الاول من الامريكان هم المتعطشون لحياة جديدة والراغبون بتغيير نوعيتها وهم عادة المتضجرون في بلادهم . اما النوع الثاني فهم التقليديون الذين يخافون من التغيير ويشعرون بالأمن النفسي في محيطهم وتقاليدهم فقط . والفرق بين النوعين له علاقة بالسن والموقع الجغرافي - الاقتصادي وبالطبقة التي ينتمي اليها الامريكي .

وحتى في فرنسا نجد أن الايدولوجيات الخاصة ، خصوصا الاشتراكية منها ، تتغير لتتوافق مع الايدولوجية العامة الديمقراطية وهذا صحيح بالنسبة للشيوعية الفرنسية . وبعد الحرب العالمية ، حصل في بريطانيا التطور نفسه عندما نجح

Digitized by Birzeit University Library

حزب العمال في تطبيق برنامجه الاشتراكي وقبل حزب المحافظين بالتغييرات التي احدثها ذلك الحزب . وفي البلدين ، تصير الايدولجيات الخاصة موافقة للايدولجيات العامة وهذا معناه أن التطور في غربي اوروبا يتجه نحو تطور يشبه ذلك الذي حدث في امريكا من قبل . ولكن في امريكا ذابت الأيدولجيات الخاصة في الايدولوجية العامة بسرعة قبل أن تصبح هذه الأيدولجيات الخاصة قوية ، اي أن الذوبان كان شبيها بالزوال لأنه حدث في مرحلة مبكرة . وامريكا اليوم فقدت قدرتها على خلق الاهداف الجديدة وهي بدون اهداف قومية قوية . والدليل على ذلك هو أن الرئيس ايزنهاور أمر عام ١٩٥٦ بتأليف لجنة خاصة لايجاد اهداف قومية جديدة وظهر مؤلف يحتوي على توصيات هذه اللجنة ولكن لم تنجح اللجنة لأن الاهداف القومية لا يمكن ان توجد عن طريق لجان . وحدوث مثل هذا الامر يدل ، دون شك ، على وضع امريكا المحزن .

والحقيقة هي أن المجتمعات التي تظهر بأنها غير أيدولوجية اما ان تكون متقدمة كثيرا (اي متطورة كثيرا) او بدائية primitive كثيرا . وهذه الاخيرة لا توجد منافسة لأيدولوجيتها التقليدية (العامة) لان تطورها الحضاري محدود لدرجة انعدام الابداع والمقدرة على الخلق الجديد . وهذان المجتمعان ، المتقدم كثيرا والبدائي كثيرا يتوافر لهما الاستقرار السياسي والاجتماعي لأن نسبة الاجماع consensus على القيم الاجتماعية عالية في كل منهما . اما العالم الثالث فهو عالم انتقال من تخلف الى تقدم اي انه عالم صراع او في مرحلة الصراع للوصول الى الاهداف . وهو عالم الأيدولوجيات الخاصة لان الاهداف التي يحاول الوصول اليها جديدة . ونستطيع القول ان الاهداف الجديدة تحتاج الى أيدولوجيات خاصة وهذا هو سبب فشل الأيدولوجيات الخاصة في العالم المتقدم وخروجها كصادرات للعالم الثالث حيث توجد

Digitized by Birzeit University Library

امكانية لنجاحها. لذلك ترى أن للأيدولوجيات الخاصة نظرة فلسفية قوية ونظرة استقبالية واضحة نسبيا ، مع أن هذه الأيدولوجيات ممنوعة في كثير من البلدان من قبل السلطات.

الأيدولوجيات الخاصة في العالم الثالث اما أن تكون دنيوية وهي الاكثر اهتماما بتطور المجتمع العصري او تكون دينية تحاول تقوية القيم العامة او اعادة تركيبها على قواعد اكثر صلابة مما هي عليه. والسبب في هذا الانقسام هو أن الأيدولوجية العامة في مرحلة اضمحلال طويلة فالقيم الاجتماعية ضعيفة والخيار هو في احلال قيم جديدة ، في الغالب دنيوية ، محلها ، او تقويتها لتكون كما كانت عليه في اوجها او عندما كانت هذه القيم ناجحة وقوية ، اي في مرحلتها الثالثة. وعلى العموم فان اضمحلال وضعف الأيدولوجية العامة هو سبب وجود الآيدولوجية الخاصة.

وعادة تأخذ الأيدولوجية الخاصة الطابع الحزبي لأن الاحزاب هي تنظيم الأيدولوجيات الخاصة التي لا يمكن ان تنجح دونها الا عن طريق القوة العسكرية والحروب الداخلية. والسبب هو أن كل أيدولوجية خاصة تطمح لأن تكون ايدولوجية عامة اي تريد أن تنجح يجب ان يكون هدفها السيطرة على السلطة السياسية لأن هذا الطموح يستحيل الوصول اليه بدون السلطة السياسية.

وفي العالم العربي توجد ثلاثة انواع من الاحزاب. احزاب الوسط وهي التي تمثل السلطة السياسية القائمة وتدعي بأنها تمثل الأيدولوجية العامة. وحيث أن الأيدولوجية العامة هي في مرحلة الاضمحلال ، تجد هذه الاحزاب تخاف من المنافسة ولذلك فهي تشكيلات رسمية وقتية هدفها الوحيد هو ابقاء الحاكمين في الحكم واعطاؤهم مظهرا ديمقراطيا. وهذا صحيح

Digitized by Birzeit University Library

ان كانت هذه التشكيلات حزبا واحدا او احزابا متعدده أو ان كانت احزابا حكومية او احزابا معارضة فهي تخدم مصلحة الجماعة او الجماعات الحاكمة او الشخص الحاكم .

وهناك احزاب اليمين . وهي احزاب تقليدية تدعي أن أيدولوجيتها خاصة ولكنها في الحقيقة تهدف الى احياء أو اعادة تركيب الأيدولوجية العامة فهي تدعي بأن أحزاب الوسط أو السلطة السياسية القائمة لا تسير على الصراط المستقيم . وهي تفسر الاضمحلال السائد في المجتمع العربي على أنه نتيجة الانحراف عن القواعد التقليدية الصحيحة . وأقوى احزاب اليمين هي الحركات السياسية الدينية لأن التقليد السائد اسلامي . ولكن هناك احزاب يمينية قومية الا أن هذه الاحزاب تظهر يسارية وهي خارج الحكم وتصير وسطية عندما تتسلم الحكم .وهي عندما تكون خارج الحكم تدعي انها يسارية لأنها استوردت عناصر أيدولوجية وتأثيرات خارجية كفكرة القومية نفسها وربما ايضا فكرة الاشتراكية . ورغم ادعائها باليسارية فهي في الحقيقة يمينية لأنها تقليدية وتمثل التطور التاريخي العربي الاسلامي في اطار عصري واسماء ونظريات عصرية ، فهي من الخارج عصرية وتظهر يسارية ولكن من الداخل هي تقليدية تمثل الأيدولوجية العامة وعناصرها الداخلية هي التي تجعلها وسطية بعد تسلمها الحكم .

والنوع الثالث من الاحزاب هي الاحزاب اليسارية الاشتراكية وهذه الاحزاب أيدولوجيتها دنيوية ، وهي الاحزاب الوحيدة التي تقترح حياة جديدة ، من الوجهة النظرية على الاقل. وجميع هذه الأيدولوجيات مستوردة اي انها في الاصل من مصدر غربي . ولكنها الوحيدة التي تهدد الأيدولوجية العامة ولا تشبه احزاب اليمين الا بمعارضتها للسلطة القائمة واحزابها الوسطية . ولكن اليمين لا يهدد الأيدولوجية العامة كأحزاب

مكتبة جامعة بيرزيت الرئيسية

Digitized by Birzeit University Library

اليسار لأن هدفه هو السلطة السياسية لا الأيدولوجية العامة رغم ادعائه بالعكس . والسبب هو كما قلنا فان احزاب اليمين هي في الحقيقة احزاب تقليدية تظهر بأنها عصرية ثورية تطورية الا أنها في الحقيقة تقليدية تريد السلطة لنفسها لا اكثر ولا اقل .

ومن اسباب عدم الاستقرار السياسي في العالم العربي المشكلة التطورية اي مشكلة التغيير والتحديث . فالايدولوجية العامة لا يوجد توافق بينها وبين التطور العصري . والسلطات السياسية تجهل هذه الحقيقة لأنها تشجع التطور المادي غير المتزن دون اعطائه قاعدة أيدولوجية ، فهي لا تعرف انها عدوة نفسها وانها تبحث عن حتفها بظلفها . والتطور العربي لا يمكن أن ينجح بدون أيدولوجية . وكما قلنا فالحضارة العربية التاريخية قامت عن طريق الأيدولوجية الاسلامية . وبدون أيدولوجية سيظل العرب ضعفاء . والتغيير عن طريق الانقلابات العسكرية هو تغيير سياسي لا يكفي للتطور لأن أيدولوجية النظام العسكري ضعيفة وليس ادعاؤه بالحزبية الأيدولوجية سوى تغطية لاهدافه السياسية والشخصية . وفهم النظام العسكري للاقتصاد ضعيف وحتى لو كان الانقلاب العسكري ماركسيا فالغالب أن يكون فشله في تطوير الاقتصاد كبيرا وأن يكون مظهره الأيدولوجي سطحيا وضعيفا .

والاحزاب التطورية هي ظاهرة عصرية . فالمجتمعات الانتقالية خبرتها جديدة في الاحزاب كجماعات تطور . ولكنها عرفت الأيدولوجية الدينية ، ولذلك فالأيدولوجية عندها هي أقدم من الحزبية . ولكن الاقدم هو البيروقراطية والتطور القديم كان عن طريق البيروقراطية . ولأن الحزبية كمؤسسات ومنظمات سياسية هي حديثة التطور فنحن نجدها في العالم الثالث في مرحلة انتقالية . وهي كوسيط للتطور لا تكفي الا اذا كانت

Digitized by Birzeit University Library

ايدولوجية وذلك لأنها تتفاعل معه لاعطاء النخب العصرية modern elites الامكانية لتنظيم قواها وتغيير المجتمع .

والاحزاب الاكثر نجاحا في التطوير هي الاحزاب غير التقليدية . واكثرها نجاحا في احداث الاستقرار السياسي هي التي تسمح بالمنافسة القليلة . وهناك ، حسب دراسة علمية مفصلة ستة انواع من الانظمة الحزبية في بلاد العالم : البلاد الشيوعية التي لا تسمح لأي حزب غير الحزب الشيوعي ؛ بلاد فيها حزب واحد ولكنه غير شيوعي ؛ بلاد فيها احزاب عديدة ولكن حزبا واحد يسيطر على السلطة (مثل الهند في عهد حزب المؤتمر) ؛ بلاد فيها حزبان يتبادلان السلطة ؛ بلاد فيها عدة احزاب ؛ وبلاد لا يوجد فيها احزاب اي ان الاحزاب ممنوعة فيها (٣). وحسب الدراسة هذه اكثر البلدان استقرارا (من الوجهة السياسية) هي البلاد الشيوعية ؛ ففي هذه البلدان لم يحدث اي انقلاب عسكري او ثورة داخلية أو اي تغيير سياسي جذري منذ تسلم الشيوعية السلطة السياسية . وتلي البلاد الشيوعية في الاستقرار البلاد التي فيها حزب واحد فقط. وتليها بالترتيب بلاد فيها حزب مسيطر رغم وجود احزاب اخرى فيها وبلاد فيها حزبان وبلاد فيها عدة احزاب . واما أقل البلدان استقرارا فهي البلاد التي لا تسمح بالاحزاب قطعيا . وهذا معناه أن الحزبية ضرورية للاستقرار ولكن اكثر البلاد استقرارا هي البلاد الأقل احزابا

ويقول البروفسور ساموبل هنتنجتون Samuel P. Huntington أنه اذا كان الحزب ، في بلاد الحزب الواحد ، كبيرا mass اي يضم عددا كبيرا من الاعضاء فانه يشكل خطرا على السلطة السياسية لأن كبره يبعثر امكانياته (٤). وهو يقول أن تركيز الامكانيات وجمعها مهم ، فكبر الحزب الواحد له أخطار وسلبيات تشابه تلك الناجمة عن تعدد الاحزاب. ويعطي

Digitized by Birzeit University Library

هنتنجتون النظام الناصري كمثل لنظام الحزب الواحد الذي حاول التوسع واختبر الاخطار . فناصر في بداية عهده ،عام ١٩٥٣، اسس هيئة التحرير التي كان عدد اعضائها يتراوح بين خمسة وستة ملايين نسمة عندما اكتشف أن هذا الوضع له خطورته ومشاكله فعاد وأسس بعد دستور ١٩٥٦ الاتحاد القومي ليكون تنظيما ضيقا ولكنه وقع في الخطأ مرة ثانية لأن الاتحاد صار حزبا كبيرا مسموحا بدخوله لأي كان الا "للرجعيين" . وعندما أحس عبد الناصر بالخطر الناجم عن اتساع حزبه اسس للمرة الثالثة ، في عام ١٩٦٣ ، الحزب الاشتراكي العربي بعد استشارة اخصائيين في العمل العقائدي من يوغوسلافيا وكان المفروض أن لا يزيد عدد أعضاء الحزب الجديد عن العشرة بالمئة من مجموع السكان ولكن عبد الناصر رجع الى خطئه الاول وصار الحزب كبيرا وزاد عدده بعد سنتين من تأسيسه على الخمسة ملايين عضو ، واضطر عبد الناصر لتكوين نخبة elite داخل الحزب من حوالي اربعة آلاف عضو ليتجنب مشاكل الحزب الكبير. ولولا شخصيته الفذة الكرزمية charismatic لما كان التشكيل الجديد كافيا ولوقع عبد الناصر في اخطار جسيمة .

في العالم الاول المتقدم لا توجد بلاد بدون احزاب . وأكثر هذه البلاد استمرارا من الوجهة السياسية هي ذات الحزبين كالولايات المتحدة وبريطانيا . وعدم الاستقرار كان يهدد فرنسا في عهد الجمهورية الرابعة عندما كان فيها عدد كبير من الأحزاب . ولا شك أن العالم الأول يفهم الحزبية اكثر من العالم الثالث لأن الحزبية كما قلنا ، هي تطور عصري . ولنفهم هذه المقارنة علينا أن ننظر الى تاريخ تطور الاحزاب في بريطانيا .

فأول ما ظهرت الحزبية في بريطانيا ظهرت في المجالس التشريعية قبل انتشارها خارج هذه المجالس لتصبح احزابا

Digitized by Birzeit University Library

قومية لها اساس في الشعب وبين الناس . وتطور الاحزاب هناك كان له ارتباط قوي بالتطور الطبقي ومعنى هذا أن العوامل الاقتصادية كان لها تأثير قوي على الحزبية . وباستطاعتنا القول ان الأحزاب في بريطانيا تطورت نتيجة للصراع على السلطة السياسية بين الملك والطبقات الاجتماعية . ولما كان الملك هو الحاكم المطلق فقد كان الاقتصاد زراعيا تقليديا وكانت الحكومة شخصية أي أن الملك كان يملك السلطة لنفسه . ولكن عندما اصبحت الاقطاعية قوية صارت للوردات حقوق مهمة لا يجرؤ الملك على سلبها ، وعندما حاول عدم احترام هذه الحقوق حصلت المشاكل كما حدث عام ١٢١٥ مع الملك جون . وعندما تأسس مجلس اللوردات من الطبقة العليا ورجال الكنيسة كانت وظيفته استشارية ولكن أهميته زادت مع الوقت بسبب حاجة الملك الى المعونة المالية والدعم المالي من قبل الاقطاعيين . وكانت الاحزاب في ذلك الوقت تشكيلات سياسية صغيرة لأشخاص سياسيين كبار اي انها كانت "شللا شخصية personal cliques تتنافس على النفوذ عن طريق الضغط والتفاوض أو العنف ، لا عن طريق الانتخاب . ولم تصر الاحزاب عصرية الا بعد الثورة الصناعية التي خلقت جماعات جديدة بمصالح وقيم جديدة . وهذه الثورة بدأت عملية نقل السلطة السياسية political power من الملك الى الطبقات الجديدة التي صارت تدريجيا ممثلة في المجالس التشريعية . ومن هذه الطبقات الجديدة كانت الطبقة التجارية commercial class وطبقة العمال . والطبقة الاخيرة هي التي اثرت على التطور الديمقراطي وذلك بتوسيع النظام الانتخابي ابتداء من عام ١٨٣٢ الى أن اصبح عامًّا سنة ١٩١٩ بحصول المرأة على حق الانتخاب . وتوسيع نظام الانتخاب اضطر الاحزاب لتوسيع نفسها فأصبحت كبيرة mass مع الوقت كما أن المجالس النيابية اصبحت مراكز للسلطة السياسية بدلا من الملك .

Digitized by Birzeit University Library

ولكن الحال في العالم العربي ومعظم العالم الثالث كان يختلف في تطوره السياسي عن الحال في العالم الغربي . ففي العالم الثالث الكولونيالي كان الصراع بين أهالي البلاد والحاكم الاجنبي ، ليس بين الملك والطبقات المناهضة لسلطته . فالصراع الاول كان يتطلب الوحدة الوظيفية وعدم الانقسام أما النوع الثاني من الصراع فقد كان من طبيعته الانقسام ولذلك انتج الحزبية . والصراع الاوروبي كان في صالح الديمقراطية أما الصراع ضد الاجنبي الذي حدث في العالم الثالث فلم يكن في صالح الديمقراطية ابدا . لذلك فقد افرز معنى الحزبية في العالم الثالث سلبية قوية تحارب الانقسام ، أما في العالم الاول فان معناها صار ايجابيا لأنه ادى الى الانقسام الذي معناه الاختلاف والاختلاف ضروري للديمقراطية . فالحزب في معظم البلاد العربية معناه الوحدة اي تنظيم سياسي هدفه توحيد الناس وراء حكومتهم ، وهذا معناه أن الحزبية يجب أن تكون حزبا واحدا او لا احزاب بالمرة ، لان تعدد الاحزاب معناه الانقسام والتفسخ وهذا ليس في صالح الناس . وعندما يسمح لاكثر من حزب أن يعمل في اي بلد عربي فعلينا أن نعرف ان الحادث هو تمثيلية لا اكثر ولا اقل . وهدف هذه التمثيلية هو اظهار أن الحكومة ديمقراطية وتأمين التسلية الضرورية للعالم العربي ومثقفيه وعصرييه ولكنها اي التمثيلية ليست ضرورية لمعظم الناس من ابناء البلاد لانهم لا يفهمونها .

وعامل آخر لعدم نجاح الاحزاب في العالم العربي هو عدم تجاوبها مع التطور الاقتصادي والمصالح الطبقية . ونظرة العربي للطبقية تشبه نظرته للحزبية ومعنى الاثنتين لديه هو التجزؤ والانقسام والتجزؤ والانقسام سيء لأنه ضد الوحدة الوطنية التي كانت في الاصل ضرورية لاخراج المستعمر من البلاد (٥) . فالطبقية والحزبية هي ، في النظرة العربية ، ضد المصلحة القومية ومعناها قريب من معنى الخيانة ، ولو بالنسبة لاصحاب السلطة

Digitized by Birzeit University Library

على الاقل . وعدم الاعتراف بالطبقية سببه عدم الاستجابة للتطور الاقتصادي ولذلك نجد ان تركيب القوى السياسية في العالم العربي هو في صالح النظام الاقتصادي القديم ولولا الانقلابات العسكرية لبقي الوضع على ما كان عليه قبل الاستقلال . ورغم حدوث التغير الا ان التطور الاقتصادي في العالم العربي يأتي امام التطور السياسي اي انه يسبقه . لذلك قلنا في مكان اخر ان المؤسسات السياسية في البلاد العربية متخلفة اكثر من الحالة الاقتصادية وهذه الحالة خطرة للغاية وهي من اسباب القمع القائم في كل بلد عربي بغض النظر عن نوع نظامه السياسي .

وعدم تجاوب التطور الحزبي مع التطور الاقتصادي الطبقي صعب العمل السياسي على الحركات والاحزاب اليسارية الاشتراكية، خصوصا التشكيلات الماركسية الشيوعية . فعلاقة هذه الحركات بالطبقة العمالية ضعيفة ولا تتعدى النظريات والنشاط الفكري . فالماركسيون مثلا لم يظهروا اهتماما كبيرا بتنظيم الطبقة العمالية . ولا نستطيع لومهم على هذه المشكلة كليا لان من اسبابها امورا خارجة عن سيطرتهم . فالدعم للحركات اليسارية لا يأتي من الطبقة العمالية بل من الطبقة المثقفة ومن الناس الاصغر سنا ، ومن المدينة اكثر من الريف ، ومن ابناء وبنات البرجوازية ، ومن الاقليات . وهناك اسباب لهذه الغرابة . اولا ، المثقفون يريدون التطور والتحديث السريع ولذلك تجدهم ميالين للتطرف لانهم غير مستكفين بسرعة التطور الذي يحدث في البلاد العربية ولا بنوعيته ولا بوضعه السياسي . فهم ضد النظام القائم لانه تقليدي . وتدل الدراسات العديدة عن العالم الثالث على أن معظم الدعم للايدولوجيات اليسارية يأتي من المتعلمين ذوي الحالة المادية الجيدة ومن الجماعات المهنية professional وذوي الياقات البيضاء من العاملين white color في المدن . وهذه الدراسات تقول ان الدعم

Digitized by Birzeit University Library

للاحزاب التقليدية يجيء من طبقة الفلاحين المتدينين وطبقة ملاكي الاراضي . اما بروليتاريا المدينة والفلاحون عموما فدعمهم للحركات اليسارية ضئيل الا في حالات خاصة (٦) .

ثانيا : الطبقة العمالية في العالم العربي تختلف عن الطبقة العمالية في العالم المتقدم ؛ فهي في الغالب غير صناعية وغير فنية ولذلك فحجمها صغير . ويجب ان نتذكر ان العالم العربي لم تحدث فيه وليست لديه خبرة بالثورة الصناعية التي حدثت في العالم الغربي . وادراك العامل لوضعه الاجتماعي كعامل اي ادراكه الطبقي ضعيف . ومن اسباب ذلك الدين الاسلامي الذي يرفض التمييز الطبقي والعنصري ويحل محله تمييزا آخر مقياسه التقوى . هذا الرفض من قبل الدين هو عامل نفسي ـ اجتماعي فقط لأن الاسلام لا يرفض الطبقية بالمعنى الاقتصادي والسياسي . أما الفلاح فهو مرتبط بنظام ارض قديم لا يسمح له بالتحرك ، وحتى لو كان النظام الارضي عصريا فهو لا يتحرك بسهولة لأنه محافظ بطبيعته .

ثالثا : العمال غير الصناعيين يصعب تنظيمهم . وكما قلنا فاليساريون العرب ، ولا سيما المثقفون منهم ، ينشطون في العمل الفكري والبحث الايدولوجي اكثر من نشاطهم في العمل الميداني وفي تنظيم العمال . والماركسي خاصة لا يدرك ادراكا قويا أن الوضع الاقتصادي والاجتماعي في العالم العربي يختلف عنه في العالم الغربي فهو يحفظ الماركسية كما يحفظ الاشعار ويستعد لها كما يستعد لامتحان عام ولا يحاول تفسيرها لتطابق الاوضاع العربية والواقع العربي ، ولا يضع استراتيجية تختلف عن الاستراتيجية الماركسية الكلاسيكية او الاستراتيجيات اللينينية والمادية . فهو يحلل الاوضاع لتوافق ماركس بدلا من أن يكيف ماركس ليوافق الاوضاع .

Digitized by Birzeit University Library

لذلك ، ليس للحركات اليسارية مستقبل في العالم العربي الا عن طريق الانقلابات العسكرية او استغلال فشل القومية العربية . واهم عنصر في فشل القومية العربية هو فشلها في النزاع العربي الاسرائيلي . وهذا الفشل سيسبب الفوضى ويعطي الشيوعيين الفرصة لاستغلاله بمساعدة الاتحاد السوفييتي .

من الوجهة التطورية ، هناك مشكلة مهمة تتعلق بالاحزاب السياسية وهي أن الاحزاب المعارضة في الكيانات العربية لا تعتبر حكوماتها شرعية وتفترض ان الناس او معظم الناس يوافقون على أن الحكومات غير شرعية . ولذلك تجد الحكومة تتخذ الموقف نفسه فهي لا تعتبر الاحزاب المعارضة شرعية . وهذا عكس ما نجده في بريطانيا وامريكا حيث تعترف الاحزاب والحكومة بشرعية نفسها وبشرعية الطرف الآخر . وفي دراسة وضعت عام ١٩٦٦ من قبل البروفسور مايرن وينر Myron Weiner والبروفسور جوزف لا بالومبارا Joseph La Palombara تتجلى هذه النقطة بوضوح خصوصا فيما يتعلق بأكثرية دول العالم الثالث حيث تكون الشرعية legitimacy مشكلة كبيرة (٧) .

وكما قلنا سابقا فالتطور الاقتصادي يخلق جماعات جديدة لها مصالح ومطالب سياسية خاصة وهي تطالب بالمشاركة في السياسة political participation وبالاعتراف بوجودها وحقها في تمثيل مصالحها . في العالم الغربي مثل هذه الجماعات تشترك سياسيا في عمليات تمثيل المصالح على درجات متفاوتة تكفيها معظم الوقت . أما في العالم العربي فالتطور الاقتصادي لا يصحبه الاشتراك السياسي مما يسبب الشعور بالغربة alienation ويزداد هذا الشعور مع زيادة عمليات التطوير الاقتصادي والتمدين urbanization والتثقيف . والشعور بالغربة يهدد السلطة التي تعالجه بالقمع repression

Digitized by Birzeit University Library

الذي يختلف باختلاف النظام السياسي . فاذا كان النظام مدنيا civil قالقمع فيه متقطع اي على فترات وعلى درجات من الشدة حسب الحاجة والضرورة . أما اذا كان عسكريا فهو يبدأ مبكرا ويميل الى الشدة والاستمرارية . ويكون حجم ونوع القمع بقدر درجة الشعور بالغربة . وفي بلاد الحزب الواحد في العالم العربي تحاول السلطة السياسية تعبئة mobilize الجماهير لدعم اهدافها السياسية . والتعبئة في العالم الشيوعي لها اهداف سياسية وغير سياسية . فبالاضافة الى ضبط الجماهير والسيطرة عليها سياسيا يهدف النظام الشيوعي الى تطوير المجتمع في الحقلين الاقتصادي والاجتماعي وهذا سبب مهم لكون النظام الشيوعي اكثر الانظمة استقرارا في العالم غير المتطور . ولكن نظام الحزب الواحد في العالم العربي يهدف من التعبئة الى السيطرة السياسية فقط ، أما اهداف التعبئة التطورية لهذا النظام فهي ضعيفة جدا . وفي الحقيقة ان نظام الحزب الواحد غير الشيوعي لا يهدف لاشراك الناس سياسيا في الحكم لان تركيب الحزب يدل على أن اقنية الاتصال تسير من فوق الى تحت لا من تحت الى فوق . وهذا معناه ان التركيب الحزبي موجود لتنفيذ قرارات القيادة ولضبط الجماهير وليس لاستيعاب امكانياتها او لاشراكها في النظام .

وهناك كيانات عربية تسمح في فترات خاصة ومعينة بوجود الاحزاب المعارضة خصوصا في البلاد التي نظامها ملكي او مدني . وهي تسمح للاحزاب بالوجود تحت شروط وظروف مرسومة لها ويكون المسؤلون في المعارضة عادة مختارين من قبل السلطة السياسية ، اي ان شكل المعارضة ونوعها والاشخاص المسؤولين عنها امور متفق عليها قبل سماح السلطة لها بالظهور . ومثل هذا كان يوجد في ايران في عهد الشاه وهو في مصر في عهد السادات . وعندما تتعدى

Digitized by Birzeit University Library

المعارضة الحدود المرسومة لها تقمعها السلطة السياسية وفي النهاية تحظرها كليا. وفي العادة تكون هذه الاحزاب غير عقائدية اي ليس لها ايدولوجية خاصة لأن الاحزاب الايدولوجية (الخاصة) هي اخطر الاحزاب على السلطة فالاحزاب التي تسمح لها السلطة القائمة تكون عادة قريبة من مركز السياسة. ولذلك فان اكثر الاحزاب شعورا بالغربة هي احزاب الأيدولوجية الخاصة. وهذه الاحزاب عادة تشعر بالغربة في اي مجتمع لانها بطبيعتها ترفض القيم الاجتماعية العامة وترفض النظام السياسي بأكمله. لذلك تجدها في العالم المتقدم تختلف عن مثيلاتها في العالم الثالث، لأنها تحاول ان تعمل من ضمن النظام وان تظهر متوافقة مع الايدولوجية العامة السائدة في البلاد. فالشيوعيون في فرنسا وايطاليا يختلفون كثيرا عن الشيوعيين في البلاد المتخلفة. فهم في المدة الاخيرة على الاخص حاولوا ان يغيروا عناصر عقيدتهم المناهضة للديمقراطية ومبدأ عدم العنف اي انهم اعترفوا بمبدأ الانتخابات ومبدأ انتقال السلطة السلمي الى الاحزاب التي تنجح بالانتخابات. ونلاحظ ان الاحزاب العقائدية في العالم العربي والعالم المتخلف على العموم لا تحاول ربط الفرد بالمجتمع اي لا تكون حلقة وصل بين الافراد والجماعات الخاصة والمجتمع الكبير او بالاحرى هي لا تربط المصالح الخاصة والقيم الخاصة بالمصلحة العامة والقيم العامة. والسبب هو ان مثل هذا الربط يحتاج اللاعتراف بشرعية السلطة السياسية القائمة والاعتراف بالقيم العامة اي الايدولوجية العامة والثقافة العامة وهذا مستحيل لان هذه الاحزاب تقترح على الناس قيما خاصة وتفترض ان السلطة القائمة غير شرعية. والنتيجة هي علاقة توتر كثير، ما تكون خطرا على الاستقرار السياسي

والاحزاب التي تشعر بالغربة تمثل الجماعات التي تشعر

Digitized by Birzeit University Library

بالغربة . هذه الاحزاب تكون في العالم المتقدم اما اثنية او عنصرية او طبقية او لها قاعدة جغرافية خاصة . ولذلك فهي لا تنجح في الانتخابات لقلة عدد المنتمين لها وعادة تبتلعها الاحزاب الكبيرة وذلك عن طريق تبني اهدافها الاساسية . واذا فشلت هذه الاحزاب الكبيرة في ابتلاعها كانت النتيجة وخيمة على النظام السياسي القائم .

وفي العالم العربي نجد الاحزاب العقائدية تفشل في ربط نفسها بالجماعات التي تشعر بالغربة وذلك لأن هذه الاحزاب تخطيء بمعرفة هوية هذه الجماعات . وسبب الخطأ هو انشغالها بالعقيدة نفسها او انشغالها بالامور النظرية فهي احزاب ايمان وصلاة اكثر منها احزاب عمل لانها تتجاهل الناس وتركز على مادة العقيدة وشخصياتها الفكرية وزعاماتها . خذ مثلا الجماعات الماركسية في العالم العربي فهي ما زالت تتكلم عن البرجوازية والبروليتارية دون ان تعلم بأن العربي ، ما عدا المثقف واليساري لا يوجد عنده ادراك طبقي على هذا الاساس . ولكن الادراك الطبقي ، اذا شئت ان تسميه كذلك ،موجود بشكل آخر لا هو برجوازي ولا هو بروليتاري ، بل هو على شكل الغني والفقير وربما اضفنا الى هاتين "الطبقتين" من اسميهم "ميسوري الحال" . ومعنى ذلك أن العربي عنده الادراك بأن فلانا غني وفلانا ميسور الحال وفلانا فقير بغض النظر عن نوع الغنى او الفقر . وكما قلنا سابقا فان الدين الاسلامي هو من اسباب عدم وجود الادراك الطبقي . ولكن الدين الاسلامي يتكلم عن الغني والفقير كثيرا ويضع لعلاقاتهما نظاما في الاقتصاد والعاطفة . والحركات اليسارية الناجحة هي التي تستغل هذا الاعتراف وهذا الادراك وذلك بتكييف مفهومها للطبقية ليتناسب مع المفهوم الاسلامي. أما الطبقة الوسطى فهي محدودة نسبيا في العالم العربي وهي

Digitized by Birzeit University Library

الطبقة التي تشعر بالغربة وتكون ميالة للأيدولوجيات الخاصة . ومنها تأتي القيادات الفكرية والسياسية للعقائد والحركات الأيدولوجية . وهي التي تفهم معنى العبارات المستوردة كالبرجوازية والبروليتارية . أما خارج هذه الطبقة فلا يوجد فهم للافكار العقائدية اليسارية ولا للعبارات التي لها علاقة بالغربنة بمعنى الاوربة . فكلمة برجوازي وكلمة بروليتاري لها رنة غريبة عند الفلاح والعامل ومعنى سايكولوجي لا يختلف عن كلمات كنا نسمعها في الماضي من مثل ميرسي وشانك يو وبردون ، كلمات تذكرنا بأن الذي ينطق بها هو "متعلم" او "مثقف" او "عصري" ولذلك فهو بالنسبة للعامل والفلاح أما ان يكون "كبار" او "مصقع" و"فاسد" و "غريب" . هذه العبارات ستأخذ وقتا طويلا قبل ان تصبح مفهومة عند غير المثقفين ولكنها ستصل الى هذه المرحلة كما وصلتها عبارات اخرى سبقتها في هذا التطور مثل كلمات "ارستقراطي" و "ديمقراطي" و "امبريالي" .

وقد ذكرنا أن من وظائف الاحزاب في العالم المتخلف ايجاد التكامل المجتمعي والمساهمة في جميع انواع عمليات التكامل . وهذه الوظيفة ضعيفة جدا بالنسبة للاحزاب العربية ، لان معانيها الاقتصادية غير مفهومة ومعانيها السياسية هي الاهم بالنسبة للسلطات السياسية ولكن هذه المعاني السياسية مغلوطة وفيها تضارب في المضامين والاهداف . فبلاد الحزب الواحد في العالم العربي تهدف لربط اجزاء المجتمع في وحده قومية وتهدف ايضا الى تثبيت السيادة على الارض كلها . النوع الاول من هذا التكامل يسمى التكامل الاجتماعي social integration والنوع الثاني يسمى التكامل الارضي territorial integration والمشكلة في العالم العربي هي أن التكاملين يتضاربان مع القومية العربية لانهما يقويان الكيانات السياسية . وهذه المشكلة هي نتيجة الحدود السياسية

Digitized by Birzeit University Library

التي وضعتها الكولونيالية فهي لا تطابق الحدود القومية (العربية). فالتكامل القومي يجعل العملية الخارجية أي عملية توحيد الاجزاء المنفصلة سياسيا او الكيانات السياسية نفسها أهم من العملية الداخلية اي عملية توحيد المجتمع "الكولونيالي" او الاجزاء التي هي داخل الحدود السياسية. فتقوية روابط الاجزاء الداخلية تضعف الوحدة الخارجية اي روابط الاجزاء السياسية. والحل هو اما باعطاء قومية للكيانات الكولونيالية او بالغاء الكيانات السياسية نفسها.

وربما نستطيع عمل مقارنة بين التطور القومي في ايطاليا والتطور القومي في العالم العربي. فعملية التكامل في العالم الغربي جاءت مبكرة والاحزاب لعبت دورا ضئيلا في هذه العملية الا في بلاد مثل ايطاليا والمانيا وبلجيكيا وسويسرا حيث كانت العملية متأخرة. ففي ايطاليا جرت العملية تحت كافور والحزب اللبرالي. ولكن اشتراك الحزب لم يكن كافيا لاحداث الوحدة القومية مما سبب الحاجة الفعلية لمساهمة البيروقراطية والجيش في العملية. وفي ايطاليا ايضا جاءت الدولة القومية قبل الامة اذ قال احد قادة ايطاليا "لقد صنعنا ايطاليا فلنبدأ بصنع ايطاليين". وقوله هذا لا ينطبق على التطور العربي وعملية التكامل في البلاد العربية اذ لا يصلح القول "صنعنا الاردن فلنبدأ بصنع اردنيين" لأن الكيان الاردني لا ينادي بالقومية الاردنية رغم انه يجلس على قاعدة اقليمية اردنية. وهذه هي المشكلة فالقول الذي ينطبق على الاردن ومعظم الكيانات العربية الاخرى هو "صنعنا الاردن فلنبدأ بصنع العرب". وهذا القول طبعا غير منطقي رغم تطابقه مع الوضع الواقعي. فالعرب لا "تصنعهم" الا دولة قومية عربية ولا يمكن أن يصنع العرب اردن ولا عراق. فالجزء لا يصنع الكل، كما قلنا في مكان آخر، خصوصا اذا اراد الجزء ان يظل جزءا.

Digitized by Birzeit University Library

وعملية التكامل لا يمكن ان تنجح في الاردن الا على اساس القومية الاردنية وهذا صحيح بالنسبة للكيانات العربية الاخرى (باستثناء مصر حيث التكامل الداخلي ممكن على اساس القومية المصرية) . فالاردن هو حقيقة واقعية اي حسب القول المذكور اعلاه "صنعنا الاردن" ولكن البدء بصنع العرب مستحيل لأن الاردن لا يستطيع ان يصنع الا اردنيين لذلك فاننا نجد تناقضا قويا بين الحقيقة والواقع (الاردن) والهدف العقائدي او الايدولوجي (العروبة) .

وطبعا لا يوجد في العالم العربي الا نظام الحزب الواحد باستثناء فترات قصيرة في البلاد ذات النظام غير العسكري . وفي الحقيقة ان الحكومة هي الحزب ولذلك يكون عمل الحزب التكاملي معتمدا على الحكومة مما يجعله ضعيفا .وباستطاعتنا القول ان الدور الذي يلعبه الحزب هو تتمة للدور الذي تلعبه الحكومة . ويقول البروفسور ولرستاين Emanuel Wallerstein أنه عندما يصبح الحزب والحكومة غير مميزين يخسر الحزب الكثير من وظائفه التطورية وتصير البيروقراطية هي الاهم في هذا النشاط(٨) . والبيروقراطية ، يجب ان نعلم ، لا تستطيع احداث التطوير وحدها .

Digitized by Birzeit University Library

(١) ما اقوله عن الرشوة مصدره مقابلات عملتها مع اناس قدموا الرشوات لا مع اناس تسلموا الرشوات .

(٢) Fred W. Riggs, "Bureaucrats and Political Development: A Paradoxical View" in J. Lapalombara, Bureaucracy and Political Development (Princeton, N.J. : Princeton University Press,1963).

(٣) Samuel P. Huntington, Political Order in Changing Societies (New Haven, Conn. : Yale University Press, 1968).

(٤) المصـــدر نفســـه .

(٥) W.F.Abboushi, Political Systems of the Middle East (New Yor: Dodd, Mead & CO., 1970), pp. 168 - 169.

(٦) Huntingtion, Political Order.

(٧) Joseph Lapalombara and Myron Weiner, "The Origin and Development of Political Parties," in Joseph Lapalombara and Myron Weiner, eds., Political Parties and Political Development (Princeton, N.J.:Princeton, 1966).

(٨) Immanuel Wallerstein ed., Social Change (New York: Wiley, 1966).

Digitized by Birzeit University Library

الفصل السابع

Digitized by Birzeit University Library

Fred W. Riggs, "Bure[illegible] Political Development: A [illegible] View" in J. LaPalombara, [illegible] and Political Development (Princeton, N.J.: Princeton University Press, [illegible]).

Samuel [illegible]ington, [illegible] in Ch[illegible] Societies (New Haven, Conn.: [illegible] University Press, [illegible]).

[illegible] Middle East [illegible] 19[illegible]), pp. 1[illegible]

[illegible]ington, Political Order [illegible]

Joseph LaPalombara and [illegible] "The Origin and Development of Political Parties," in Joseph LaPalombara and Myron Weiner, eds., Political Parties and Political Development (Princeton, [illegible] 19[illegible]).

Immanuel Wallerstein, [illegible] Change (New York: Wiley, [illegible]

سيكولوجية التطور
وعواملها الاجتماعية

كما يقول المثل "كل جديد غريب" وكنا قد أكدنا في هذا الكتاب أن التطور العصري في العالم العربي هو غريب وسيظل غريبا ما دام دون قاعدة أيدولوجية في المجتمع . والآن نؤكد من جديد أن القاعدة الأيدولوجية ضرورية لترسيخ مفاهيم العصرية في نفوس الناس . فالدين الاسلامي لم ينجح في تطوير المجتمع العربي القبلي واعطائه القدرة لتأسيس حضارته المتفوقة الخلاقة وامبراطوريته العظمى الا عن طريق التفاعل النفسي بينه كعقيدة وأيدولوجية وبين من اعتنقوه من الناس . فعربي الجزيرة الذي هزم الامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية ووصل الى حدود فرنسا لم يكن هو نفسه الذي عاش في الجزيرة قبل الاسلام لأنه تغير كثيرا في نظرته وفي تطبعاته وفي مفاهيمه ، أي انه اكتسب شخصية فردية جديدة ، قبل الانطلاق وخلاله الى أن اصبح قوة جبارة لا يستهان بها . ولم توجد اية حضارة تاريخية الا بعد أن تأسست في نفوس الناس وشخصياتهم الفردية قبل تطورها ووصولها القمة . فالتفاعل النفسي بين عناصر الحضارات الجديدة وبين ناسها مهم للغاية . والعقيدة هي وسيط مهم لهذا التفاعل ولكن الأهم هو تربية الطفل على طرق الحضارة الجديدة واعطائه عناصرها الاساسية . فالأيدولوجية الجديدة تغير الأب والأم والمعلم ورفقة الجيل peer group والجيران والاصدقاء اي تغير العائلة والبيئة وتغرس اسس الحضارة الجديدة في مفاهيم الناس وهم بالتالي ينشؤون الاجيال الجديدة لتكون هذه الحضارة طبيعية بالنسبة لها وهذا يعني أن تكون الحضارة حضارة تلك الاجيال .

Digitized by Birzeit University Library

يعتقد علماء الاجتماع وعلماء النفس أن التطور العصري بدون تغيير صفات الشخصية وايجاد الطباع والمفاهيم الضرورية له لا يمكن أن يدوم أو أن ينجح . وهناك علماء اجتماع يظنون بأن التطور العصري ان لم تتغير المؤسسات معه يكون خطرا على نفسه وعلى المجتمعات الاخرى . ويقال ان اليابان والمانيا تطورتا دون تغيير كاف لمؤسساتهما التقليدية مما سبب الحروب العالمية في القرن العشرين .

ولكن سايكولوجية التطور معقدة وغير سهلة لانها ظاهرة متعددة الأبعاد multi-dimensional وهي عملية process لها علاقات عديدة بالتركيب العقلي mental structures للانسان[1]. ويقول علماء النفس ان التغيير المطلوب للتطور العصري في الشخصية الفردية لا يمكن أن يكون جزئيا او محدودا بل يجب أن يكون شاملا ومتكاملا ومؤثرا على نواح عديدة من النشاط العقلي . فالشخصية العصرية لا تتكون الا بتغيير التركيب العقلي للانسان لأنه بدون هذا التغيير سيعود الى طريقته التقليدية وعاداته القديمة في التفكير والسلوك والشعور . واذا لم يتم التوافق النفسي بين العصرية والشخص حصل التوتر الداخلي في الشخصية وهذا التوتر له تأثير على سلوكية الفرد وهذا بدوره له تأثير سلبي على المجتمع ككل .

فالتطور العصري يجب أن يصحبه التطور النفسي الذي له تأثيرات مهمة على نواح كثيرة من الوظائف العقلية ولا سيما تركيب الأنا ego structures وبالذات العنصر المساعد للشخصية على مواجهة البيئة وعلى ايجاد الوسائل لحماية الشخصية من اي خطر يتهددها اي مساعدتها على تكوين ميكانيكية دفاعية defense mechanism .

ويقول علماء النفس التقليديون ، ولا سيما الفرويديون

Digitized by Birzeit University Library

منهم ، أن تكوين الشخصية يكتمل في سن مبكرة . وحتى زمن قريب كان اكثرهم يعتقد أن الشخصية لا تتطور بعد السنين الاولى من حياة الشخص . ولكن علماء النفس العصريين ،ومنهم العالم الشهير ايرك ايركسون Erik Erikson ، لا يوافقون على هذه الحتمية اذ يقولون ان التركيب العقلي للشخصية الانسانية يتغير في جميع مراحل الحياة (٢). ورغم هذا الاختلاف فأكثر علماء النفس يوافقون على أن السنين الاولى هي الاهم رغم عدم توقف تطور الشخصية عند هذا الحد . وبالنسبة لنا فاننا نسترعي الانتباه الى اهمية التربية البيتية للطفل اذ نجد فيها أساس التطور العصري الناجح ولكننا سنعود لبحث هذه النقطة فيما بعد .

واذا كانت العصرية تتطلب نفسية جديدة فان من المهم التساؤل عن خصال او صفات الشخصية وعناصر الأنا الضرورية لهذه النفسية الجديدة او الضرورية للتغيير النفسي الذي يتجاوب مع التطور العصري . هذه الصفات هي اربع : الشعور بالتفاؤل optimism ، الشعور بالفعالية efficacy ،الشعور مع الآخرين empathy ، والميل للمجازفة risk(٣) .

وهذه الصفات ضعيفة في المجتمع العربي التقليدي اي لدى الاكثرية الساحقة من العرب ، ونحن في الحقيقة لا نجدها الا لدى الجماعات العصرية المدنية ، وعادة يكون وجودها غير كامل لعدم اكتمال التطور النفسي حتى في هذه الجماعات . ولأن الشخصية العربية متأثرة بالثقافة الدينية فان النظرة العربية الحالية غير متفائلة بالنسبة للمستقبل بل هي تميل الى الحتمية fatalism ومن عناصر هذه الحتمية الموت فالحياة عند المسلم هي وسيلة لغاية والغاية هي الحياة الثانية . ويفصل الحياتين الموت وهذا يجعل الحياة الاولى ثانوية بالنسبة للحياة الثانية . وهذه المشكلة توجد في

Digitized by Birzeit University Library

جميع المجتمعات الدينية او المتأثرة بالدين سواء كانت مسيحية او مسلمة او يهودية او تابعة لأي دين آخر من الديانات التي تؤمن بأفضلية الحياة الثانية . ولكن المجتمعات التي استطاعت التطور هي المجتمعات ذات الأيدولوجية الدنيوية اي المجتمعات التي فصلت الدين عن الدولة او التي تبنت النظرة القائلة ان الدين هو من ضمن الخصوصيات لا من ضمن العموميات . هذه المجتمعات متفائلة بالنسبة لحياة الانسان على الارض فهي تجد السعادة فيها وهي على العموم غير مستمدة لتأجيل سعادة اليوم الى الغد وتفترض أن الحياة الافضل هي التي تكون أسعد في كل يوم .

ويجب أن نفرق بين مسلم اليوم ومسلم الحضارة العربية التاريخية ، فكما قلنا الدين شيء والنظرة الدينية شيء آخر . فالنظرة الاسلامية الحاضرة بعيدة ، في نظرنا ، عن الدين كما عرفه المسلمون الاوائل وارتباطها به ضعيف لأنها تعكس الاضمحلال النفسي الناتج عن ضعف القيم الدينية ومقاييسها الاخلاقية . أما المسلمون الاوائل فقد كان التفاعل النفسي بينهم وبين القيم الدينية الحضارية قويا للغاية . ورغم انهم كانوا يؤمنون بأفضلية الحياة الثانية الا انهم كانوا يشددون على العمل للحياة الاولى كأساس للنجاح في الحياة الثانية اي كامتحان يجب النجاح فيه لدخول الجنة . وهناك نقطة اخرى مهمة وهي أن عصرية اليوم تختلف في مقاييسها عن عصرية الامس فالمسلمون الاوائل كانت عندهم القيم الضرورية لبناء حضارتهم العظيمة لأن مقاييسها كانت تختلف . أما اليوم فالعصرية لا يمكن أن تكون بمقاييس تصلح لزمن ماض وحضارة ماضية مهما كانت عظمتها في ذلك الوقت . وقد شرحنا هذه النقطة في مكان آخر .

وعلى كل حال فالتفكير في الموت يوحي للنفس بالتشاؤم

Digitized by Birzeit University Library

والخوف . ورغم أن المسلم المعاصر يؤمن بأفضلية الحياة الثانية الا انه يخاف من الموت لانه يخاف من الامتحان ولأن ايمانه ضعيف ولأنه يشك بأنه على درجة من الصلاح تكفي لادخاله الجنة . وجزء من هذا الشك نابع من عدم ايمانه بأن عصره وزمنه يمكن أن يكونا صالحين ، وهو في بعض الاحيان يشك في مجتمعه ككل بأنه غير اسلامي بالمعنى الحقيقي . قارن وضعه بوضع المسلمين الاول الذين كانوا يواجهون الموت بصدر رحب ويتمنون الشهادة ليدخلوا الجنة . لولا هذا الايمان لما استطعنا تعليل انتصاراتهم على أعدائهم خصوصا وأن اعدادهم كانت ضئيلة جدا بالنسبة لاعداد اعدائهم .

وفي الحقيقة أن قاعدة الحياة الطبيعية هي التشاؤم حتى دون تأثير الاديان السماوية لأن الموت هو حقيقة لا نعرف كيف نتقبلها . والاديان تجعلنا نتقبلها باعطائنا الامل بحياة ثانية وبتقليل الاهمية النسبية للحياة الاولى.والذي يجعل الانسان العصري يختلف عن انسان المجتمع الديني هو احترامه وتقديره للحياة الاولى وهذا الاحترام لا يكون قويا الا عن طريق أيدولوجية دنيوية ، خصوصا اذا كان معنى العصرية الحضارية ماديا . والماركسية هي من الأيدولوجيات التي تمنح معتنقها التفاؤل بالحياة الدنيوية وهذا هو من منافعها النفسية . والعربي هو بحاجة الى أيدولوجية قومية تعطي الحياة الدنيوية قيمة عالية وتعترف بالموت كحقيقة واقعية اذ بدون هذا لا يمكن للعرب أن يكونوا متفائلين بالنسبة للمستقبل ، مستقبلهم كأفراد وكجماعات .

وشعور العربي بالفعالية efficacy ضعيف . ومن اسباب ضعفه النظرة الدينية وكونه انسانا تقليديا . فهو يؤمن بالقضاء والقدر وبأن قدرة الانسان على تغيير الحياة

Digitized by Birzeit University Library

والسيطرة على الطبيعة محدودة لأن الله وضع قوانين الحياة وقرر مصير الانسان من البداية الى النهاية . فاذا كانت الحياة مخططة له فمن المنطق أن تكون فعاليته او مقدرته على التغيير والتأثير على الحياة ضعيفة . فالعربي المُدين، خصوصا كبير السن ، ينظر الى الغنى والفقر على انهما من صنع الله . فالغني "الله اعطاه" والفقير "من نصيبه" فبدلا من أن يثور هذا الفقير او على الاقل يتساءل ليجد سبب فقره في الاحوال الدنيوية والانسانية تجده يشكر ربه على نعمه ويسأله أن ينعم عليه في الآخرة .

وهناك نظرة غريبة عند المسلم فهو يظن أن الحياة الصالحة هي حياة الفقير لا حياة الغني لأن الغنى مادي والمادة تغري وتفسد والاغراء هو من صنع الشيطان . فاذا كانت المادة شيئا سلبيا فالتطور المادي يكون سلبيا . وانني اعتقد أن التطور الاقتصادي ـ المادي الذي يحدث في العالم اليوم ينقصه الدعم النفسي الضروري لفهمه ولتنظيمه على اسس متينة . والمجتمع العربي تنقصه العلمانية ، والتطور العلمي متأخر فيه بسبب هذه النظرة . فالاتكالية عند العربي قوية فهو كثيرا ما يتكل على الله ويتكل على غيره من الناس ورغم أن هذه الاتكالية لها اسباب خارج النظرة الدينية ، في التركيب الاجتماعي الاقتصادي ، الا أن النظرة الدينية التقليدية لها أثرها النفسي عليها .

والشعور مع الناس بمعنى التطور الوجداني لعواطفهم empathy ضعيف للغاية . ومن اسبابه أن الانسان التقليدي تكون عادة ثقته بالآخرين ضعيفة الا اذا كان ينتمي اليهم عن طريق قرابة الدم او الصداقة الشخصية او في بعض الاحيان الدين او العنصر وفي الغالب عن طريق العلاقات الشخصية . وهذا الانسان عادة يخاف من الغرباء فهو يشك بهم وباخلاصهم لأنه

Digitized by Birzeit University Library

تعود أن يربط الثقة بالمعرفة الشخصية او بقرابة الدم أو بالمكان الصغير كبلدته او بالجماعة الصغيرة كطائفته فعالمه ضيق وخبراته وعلاقاته ضيقة ايضا . والثقة عند العربي اساسها العائلة او الحمولة او القبيلة او العشيرة لأن العائلة والحمولة هي اساس النشاط الاقتصادي والاجتماعي ومركز الولاء وهذه الوحدات معروف عنها انها محافظة .

والعربي ميال للحكم على الآخرين بسرعة وحكمه متحيز للأقارب والمعارف وهو قاس على الغرباء . ونحن لا نعني بالحكم القضائي بل الحكم الفردي كحكم شخص على شخص آخر بأنه "عاطل" او "خائف" او "سافل" وما الى ذلك من الاحكام الشخصية . وحتى شعور العربي بالانسانية تجده اقوى في اطار القرابة والمعرفة الشخصية منه في المجالات التي لا تتطلب المعرفة الشخصية فكلما بعد عنه الناس كلما قلت انسانيته . وهنا كذلك نجد فكرته عن الانسانية ضعيفة لأنه لا يفهمها الا بمعناها الديني . فالوحدة الانسانية هي وحدة اسلامية والأخوة هي اخوة اسلامية وغير المسلم هو انسان ليست له حقوق الا اذا كان له دين سماوي كالمسيحي واليهودي .

ومقاييس المسلمين الاوائل بالنسبة لعلاقاتهم الانسانية وشعورهم مع الآخرين كانت ارقى بكثير من مقاييس العرب المسلمين اليوم . فمقاييس العدل والرأفة والرحمة كانت اعلى وارقى وذلك لانها مقاييس وضعها الله وطالب بها المسلمين . أما اليوم فالمقاييس الدينية ضعفت وسيطرت القبلية والاقليمية والفردية والطائفية على الناس وصارت مقاييسهم تعاني من الازدواجية : مقاييس لافراد الجماعة الصغيرة ومقاييس اخرى لمن ليسوا من هذه الجماعة .

هناك فلسفات دنيوية تحمل مقاييس عالية بالنسبة

Digitized by Birzeit University Library

للافراد الآخرين . وهذه الفلسفات مبنية على القول العربي "عامل غيرك كما تحب أن تعامل أنت" الا ان العربي نسي هذا القول . ولكن المجتمعات التي تكون العلاقات الشخصية فيها ضعيفة ، اي البلاد الصناعية ، لم تنسه بل بالعكس هي مضطرة ان تفهم الانسان عن طريق الانسان اي ان الشخص يفهم الاخرين ويشعر معهم عن طريق شعوره وفهمه لنفسه وهذا اساس ما يسمى بال empathy .

واني اضيف عاملا نفسيا آخر له علاقة بالشعور مع الآخرين بمعنى ال empathy وهو الثقة بالآخرين . وهذه الصفة ، كما قلنا ، ضعيفة عند العربي الا في الجماعات الصغيرة التي ينتمي اليها ، كالعائلة والحمولة مثلا . ولكن هذه الصفة ضرورية للاقتصاد العصري الذي لا يمكن بدونه رفع مستوى الناس ، خصوصا اذا كانت اعدادهم كثيرة . فالاقتصاد بحاجة الى تنظيمات اعمال enterprises كبيرة كالشركات في النظام الرأسمالي مثلا . وهو بحاجة الى استثمارات كبيرة واستهلاك كثير في سوق كبير . وكل هذا يتطلب علاقات مبنية على اساس الثقة بالناس الغرباء .

فالعربي الذي لا يثق بالغريب لا يستطيع ، على العموم ، تنظيم الاقتصاد الا عن طريق رأس المال الفردي او العائلي . ولكن من جديد بدأ الحال يتغير ولو في مجالات محدودة وبين جماعات معينة اذ تكونت الشركات وبيعت الاسهم عن طريق الدعاية والاغراء رغم ان المعرفة الشخصية وقرابة الدم غير موجودة في علاقات الشركة بالمساهمين . ولكن معظم الاقتصاد العربي ما زال فرديا وعائليا .

والثقة ضرورية في النظام الاشتراكي ايضا . فكل نشاط كبير يتطلب تعاون اعداد كبيرة من الناس لا ينجح اذا كان

Digitized by Birzeit University Library

مستوى الثقة منخفضا . والعربي لا يستطيع العمل مع الغرباء ، وكل تنظيم غير شخصي في العالم العربي يفشل لأنه ينقلب دائما الى نظام شخصي حتى البيروقراطية الحكومية لا تعمل الا عن طريق العلاقات الشخصية وهذا سبب لعدم فعاليتها .

وهناك في النظام الرأسمالي اهمية كبرى للمجازفة اذ أن هذه الصفة النفسية ضرورية للعمل التجاري والصناعي الذي يتطلب استثمار الاموال الكثيرة . والانسان المتطور اي العصري يفهم معنى المجازفة ، على انها مخاطرة في حقل غير معروفة نتائجه وانها تحتمل الخسارة وضياع المال كما انها ضرورية للنجاح الكبير والربح الكبير . اما الانسان التقليدي فلا يحب المجازفة واقتصاده بطيء متخلف لأنه قلما ينشط في حقول لا يعرف نتائجها ولأنه يخاف من الجديد ويرتبط بالقديم ، وهو ايضا يحب البساطة ويكره التعقيد .

وهناك عوامل نفسية اخرى مهمة للتطور العصري منها علاقة الشخص بالتكنولوجية والآلات . والانسان التقليدي (المتخلف) يخاف من الآلات وتنقصه الثقة فيها فهو يفضل الاعتماد على احساساته وقدراته الطبيعية . والعلاج لهذه المشكلة هو بتعريفه على الآلات وهو صغير وربما كانت اللعب الميكانيكية هي البداية ولكن هذه الطريقة صعبة حيث المجتمع ريفي والناس فقراء .

وثمة عامل نفسي اخر هو الاعتماد على النفس وهو ضروري للمجتمع العصري . والاعتماد على النفس يجب أن تصحبه القدرة على الحياة في جماعات علاقاتها الشخصية قليلة ، والتعود على مثل هذه الحياة وتقبلها . ولا يمكن أن يتطور المجتمع بدون علاقة نفسية بين الافراد والنظام . فالنظام هو اكثر من ميكانيكة مؤسسات وعمليات procedures

Digitized by Birzeit University Library

ادارية فهو قيمة اجتماعية وعامل نفسي فردي وهو اتجاه attitude تفشل بدونه الميكانيكية . وكذلك فالعصرية تتطلب برنامجا schedule ومعنى ذلك انها تحتاج اناسا يحترمون الوقت ويقدرونه فقيمة الوقت عند التقليدي اقل منها عند العصري خصوصا اذا كان هذا التقليدي ريفيا او يعيش في بلاد صغيرة وحياته بسيطة كما هو الحال في معظم البلدان المتخلفة .

واننا نؤكد بأن هذه الامور لها قواعد نفسية مهمة . فاحترام المواعيد او أن يضع الانسان برنامجا توقيتيا ليومه ، كل هذا يحتاج الى نظام نفسي وان لم يتجاوب ويرتبط مع عناصره النفسية فلا يمكن ان ينجح . وهذه العناصر لا تصير عن طريق المحاضرات فقط اذ لا يكفي ان نقول للناس "امشوا بالنظام يا عالم" فالمحاضرة يجب أن تتبعها ممارسة والعلاقة يجب ان تبدأ بين الكبير والصغير حتى تنجح في الاجيال القادمة .

ويقول علماء النفس ان العصرية تتطلب اربعة انواع من التغييرات النفسية : تغييرات في تركيب الأنا ، وتغييرات في الاتجاه attitude ، وتغييرات في المعرفة ، وتغييرات في السلوكية (٤). أما التغييرات في الأنا فقد بحثناها وهي تؤثر على مركز النشاطات العقلية للانسان. والأنا ، كما قلنا ، هو موجه الشخصية الفردية والدافع الاساسي لها . وبعد الأنا يجيء الاتجاه الذي يؤثر على الحياة اليومية ولكنه مرتبط بحياة الشخص الاكبر سنا اكثر من ارتباطه بحياة الشخص الصغير . وهو اسهل تغييرا من الأنا لانه يمكن ان يظهر في سن اكبر ولانه يمكن التخلص منه كليا اذا كانت وسائل الاتصال means of communication قوية ومهياه لهذا الغرض . والتأثير على الاطباع يكون

Digitized by Birzeit University Library

اكثر سهولة كلما كان الشخص اكثر تطورا اي اكثر عصرية .

وما قلناه سابقا عن احترام المواعيد وعن البرامج وعن علاقة الشخص بالآلات هي كلها من ضمن النظرات . وهناك نظرات اخرى مهمة للعصرية مثل ما يتعلق بكيفية مكافأة الشخص على عمله وجهده وكيفية توزيع المنافع او المصالح العامة . فالتقليدي يكافيء الاخرين عن طريق الانتساب ascription وهذا معناه الانتساب الى دين معين أو طائفة خاصة او عائلة او حمولة خاصة او قرية او بلد معين او لغة او عنصر او جنس او سن معينة . وكلنا يعرف المشاكل الناتجة عن هذه النظرات وتأثيرها السلبي على التطور العصري . فالانتساب له اولوية على المؤهلات والكفاءات في المجتمع العربي كما قلنا سابقا . وهذا النظام يحد من انتاجية الناس والمؤسسات . والانتساب له علاقة بالولاء الشخصي وهذا يتناسب مع حياة الانسان التقليدي المحدودة جغرافيا وسكانيا . أما الانسان العصري فيميل الى توسيع نطاق نشاطه جغرافيا وسكانيا وارتباط ولائه بالمؤسسات أقوى بكثير من ارتباطه بالاشخاص . وعلى العموم فان الخاص private قوي عند العصري وهذا يختلف عن الشخصي personal القوي عند التقليدي . واذا قارنا العصري بالتقليدي من ناحية نظرتهما للمصالح نجد أن المصلحة العامة ضعيفة عند الاثنين خصوصا في النظام الرأسمالي ولكنها اوسع نطاقا عند الانسان العصري وتحت ظروف خاصة تجدها اقوى لديه .

اما التغييران في المعلومات information والسلوكية فيقعان في الاطار الخارجي من التركيب العقلي mental structure حيث توجد مفاهيم الشخصية ومعرفتها . وهذه المفاهيم perceptions لها علاقة بمعرفتنا الخارجية

Digitized by Birzeit University Library

اي معرفتنا عن العالم الخارجي . والمعرفة والمفاهيم قريبة من السلوكية ، خصوصا في المجال السياسي . والمعلومات هي اهم ناحية في علاقة المفاهيم والسلوكية بالتطور النفسي . لذلك نجد مفاهيم وسلوكية الانسان التقليدي متأثرة بقلة معلوماته وضعف وسائلها . ولا شك أن انتشار الأمية في العالم المتخلف هو سبب مهم لهذه الحالة . فنسبة الامية في البلاد العربية عالية خصوصا في المناطق الريفية والطبقات الفقيرة . ومعنى هذا أن الكثير من السكان لا توجد لديهم المعلومات الكافية الا ما يسمعونه من الناس رغم تحسن الوضع في مناطق عربية كانت منذ مدة وجيزة على هذا الحال . فاليوم من الفقراء من يملك جهاز التليفزيون ، وكثيرون منهم من يملكون اجهزة راديو مما يساعد على الحصول على المعلومات ، ولكن الامية هي مانع قوي بالنسبة لوسائل المعلومات التي تتطلب القراءة والكتابة (٥). في السياسة ، قلة المعلومات معناها قلة الافكار السياسية وقلة الافكار السياسية معناها قلة الآراء السياسية . والانسان التقليدي لا يشارك الآخرين في الرأي لانه لا يتحدث عن امور لا يعرفها ولا يفهمها . فهو عادة يظن ان الاحداث البعيدة عنه غير مهمة ولان الاحداث السياسية مرتبطة بالحكم والحكومة موجودة في العاصمة والعاصمة بعيدة عنه تجده ينظر الى السياسة وكأنها لا تخصه .

ولكن البروفسور جابرييل ألموند Gabriel Almond يفرق بين وضع الشخص ونشاطه السياسي في مدخل العملية السياسية وبينه في مخرجها (٦). فالانسان التقليدي غير نشيط قبل صدور القرارات السياسية اي انه لا يهتم بالتأثير على هذه القرارات قبل أن يتخذها اصحاب السلطة . أما بعد اتخاذها فيكون نشيطا خصوصا اذا كان لها تأثير سلبي على حياته . فهو قلما يشكو او يعطي رأيه او يطالب بمصلحته

Digitized by Birzeit University Library

قبل عمل القرارات أما اذا شعر بأن القرارات ليست في مصلحته فانك تجده يطور نظام حماية لا بأس به وذلك ليتلاشى اضرار هذه القرارات . وقد ذكرنا الوساطة كعنصر مهم في هذا النظام . أما الانسان العصري فسلوكيته السياسية تختلف عن سلوكه التقليدي لأنه يهتم ويكون نشيطا نسبيا قبل عمل القرارات السياسية من قبل السلطة ، وهو يميل للاشتراك بعملية القرارات نفسها وذلك بتقديم مطالبه لاصحاب السلطة وابداء رأيه في الامور السياسية ، أما بعد عمل القرارات فالفرق بينه وبين الانسان التقليدي يقل ، فكلاهما ينشط ليحمي نفسه من الاضرار ولكن الاسلوب يختلف فالانسان العصري يعتمد على المؤسسات الثانوية كعنصر مهم في نظام حمايته وطبعا من هذه المؤسسات جماعات الضغط pressure groups او جماعات المصلحة - interest group كما يسميها البعض .

ان التغييرات النفسية الاربعة التي تتطلبها العصرية ليست هينة فكل انتقال حضاري يتطلب انتقالا نفسيا صعبا وتغييرات كثيرة في الشخصية الانسانية . ويقول بعض علماء النفس ان الانتقال النفسي يكون عادة مؤلما للشخص المتأثر به ، وكثيرا ما يصحب هذا الانتقال التوتر النفسي الذي تكون له في مراحل خاصة نتائج سياسية سلبية .

هذه النظرية تقول ان التوتر النفسي الذي يعانيه الشخص في مراحل التحديث ينتج عنه توتر سياسي سيء اذا فشلت المؤسسات العامة في معالجته والحد منه . وهي تقول بالاضافة انه اذا لم يحصل التوافق في عملية التطوير بين شخصية الجماعة الاساسية basic personality ومتطلبات التطور العصري فالنتيجة تكون تراجعا وتدهورا في التطور السياسي . ويعرف رالف لنتون Ralph Linton "الشخصية الاساسية"

Digitized by Birzeit University Library

على أنها عناصر الشخصية التي يشترك فيها معظم افراد المجتمع وهذا الاشتراك هو نتيجة اختباراتهم السابقة (٧) . والتوتر السياسي يفترض وجود توتر نفسي في عدد كاف من اعضاء المجتمع .

ولتفادي اضرار التوتر النفسي ، يجب أن نفهم كيف يتغير الانسان دون انزعاج ، فالانسان يتعلم الجديد عن اربع طرق(٨). الطريقة الاولى هي ما يسميه العلماء reward-punishment أي مكافأة الشخص عندما تكون سلوكيته بالنسبة للجديد او الحديث ايجابية ومعاقبته عندما تكون سلوكيته سلبية . وبعد مدة يتعود الشخص أن يختار المرغوب به والضروري من السلوكية الايجابية وأن يتخلص من السلوكية غير المرغوبة وغير الضرورية . والطريقة الثانية تكون باعتماد اسلوب النماذج models لتشجيع الناس على فهم سلوكية جديدة معقدة او كبيرة ، وذلك بمشاهدة آخرين اكثر عصرية يقومون بنشاطات واعمال حديثة . والطريقة الثالثة هي طريقة التعميم Generalization وهي نقل الدروس التي نتعلمها في نشاط معين الى نشاطات اخرى . والنشاط المنقول عنه يجب أن يكون عصريا وحديثا . فمثلا يمكن نقل ما نتعلمه في المدرسة الى ما نعمله ونحتاجه في التجارة . والطريقة الرابعة هي استعمال الامثلة exemplification وهذه تتطلب وضع الشخص في مؤسسة عصرية ليتعلم اساليبها الحديثة ولتتأثر سلوكيته الخاصة بها . فالعامل الذي يشتغل في مصنع حديث ربما تعود على نظام المصنع الذي يتطلب الدقة ومراعاة الاوقات والبرامج schedules فيتأثر به في سلوكيته الخاصة خارج المصنع ومثال آخر هو الاقتباس من السلوكية المتبعة في الجيوش الحديثة .

Digitized by Birzeit University Library

واذا فشلت هذه الطرق في معالجة التوتر النفسي ، وهذا ممكن خصوصا اذا كان التطور سريعا ومكثفا ، فالنتائج عادة تكون سيئة للغاية . ومن الضروري فهم انواع الاضطرابات النفسية التي ربما اثرت على المجتمع تاثيرا سيئا . ومنها ما يسميه علماء النفس "فقدان الغاية" object loss وهو الشعور بفقدان شيء او شخص له قيمة عاطفية او قيمة اجتماعية . وفي هذه الحالة ينقلب الشخص او الشيء المفقود نتيجة للتطور السريع الى شيء نفسي او عاطفي ويكون له اهمية كبيرة في التركيب العقلي للشخصية التقليدية . واذا لم يعوض الشخص عن الشيء المفقود فالنتيجة تكون اضطرابا نفسيا مزعجا . ومثل هذا الشعور يحدث عادة عند جماعات خاصة كالجماعات الاثنية الا اذا كانت المؤسسات قادرة على تعويضهم وموازنة حالة الامن النفسي لديهم .

وهناك اضطراب نفسي آخر له علاقة بالاول يسمى "الحرمان النسبي" relative deprivation وهذا يكون عندما يشعر الشخص بخيبة الأمل frustration لوجود فارق كبير أو فجوة gap بين آماله وتوقعاته من ناحية expectations وبين امكانيته وقدراته capabilities من ناحية اخرى. ويقول جور Ted Robert Gurr أنه في كثير من الاحيان تسبب خيبة الامل الناتجة عن مثل هذه الفجوة التعدي agression على الآخرين او على اشياء رمزية لها أهميتها عند المصاب بخيبة الامل .

ونوع ثالث من الاضطرابات النفسية يسمى cognitive dissonance وهو عدم انسجام مفاهيم الشخص او معرفته . ويقول عالم النفس فستنجر Leon Festinger أن من اقوى رغبات الانسان رغبته في التوافق الداخلي بين مفاهيمه وادراكاته واحساساته وتوقعاته وآماله أي بين

مكتبة جامعة بيرزيت
Digitized by Birzeit University Library

جميع عناصر تركيبه العقلي(١٠). وعلى المستوى الفردي، نجد مشكلة عدم انسجام المفاهيم قوية لدى المثقفين من افراد المجتمع المتخلف كهؤلاء الذين يذهبون الى اوروبا وأمريكا للدراسة ويعودون الى بلادهم بعد تخرجهم وحصولهم على الشهادات العالية . هؤلاء الناس يشعرون بالتناقض بين ما تعلموه وتعودوا عليه في العالم الغربي وبين واقع الحياة في بلادهم .

ولكن مشكلة "الحرمان النسبي" هي ، في رأينا ، اخطر على المجتمع لانها اكثر تأثيرا على الجماعات والطبقات التي تشعر بالغربة ولأن نتائجها السياسية كبيرة كما كان الحال في بلاد كايران ولبنان . وعلى المستوى الفردي فخيبة الامل الناتجة عن الفجوة بين الآمال والقدرات تسبب الانطواء النفسي psychological withdrawal عند الاشخاص وهو ما يتمثل في مشاكل تعاطي المخدرات والمشروبات الكحولية وحتى في زيادة حوادث الانتحار .

على الصعيد الاجتماعي نجد أن الثورات والانقلابات العسكرية ليست وحدها ناتجة عن مشاكل الحرمان ؛ فمن الناس من يتراجع الى العقائد السماوية والروحانيات وحتى الى الخرافات والسحر كما هو الحال في المكسيك وغرب افريقيا وجنوب شرق آسيا . وفي البلاد العربية يلاحظ ان العودة الى الدين الاسلامي هي من المظاهر الظاهرة في السنين الاخيرة ، ولا شك ان لهذا الامر علاقة بالشعور بخيبة الامل الناتجة عن التطور العصري غير المتزن . وهناك دلائل واضحة على ازدياد ما يسمى بالجرائم العاطفية مما يدل على أن خائب الامل بدأ يعبر عن مشكلته في الباثولوجية (الامراض) الاجتماعية .

Digitized by Birzeit University Library

وسيلة التطوّر

كل بحث عن التطور العصري يجب أن لا ينتهي بمشاكله اذ انه من الضروري أن نفهم وسائله الناجحة او كيف يكون دون مشاكله او بمشاكل أقل . وهذا يعني بحث موضوع وسطاء agents التطور النفسي . ونوع الوسيط يعتمد على نوع النشاط العقلي المطلوب أو المرغوب تطويره . وهناك اربعة عناصر لهذه النشاطات العقلية كما قلنا سابقا او هي ثلاثة اذا اعتبرنا المعرفة والسلوكية عنصرا واحدا كما هو الحال في هذا الكتاب . فبالاضافة الى هذه الاخيرة ذكرنا الأنا ego والاتجاه attitude . واذا اردنا تغيير الانا فالوسيط الاهم لهذا التغيير هو العائلة لأن الطفل يترعرع في بيئتها فتجدها تؤثر على مركز نشاطه العقلي . والعائلة لها تأثير على الاتجاه والقيم ولكن وظيفتها الاولى هي التي ذكرناها . أما اذا اردنا تغيير الاتجاه فالوسطاء لهذا التغيير هم الكنيسة اي الدين ورفقة الجيل peer group كالاصدقاء او ابناء وبنات الحي او الكشافة وجمعيات اخرى ينتمي اليها الصغار في السن . والمدرسة هي الوسيط الوحيد الذي يستطيع التأثير على جميع النشاطات العقلية ، الانا والاتجاه والمعرفة والسلوكية . واتساع نفوذها سببه أنها تدعم التربية البيتية والقيم الاجتماعية وتعطي المعلومات والمعرفة عن طريق التدريس . ورغم اتساع نفوذ المدرسة في النشاطات العقلية الا أن نفوذها بالنسبة للأنا محدود . وعلى العموم فنفوذها على النواحي الأخرى من النشاطات العقلية ليس فيه عمق .

وهناك وسطاء آخرون يؤثرون على الاتجاه ومنهم النقابات العمالية والمصانع والجمعيات التعاونية والجيش .

Digitized by Birzeit University Library

واخيرا نذكر وسائل الاعلام مثل الراديو والتلفزيون والسينما والصحافة اذ لها مقدرة على تغيير الاتجاهات عن طريق اعطاء المعلومات وتوزيعها . ولكن تاثير هذه الوسائل على الأنا ضئيل جدا الا اذا كان يدعمها وسطاء آخرون .

هؤلاء الوسطاء هم الذين يهيئوون نفسية الشخص للتجاوب مع العصرية . ولذلك فان من الضروري أن تفهم المؤسسات السياسية في البلاد المتخلفة اهمية هؤلاء الوسطاء اذا كانت هذه البلاد تريد الانتقال الى العصرية واذا ارادت أن تنجح في مشاريعها التطورية . ان الكيانات العربية ، ومعظم دول العالم الثالث ، لم تفهم اهمية وسطاء التطور النفسي فهما كافيا ولا سيما اهمية العائلة والمؤسسات الاولية في التطور. لذلك فالتطور الذي يحدث في العالم العربي لا تصحبه تغييرات في تركيب الانا ، ونتيجة لذلك تظل الشخصية العربية تقليدية ويظل تركيبها العقلي تقليديا ومحافظا رغم التطور المادي الحاصل في الحياة العربية . وهذا معناه أن العربي يعاني من الفجوة التي تفصل تركيبه النفسي عن عالمه المادي العصري . وعلى ما يظهر لا توجد رغبة عند المؤسسات السياسية العربية لتغيير الشخصية العربية التقليدية تغييرا جذريا . وهي لا ترى ضرورة لمثل هذا التغيير لانها ، كمعظم العرب ، تفترض أن هذا التقليد متفوق وأن هذه الشخصية متفوقة ، رغم أن حقيقتها هي العكس : فهي لا شك متخلفة في عصرنا الحاضر ، وما لم يحصل ادراك قوي لهذه الحقيقة المؤلمة فلا يمكن أن يحصل تطور عصري حضاري عند العرب يرفع مستواهم المادي والروحي ويضمن لهم مركزا رفيعا بين الامم .

الشيوعيون هم الوحيدون في العالم الثالث الذين تنبهوا الى اهمية العائلة والمؤسسات الاولية للتطور . فكما قلنا سابقا التطور عند الشيوعيين معناه خلق جيل جديد وحياة

Digitized by Birzeit University Library

جديدة . ولذلك نجدهم يهتمون بالطفل والبيئة البيتية ورفقة الجيل . وهم يستغلون هؤلاء الوسطاء للتأثير على الطفل في جميع مراحل تطوره الى أن يصبح رجلا . وجمعيات الكومسمول والمؤسسات الاخرى انما هي موجودة لهذا الغرض .

ولأن المؤسسات العربية السياسية لا تهتم بالطفل ولا تريد تغيير تركيب العائلة والبيئة البيتية ، نرى من الضروري تخصيص ما تبقى من هذا الفصل للعائلة لتكون فكرة عن مشاكلها التقليدية والعصرية ، وربما لندرك اهمية تغيير الأنا في الشخصية العربية ولضرورة احداث هذا التغيير للوصول الى الاهداف القومية العربية . وبحثنا هذا سيكون عن العائلة العربية في الضفة الغربية .

العائلة العربيّة

العائلة هي اهم المؤسسات الاولية في المجتمع ، أي مجتمع ؛ فهي ، بالاضافة الى كونها المؤسسة التي تربي الاطفال ، تحافظ على القيم الاجتماعية التقليدية وتنقلها من جيل الى جيل . ولكنها تختلف من مجتمع الى مجتمع بدرجة تحفظها ونوع علاقاتها وحتى بشكل تركيبها .

ففي العالم المتقدم الصناعي الديمقراطي نجد العلاقات العائلية ضعيفة ونجد العائلة مبنية على اساس انها مكونة من الاب والام والاطفال اي انها Conjugal . وعادة تسكن العائلة في بيت خاص بها منفصلة عن الاقارب . وفي امريكا تفضل العائلة الصغيرة الابتعاد عن الاقارب اما في حي آخر او بلد آخر . وهذا عكس الحالة المفضلة عند العائلات العربية فالقرابة عند العرب معناها الاقتراب الروحي والجسمي . وحتى

Digitized by Birzeit University Library

في مخيمات اللاجئين تتجمع العائلات في المخيم الواحد حسب القرابة وتحاول التقارب لتكون متجاورة . وفي مخيم قلندية بين القدس ورام الله تبادل السكان البيوت لتكون العائلات المتصلة بقرابة الدم قريبة من بعضها البعض .

ان العائلات العربية تختلف بالطبع عن العائلات الغربية في علاقاتها فهي اكثر تحفظا واقل ديمقراطية . وفي الحقيقة ان العلاقات العائلية في كل العالم العربي سلطوية أي لا ديمقراطية . وهي تفضل الذكر على الانثى والاكبر على الاصغر بين الاطفال والابناء . والعائلة العربية تشكل اكبر مانع للتقدم نحو العصرية الحضارية . وبينما نجد العائلة في المجتمع الغربي ضحية العصرية نجد العصرية في المجتمع العربي ضحية العائلة التقليدية .

والتحفظ في النظام العائلي يصير متطرفا لأن الطفل يربى ليدرك الممنوع والمسموح على اساس الحرام والحلال . ففكرة الحرام ، اي الممنوع ، قوية في نفسية الانسان العربي وهي طبعا فكرة دينية . وعندما تكون للممنوع قاعدة دينية يصير الخروج عليه صعبا والتفكير في صحته او عدم صحته ممنوعا . وحتى عندما يكون الممنوع شيئا لا علاقة له بالدين تستعمل كلمة حرام خصوصا مع الطفل لأن كلمة حرام لا تحتاج الى الشرح والتعليل ، وما اكثر الحرام في حياة العربي ! واذا كانت للشيء علاقة بالمقاييس الاجتماعية خصوصا الاخلاقية استعملت معه كلمة عيب . وانني اعتقد أن الطفل يسمع هاتين الكلمتين كثيرا لدرجة أن كل شي يصبح اما "حراما" او "عيبا" وتوجد عند الطفل سايكولوجية الحرام والعيب لدرجة نستطيع معها أن نصف حياة الجماعات التقليدية في العالم العربي بأنها حياة الحرام والعيب ، والمجتمع نفسه مجتمع الحرام والعيب . وحيث أن الطفل لا

Digitized by Birzeit University Library

يجد الحرية بسبب سنه وعدم ادراكه فهو لا يجد الكثير من المحلل وكل شيء يعمله فهو اما عيب او حرام .

طبعا كل مجتمع يربي اطفاله ليعرفوا الممنوع من المرغوب ولكن في تربية الطفل العربي الممنوع والعيب مبالغ فيه كثيرا لأن له علاقة بالدين والاخلاق ، ولأن الأب والأم لا يحاولان تفهيم الطفل اسباب المنع . فالطفل يكبر وهو يدرك أن سبب الممنوع والعيب هو قوة خارجية ، الله مثلا ، او الناس في الحالة العيب ، ويستقر الادراك عند الناس بأن ما يمنعه الله والناس ليس من الضروري وجود اسباب له . واني اعتقد أن المجتمع العربي لا يحاول في كثير من الاحيان أن يعلل او يجد الاسباب للسلوك الممنوع . عندما يكون الشيء عيبا يصير مقياسه "السمعة" والعربي يخاف على سمعته لأن الشرف عنده مهم للغاية . والسمعة المربوطة بالعائلة هي عدو التقدم في المجتمع العربي اذ أن كل تغيير او كل جديد يجب أن يرضخ لرقابة السمعة لا لمقاييس العقل والمنطق أو الحاجة والمنفعة او المصلحة العامة . وفي كثير من الأحيان تسمع الأم تقول لابنها او بنتها "عيب" ! ويسأل الطفل "ليش" ؟ ويكون الجواب "هيك" ! ويصبح الممنوع تقليدا وكثيرا من الاحيان تسأل عن عادة معينة وعن سبب وجودها كمانع فتسمع الجواب "احنا عرب" و "احنا مسلمين" وكأن هذا سبب كاف للمنع . ولو اعطي الطفل سببا لحقيقة الممنوع ، مهما كان استيعابه له محدودا ، لتعود على ربط الممنوع الى اسبابه وعندما يكبر ويجد انه غير مقتنع بالاسباب يكون عدم قبول المنع امرا سهلا عليه . وفي الحقل السياسي تكون هذه السايكولوجية مهمة لتطوير النظام الديمقراطي ولرفض الظلم ومقاومته . وقبول الممنوع سببه التربية التي لا تربطه بأسبابه وتستعمل العصا لاثباته وتنفيذه .

Digitized by Birzeit University Library

وعندما يذهب الطفل الى المدرسة يسمع من معلمه كلمتين "عيب" و "حرام" ويجد العصا تنتظره . وبعد المدرسة وعندما يصبح شخصا كاملا يجد الحكومة تمنعه . وفي كل مرحلة من حياته من الطفولة الى النضج يصير الممنوع اكبر واكثر والعصا اطول ومع ذلك فلا الاب ولا الام ولا المعلم ولا الحكومة تفسر له لماذا منع ذلك الممنوع . لذلك نجد في النفسية العربية ادراكا للممنوع والعقاب أي ان العربي يتوقع العقاب اذا خالف او اذا سأل "ليش"؟ وفي بعض الاحيان تكون كلمة "ليش" نفسها ممنوعة .

ومن نتائج هذا النوع من التربية الخوف من الجديد والشك فيه لأنه ربما يكون عيبا ويسيء للسمعة او حراما ويسيء للدين . ولكن الممنوع مرغوب ولذلك تظل في نفسية العربي رغبة كامنة له واذا اتيحت له الفرصة عمل الممنوع سرا وبعيدا عن الناس الذين يؤشرون على سمعته . وتراكم الضغط على العربي بسبب كثرة الممنوع ـ العيب والحرام ـ يسبب رغبة قوية فيه للتمرد والعصيان وحتى الثورة . والتحرر له عوامل نفسية لأن هدفه النفسي هو السلطة واهم سلطة يريد الشخص التمرد عليها هي سلطة الاب والتقاليد . ولكن التمرد على الأب والسلطة العائلية صعب للغاية لاعتماد الشاب والشابة على العائلة ماديا ولأن علاقتهما معها عاطفية . وفي اعتقادي أن التمرد يحدث على شكل انفجار او يصير احتمال حدوثه على ذلك النحو قويا في علاقات الشخص غير العاطفية اي انه كلما ابتعد سبب التمرد عن العاطفة كلما زاد احتمال الانفجار . والانفجار يحدث عادة في العلاقات السياسية أي ضد السلطة السياسية لأن علاقة هذه السلطة العاطفية مع الناس قليلة . فالثورات السياسية هي انفجارات نفسية هدفها الاساسي هو الأب . والملك او رئيس الدولة الذي يثور عليه

Digitized by Birzeit University Library

الناس هو بديل الأب الذي لم يستطع الشخص الثورة عليه في سن مبكرة .

الأب في العائلة التقليدية هو الدكتاتور الاول لأنه حسب التقليد العربي هو السلطة المطلقة فهو المشرع والمنفذ والقاضي والشرطي . وعلاقته مع ابنائه هي علاقة ملكية اي انه يملك ابناءه . والأب التقليدي يسيطر على ابنه في جميع مراحل حياته ، اذا امكنه ذلك وكانت الظروف مناسبة . ومن الآباء التقليديين من يقرر نوع اللباس الذي يلبسه ابنه أو الذي لا تستطيع ان تلبسه بنته ، وهو يقرر المدرسة ونوع الدراسة النافعة لابنه ، ومنهم من يختار تخصص ابنه الجامعي ومنهم من يختار له زوجته ويطالبه بانجاب الاولاد . ولا يصح لافراد العائلة انتقاده ، خصوصا اذا كان التقليد عنده قويا وشخصيته مهيأة له . ورأي الأب التقليدي يحترمه افراد العائلة الذين لا يجرؤون على نقاشه او مخالفته حتى ولو كان خطأ . وهنا يبدأ القمع الفكري ، فحسب التقليد الأب هو دائما على صواب والابناء هم دائما على خطأ .

والطاعة العمياء تخلق مشاكل اكثر عندما يكون الابن او البنت على مستوى ثقافي او مادي اعلى من مستوى الاب وفي هذه الحال تكون النتيجة اما انعزال الاب او انعزال الابن او الابنة او الفراق والابتعاد . واي نتيجة من هذه النتائج تكون مؤلمة للغاية للاشخاص من المعنيين لأن العلاقة العاطفية بينهم كانت قوية للغاية .

وحيث أن التربية البيتية دينية اي أن اطارها الثقافي هو اسلامي ، نجد الدين يدعم ويقوي هذا النوع من العلاقات العائلية ، فالدين الاسلامي يأمر الابناء بطاعة الوالدين طاعة عمياء ؛ فرضاء الوالدين ، حسب الدين ، هو ضروري

Digitized by Birzeit University Library

لدخول الجنة . ويسمع الطفل الآيات القرآنية واقوال الرسول في هذا الصدد . والوالدان وخصوصا الام يذكران الابناء بأنهما يرضيان عليهم في صلواتهما . والابناء يطلبون رضاء الوالدين كواجب ديني . وعندما يغضب احد الوالدين يشعر الابناء بغضب الله ويخشون أن تصرف عنهم الجنة . والنظام العائلي هذا ضروري ليضمن الوالدان سندا لهما عند الشيخوخة او المرض او حصول الكارثة . وكلما قلت الحاجة الى دعم الابناء للوالدين ماديا كلما تغيرت العلاقة بين الفريقيين ولم تعد الطاعة عمياء . فالعلاقة تكون على اساس المساواة والاحترام المتبادل ولو أن مثل هذه العلاقة لن تكون عاطفيتها قوية الا انها منتجة اكثر ولا تسبب الضرر للابناء ، وذلك بسلبهم الاستقلال الذاتي لشخصياتهم . هذا الاستقلال الذاتي مهم للتطور العصري لانه اكثر انتاجا للمجتمع .

الأب السلطوي لا يترك الفراغ الكافي لابنه لتطوير شخصيته . فلا يتعود الابن على تحمل المسؤولية بل يكبر وهو يخاف الاعتماد على نفسه وهو يخاف الجديد ليس فقط بسبب سايكولوجية "العيب والحرام" بل لعدم خبرته في الحياة العملية ولعدم تعوده على الاعتماد على النفس ، فهو تنقصه الجرأة على معالجة مشاكل الجديد والحديث الا اذا كانت اهميتها سطحية او قشرية .

ويتعود الابن والبنت على نظام الحماية العائلية (خصوصا البنت) . ففي السنين الاولى ، يراقب الطفل وكأنه زجاج على وشك الانكسار . وعندما يكبر تصعب عليه الفرقة والابتعاد عن الاهل . فهو لا يشعر بالامن النفسي الا في ظل العائلة الصغيرة والممتدة . وعندما يكون بعيدا عن عائلته الممتدة وخصوصا عن ابيه وامه واخوته تراه يفتش عن تعويض نفسي لخسارتهم اما بايجاد نظام حماية جديد او بأن يكون

Digitized by Birzeit University Library

مبدعا ومنتجا في حياته . ومن الابناء من يقع في المشاكل الكثيرة ومنهم من يعمل نظام حماية لغيره ويترأسه هو .

أما البنت فوضعها يختلف عن الابن لأن نظام الحماية قوي جدا في حياتها لدرجة سلبها حريتها كلها وهي تنتقل من نظام حماية الى نظام حماية آخر فهي تكون دائما محمية اما من قبل الاب او الاخ او الزوج . والبنت التي تخرج عن نظام الحماية العائلي او لا يكون لها حماية تكون ، في المجتمع التقليدي ، منبوذة .

ونظام الحماية العائلي يعود الشخص ، منذ الطفولة ، على تقبل السلطة وتوقع وجودها دوما . وعند غياب السلطة او عدم وجودها مؤقتا يسيء الشخص السلوك . هذا من وجهة الاحتمال طبعا . فالانسان العربي لا ينشأ في نظام يشجع استقلال شخصيته الذاتي ولذلك فان سلوكه ليس طوعا موجها بارادته هو فعندما تغيب السلطة يزيد احتمال الاساءة وعدم حسن التصرف .

ومن الدكتاتورية السياسية نوع التربية البيتية ؛ فالدكتاتورية تبدأ في البيت وتستمر في المدرسة والمجتمع الخارجي . فالانسان العربي ينتقل من دكتاتورية الى دكتاتورية اي من نظام حماية الى نظام حماية اخر ومن سلطوية الى سلطوية . والغريب في نظام الحماية العائلي أنه "وراثي" ليس بالمعنى البيولوجي بل بمعنى الانتقال الثقافي او انتقال التقليد . فالابن عادة يصير دكتاتورا كأبيه ومن مساوىء هذا النظام "الوراثي" أن الدكتاتور لا يوجد عنده الخبرة بالحياة لأنه لم تطور شخصيته في بيئة بيتية تسمح لها بالاستقلال الذاتي والمسؤولية . والاغرب من ذلك هو أن الام تربي بنتها كما تربت هي - تحت نظام

Digitized by Birzeit University Library

حماية كامل مدعوم بالطقوس الدينية والتقاليد البالية ، رغم أن هذا النظام كان مجحفا بحقها ومحددا لحريتها . والام تهتم بتربية البنت تربية دينية اكثر من الابن .

ورغم سلطوية العائلة وتقاليدها وما ينتج عنها من عوامل نفسية صعبة تجد أن علاقاتها الشخصية عاطفية للغاية. فالاب عادة يغمر ابناءه بالمحبة والعطف. أما اذا كان من النوع الذي لا يظهر العاطفة كما كان الحال عند بعض القدماء من التقليديين فانا نجده يثبت محبته لابنائه وتفانيه في اخلاصه لهم في مناسبات عديدة لا ينساها الابناء ، وكأنه يحاول تعويض الابناء عما سلبهم من حرية وعن خسارتهم لاستقلالهم الذاتي او حقهم في تطوير شخصية مستقلة عن شخصيته . وعلى العموم ، فالأب العربي هو ديكتاتور صالح وليس دكتاتورا طالحا يسيء الى مصلحة ابنائه ، وهو ليس انانيا الا اذا كانت صفاته الشخصية قد تغلبت على عناصرها الثقافية اي المجتمعية التقليدية . هذه العناصر الثقافية للشخصية الابوية تجعل الاب العربي اكثر التصاقا روحيا وعاطفيا بالابن من الاب في العالم الصناعي بابنه حيث تكون العلاقة اضعف واكثر ميلا الى الميكانيكية المسؤولة .

ففي العالم الصناعي يربى الابن والبنت ليكونا مستقلين. فالوالدان يعتبران نفسيهما مسؤولين عن الابن حتى سن معينة ، وهي السن القانونية . ومقياس الوالدين المسؤولين هو النجاح في اعطاء الابناء الاستقلال الذاتي . والمجتمع الامريكي مثلا يعتبر الوالدين فاشلين اذا وجد ان الابن او البنت ما زالا عالة على والديهما بعد سن الواحدة والعشرين او اذا اظهرا بعض الاتكالية عليهما ، فالاستقلال الذاتي يجب أن يكون كاملا عند الامريكان . وهذا النوع من التربية منتج لأن كل عضو في المجتمع يكون مستقلا ومسؤولا عن نفسه

Digitized by Birzeit University Library

وعن عائلته الصغيرة من الوجهة المادية . أما من الوجهة العاطفية فهذا النظام له مساوئ عديدة . وفي الحقيقة أن تطبيقه في الطبقة الوسطى متطرف وقاس على الوالدين والابناء . فالعاطفة في المجتمع الامريكي تعتبر شيئا سلبيا ومنهم من يحتقرها . وأظن ان ضعف الروابط العاطفية بين افراد العائلة هو سبب مهم لكون المجتمع الامريكي مجتمعا سايكولوجيا اي مجتمعا عنده مشاكل نفسية كثيرة .

ولكن الوالدين في المجتمع الصناعي لا يحتاجان الابناء ماديا . وفي العرف الامريكي ينظر الناس الى الوالدين الذين يعتمدان على ابنائهما ماديا اي معاشيا نفس النظرة التي ينظرونها الى الابناء اي نظرة الفشل . فلا الوالدان يحتاجان الابن ولا الابن يحتاج الوالدين وهذا صحيح بالنسبة للبنت ايضا . ولكن في الثقافة العربية لا يوجد معنى سلبي للاتكالية لا اتكالية الابناء على الوالدين ولا العكس الا اذا كانت حالة الوالدين المادية ضعيفة والابن يتكل عليهما . أما اتكال الوالدين على الابناء فليس له اي معنى سلبي ويعتبر الابن عاقا اذا لم يقم بواجبه المادي نحو والديه .

وعند العربي العاطفة هي اساس الامن النفسي . فبينما يدرب الطفل في المجتمعات الصناعية للسيطرة على الشعور تجد العكس صحيحا بالنسبة للطفل العربي . فالتربية العربية في كثير من الاحيان تطلق لعاطفته العنان . فلا الوالدان ولا الابناء يخجلون من عاطفتهم . والذي يسيطر على شعوره او يظهر القليل من عاطفته يعتبر جامدا او باردا أو متكبرا وهو غير مرغوب فيه اجتماعيا . فالمجتمع يتوقع المشاركة بالشعور والعاطفة في الاشياء السارة وغير السارة . ومشاركة الاخرين بالشعور والعاطفة معناها الانتماء في المفهوم العربي . واقوى الروابط العاطفية في المجتمع العربي

Digitized by Birzeit University Library

هي الروابط العائلية ، اي العائلة الممتدة . فالطفل يشعر بالروابط العاطفية في سن مبكر ، فهو يختبرها ليس فقط مع والديه بل مع عمته وخالته واعمامه واخواله وباقي اقاربه . والاقارب يتدخلون في شؤون الاطفال وطريقة تربيتهم . فالتدخل في العرف العربي معناه المحبة والاهتمام . وفي كثير من الاحيان يتلقى الطفل الارشادات العديدة من الاقارب وتكون متناقضة مع بعضها البعض مما يسبب البلبلة للطفل . ومن الوجهة العاطفية يتعود الطفل على استغلال اقاربه فاذا اراد شيئا ولم يحصل عليه بكى ، والبكاء العاطفي عند الاطفال كثير لأن الابوين يرضخان للعاطفة ولا يسيران بارشاداتهما وتعاليمهما للطفل حتى النهاية . ويتعود الطفل على استغلال العاطفة لأن علاقته مع والديه واقاربه تسودها البلبلة وهو يعرف أن الوالدين غير متفقين بالنسبة له ولسلوكه . والاقارب يزيدون الطين بلة .

ولكن هناك نتائج ايجابية لهذا النوع من العلاقات العائلية . فالطفل يجد بديلا عاطفيا لأبويه . والبديل هو الاقارب الذين يشعرونه بالامن النفسي ، وعندما يخرج من مرحلة الطفولة ويشعر بالضغوط الاقتصادية والاجتماعية يجد مخرجا عاطفيا لهذه الضغوط عن طريق القرابة . فهو لا يحتاج الى المعالجة النفسية ، كمثيله الامريكي ، بسبب الضغوط .

والعاطفة تدعمها اتصالات عضوية في العلاقات العائلية . فالاقارب يقبلون الطفل ويضمونه الى صدورهم كثيرا . فالطفل لا يشك بعاطفة الاهل والاقارب نحوه لأن الالتصاق العاطفي ينتج عنه الالتصاق الجسمي والبعد ، كما قلنا ، عن الاقارب مؤلم للغاية للشخص العربي مهما كانت سنه . والعكس صحيح عند الامريكان فلقلة الروابط العاطفية في المجتمع الامريكي نجد الالتصاق الجسمي يحمل معاني سلبية . فالامريكي عنده

Digitized by Birzeit University Library

ادراك قوي لجسمه كشيء خاص فاللمس والضم والتقبيل لها معان جنسية عنده بعكس معانيها عند العرب عندما تكون بين الاقارب والاصدقاء . والغريب أن الامريكي يحب الكلاب والقطط ويداعبهما كما يداعب العربي اطفاله . واعتقد ان اهمية الكلاب والقطط في المجتمعات الصناعية هي اهمية عاطفية لأن الغربي لا يجد مخرجا قويا لعواطفه فهو يخجل من اظهارها امام الناس ولكن لا يخجل من اظهارها مع الكلاب والقطط .

وطريقة تربية الاطفال العرب بها سلبيات اخرى . فالطفل يصير "دلعا" spoiled لأنه يعامل وكأنه لعبة يلعب بها الناس متى شاؤوا . ولا يوجد الادراك القوي للخصوصيات private في الحياة العربية الا فيما يتعلق بالجنس واستعمال المراحيض والحمامات وهذا يؤثر على نظرة المجتمع للطفل اذ ليس له خصوصيات الا ما هو مطلوب لسلامته وصحته . ويظل الطفل لعبة لمدة طويلة . وحتى بعد هذه المرحلة يستمر الدلع خصوصا اذا كانت عند الصغير خصال جذابة او حميدة كأن يكون "خفيف دم" او "حلوا" او "ذكيا" . والمجتمع العربي يظهر هذه الخصال بذكرها لدرجة ان الصغير يكبر وعنده الادراك للخصال والصفات المتفوقة فيه ويصبح مغرورا بنفسه . وانتقال الصغار من مرحلة الطفولة الى مرحلة النضج يكون متأخرا ويأتي صعبا لأن هذا الانتقاد لا يكون تدريجيا ومرحلة الطفولة تكون طويلة خصوصا اذا كان الطفل هو الوحيد لأهله او اذا كان هو الصغير في العائلة .

والبنت تكبر وعندها الادراك بأن اهم شيء عندها هو جمالها . اذ ينظر الناس اليها وكأنها لا وظيفة لها الا أن تطبخ وأن تظهر جميلة . ولأن المجتمع يركز كثيرا على منظرها فأنت تجدها في كثير من الاحيان – خاصة اذا كانت جميلة – مدلعة ومغرورة بنفسها ، فهي تتجاوب مع مجتمعها

Digitized by Birzeit University Library

الذي يهتم بجمالها على حساب عقلها وشخصيتها . وطبعا اذا كانت البنت غير جميلة فاحتمال تعقيدها من قبل مجتمعها يكون قويا . وهناك نتائج مادية سلبية لهذه النظرة . اذ أن منظر البنت ، اي جمالها ، له اهمية بالغة في مؤهلاتها للزواج .

والدلع يمنع الطفل من تقدير الامور الجدية ، والأسوأ من ذلك هو عدم مقدرته على اثبات وجوده كشخص وكانسان مستقل له آراؤه ورغباته . وحيث أن الاولية هي للكبير وللذكر فأنت تجد أن الصغار ، وكذلك البنات ، عندهم صعوبة قصوى لأن يحصلوا على اعتراف الناس بوجودهم المنفصل وباستقلالهم الذاتي . وفي العالم الغربي ، يعامل الطفل على اساس انه سيكون يوما ما مستقلا ، فلذلك تشجع البيئة تطوره نحو هذا الهدف . فالوالدان يلعبان معه وهو طفل ولا يلعبان به كما هو الحال في الطريقة العربية . فالوسيط بين الوالدين ، في المجتمعات الصناعية العصرية ، والابناء هو النشاط العملي . أما في المجتمع العربي فالوسيط هو العاطفة والاحساس . وفي المجتمع العصري يربى الطفل ويعد للحياة العملية والاسلوب الميكانيكي . أما الطفل العربي فيكون هذا الادراك عنده ضعيفا . وعلاقات الناس في العالم الغربي تكون لا شخصية impersonal وميكانيكية غير عاطفية بينما علاقات الناس في المجتمع العربي تكون شخصية وعاطفية وغير ميكانيكية .

ولقلة النشاطات في حياة الاطفال والصغار العرب ، خصوصا خارج المدن الكبيرة ، نجد أن الضجر هو مشكلة كبيرة في حياتهم . وهذه المشكلة تصير اكبر ولها تأثير نفسي كبير لقلة الاختلاط الجنسي في المجتمع العربي التقليدي ؛ فالشخص العربي يتعود على حياة البطالة والجلوس والكلام

Digitized by Birzeit University Library

وتضييع الوقت منذ الصغر .

وأنت ترى الصغار يمشون في الشوارع ويقفون على الشرفات وكأنهم محتارون في أمرهم لا يجدون نشاطا يصرفون فيه قواهم الجسمية او العقلية .

ولكن صارت الروابط الشخصية قوية ، وصار تقدير العناصر الطبيعية في الشخصية الانسانية قويا ايضا . ولعدم وجود النشاطات العملية والفكرية صار للكلام اهمية كبيرة . فالحديث في المجتمع العربي له قيمة اجتماعية خارجة عن كونه طريقة اتصال communication بين الناس . فعلى العموم نجد العربي يحسن الحديث اكثر من الانسان العصري ، والحديث عنده ذو اغراض متعددة تتعدى كونه طريقة اتصال بين الناس . وقد اصبحت للحديث عنده فنون . وفي الحقيقة ان الحديث فن ، ولكن اكثره للتسلية لا للعمل ، وفي كثير من الاحيان تضيع الاهداف العملية للحديث لأن المتحدث يخلط العمل بالتسلية وينسى غرضه من الكلام . وهذا عكس الوضع في الحياة العصرية حيث يعتبر غرض الكلام هو الاتصال وهدف الاتصال اكثره عملي ومعين specific . والحديث عند العصري ضعيف في العلاقات الشخصية وقوي ، بمعنى كثير ، في الحياة العملية . لذلك نجد العصري يظهر للعربي وكأنه غير اجتماعي او "قليل حكي" ومن الوجهة الاجتماعية "اهبل" . ويظهر العربي للانسان العصري وكأنه "عاطفي كثير" او "كثير حكي" او مضطرب neuratic من الناحية النفسية . ونستطيع القول أنه بسبب نوع التربية البيتية وقلة النشاطات العملية يكون الشخص العربي "كلاميا" verbal اي يحب أن يشغل فمه اذ لم يكن في الحديث ففي الاكل . (ولا اشك بأن النصاحة لها علاقة بهذه المشاكل) .

Digitized by Birzeit University Library

ولأن الكلام او الحديث هو للتسلية فليس له نظام عقلي. ومن السهل أن يتطور الى جدل . فالحديث يقفز من موضوع الى موضوع دون هدف ومن نقطة الى نقطة دون الربط بينهما او دون ايجاد العلاقة بينهما . والطفل لا يتعود على تنظيم الكلام لأن الكلام الذي يسمعه لا يرتبط بغرض عملي ، اي ليس له قاعدة مادية او منطقية . فهو يسمع الكبار يتحدثون الساعات الطويلة ولكنه لا يشترك في الحديث لأن التقليد يعطي الاولوية للكبار حسب السن . ويفترض الناس أن عقل الطفل صغير ولذلك فكلامه ليس له معنى وليس من الضروري سماعه . وهذا الحال ينطبق على الصغار بعد سن الطفولة . وفي الحقيقة يظن الناس أن "الطفل" له ارتباط بالسن فالاعقل هو الاكبر . واذا تكلم الصغير بحضور الكبار فاما أن يسخروا منه "ويضحكوا عليه" او يقولوا له "عيب" ويأمروه بالسكوت او يخرجوه من الجلسة . وانني اعتقد أن الضحك والسخرية والاهانة التي توجه للطفل ترسخ الخجل في نفسه حتى ان بعض الاطفال يجد صعوبة في سن متأخرة في التكلم مع من هم اكبر منه سنا . وهذه المشكلة تكون عند الانثى اكبر منها عند الذكر لأن اولويتها في الحديث تأتي بعد الذكور وبعد الاكبر سنا . وهذا النوع من التربية يسبب ايضا مشكلة عدم الثقة بالنفس وان كانت لها اسباب اخرى . لذلك عندما يكبر الشخص يظهر للناس وكأنه مغرور بنفسه بينما هو في الحقيقة يشعر بفقدان الثقة بنفسه ولكنه يحاول أن يفتخر بنفسه ليغطي ضعفه ومشكلته النفسية . فتراه يشيد بذكائه وبقدرته في حديثه مع الناس ويجعل نفسه مركز الحديث وهدفه . وفي كثير من الاحيان يضطر الشخص الى الاعادة في الحديث لانه غير متأكد مما يقوله ، وهذا يظهر احيانا بمظهر اللف والدوران في بعض الاحاديث .

Digitized by Birzeit University Library

والحديث يميل لأن يكون قصصيا ذاتيا subjective عاطفيا خياليا لا ينحو الى الواقعية . وهو يتصف احيانا بالجدل والصياح . والعربي اجمالا يتكلم اكثر مما يصغي وهو عادة يفكر بما سيقوله ليتفوق او يتغلب على شريكه في الحديث ولا يفكر بما يقوله غيره . واحيانا يميل الحديث للمنافسة وفي هذه الحال هناك الغالب والمغلوب وهذا يسبب اعادة الشجار والعراك . ولكن هناك حديث هادىء لا يتصف بما قلناه وهو الحديث بين الغرباء وبين من يتفاوتون في المركز الاجتماعي او يتفاوتون في السن او يختلفون في الجنس وفي ظروف تكون فيها الضيافة هي مناسبة الحديث . وحتى لا يتطور الحديث الى شجار وقتال يستعمل العرب طريقة خاصة للوصول لهذا الغرض اذ انهم يصطنعون الرسميات في الحديث . ولكن عندما تنتهي الرسميات وتزيد المعرفة بين الاشخاص ويرتفع التكليف تتغير نوعية الحديث .

ولأن العقل عند العرب له علاقة بالسن نجد الكبار لا يهتمون بالحديث مع الصغار . واذا تحدثوا معهم فجدهم يستعملون ، مع الطفل ، لغة الاطفال . فيبدؤون بالاصوات ويتدرجون الى استعمال المفردات وبعدها الجمل المتقطعة قبل الوصول الى الجمل الكاملة . وهذا يعني أن الكبار ينزلون الى مستوى الصغار عندما يحدثونهم بدلا من أن يرفعوا الصغار الى مستواهم . لذلك ، وعلى العموم ، نجد الطفل العربي لا يتقن الكلام الا متأخرا اذا ما قيس بالطفل الامريكي مثلا . فهو يعيش بلغة الاصوات والمفردات والجمل المتقطعة مدة اطول من اللازم . وحيث أن اللغة هي افكار فاننا نجد أن تطور نشاطه العقلي لا يحدث بسرعة كافية في البداية . ومن الضروري ان يتكلم الكبار مع الصغار وكأنهم يفهمون ما يقال ، لان هذه الطريقة تجبرهم على الملاحظة والتفكير واستعمال العبارات . وهذه الطريقة لها فائدة اخرى فهي

Digitized by Birzeit University Library

تعطي الطفل او الصغير الاحساس بأنه مهم وبأن الناس يحترمونه فتتولد عنده الثقة بنفسه بالاضافة الى المعرفة وتطوير الفكر .

ولكن هناك مشكلة اخرى لها علاقة بالتطور النفسي للعرب فالطفل يكبر دون ان يكون عنده الادراك أن الحقائق والوقائع مهمة وانه يجب ان يكون جديا بالنسبة لها . ولكن نوع التربية يشجع مثل هذه المشكلة . فالطفل يتربى في مجتمع لا يقول الحقيقة الا اذا كانت دينية او لها عواقب وخيمة مباشرة . فالحقيقة يجب أن تكون كبيرة لتكون حقيقة والا فهي ليست حقيقة ومن الممكن تجاهلها او التلاعب بها. وفي مثل هذه الظروف ، اي عندما تكون الحقيقة بسيطة وغير دينية يسود مبدأ الغاية تبرر الواسطة ". فاذا ارادت الام ان تذهب الى مكان ولم ترد اخذ طفلها معها قالت له "انا رايحه عند الدكتور" او تعطيه سببا ليس له علاقة بالحقيقة بدلا من ان تعوده على قبول الحقيقة والاعتراف بالواقع مهما كان السبب . ومثل هذا الجواب يعود الطفل على توقع الكذب من اعز الناس عليه . فتجده يشك بمجتمعه ولا يصدق الناس ويتعود بالاضافة على البكاء لانه يحتار من يصدق ومتى . والمثل الذي اعطيناه اعلاه ليس وحيدا فالطفل تهدده امه والناس الذين هم حوله انه اذا لم يسكت احضروا له الشرطي . وبالاضافة للتهديد تستعمل معه طريقة الاغراء للوصول الى الاهداف كاعطائه الملبس او وعده بأخذه "مشوارا" اذا سكت او كان سلوكه جيدا . وكثيرا من الاحيان لا تفي الام او العمة بالوعد .

ومن مساوىء هذه الطريقة أن تجاهل الحقيقة مهما كانت بسيطة وصغيرة يجعل الطفل يقبل تجاهل الحقيقة الكبيرة عندما يكبر . وتجاهل الحقيقة مهما كان حجمها هو كذب .

Digitized by Birzeit University Library

وكيف يستطيع الانسان أن يكون واقعيا اذا لم تكن لديه القدرة على الاعتراف بالواقع والحقيقة؟ والعربي لا يعترف بأنه يكذب لأن معنى الكذب يختلف عنده . فالكذب عنده هو تجاهل الحقيقة عن قصد والحقيقة هي التي تضر الاخرين او التي لها علاقة بالامانة والسرقة اي بالقيم الدينية . وكما قلنا فالحقيقة الصغيرة غير مهمة عنده ولكن مثل هذا التعليل خطأ . فهناك اضرار نفسية للشخص الذي يلعب هذه اللعبة ولا يعترف بالحقيقة . ومن هذه الاضرار وجود الاستعداد النفسي للكذبة الكبيرة .

وعندما يقال للطفل "انا رايحة عند الدكتور" هناك ضرر ليس له علاقة بالكذب وهو وضع الخوف في قلب الطفل من الطبيب ، فيكبر الطفل وهو يخاف من الطبيب ، وهذا شيء خطر على الانسان اذ أن العلاقة النفسية بين المريض والطبيب يجب أن تكون ايجابية ليكون الطبيب ناجحا في معالجته . واذا هدّدت الأم الطفل وقالت له "اذا لم تسكت سأحضر الدكتور ليضربك ابرة" صار الطبيب والطب كلاهما سيئا بالنسبة للطفل . ونستطيع أن نقول نفس الكلام عن الشرطي ، المسؤول عن الأمن ، فهو ايضا انسان مهم في المجتمع والثقة ضرورية لنجاح عمله .

وعندما يكون الحديث فنا وتسلية والاسلوب قصصيا يصبح من السهل أن يكون الشخص غير مرتبط irrelevant بالحقيقة والواقع وأن يكون ميالا للخيال . وهناك الكثير من الناس ممن يسردون الوقائع بأسلوب قصصي ويسترسلون مع الخيال وينسون الحقائق او يتجاهلونها ، او يعدلونها أو يمددونها ، كل هذا في صالح التسلية واظهار القدرة على جلب انتباه الناس للمتحدث . وهذه المشكلة هي من اسباب الشك ، شك الناس في الناس وقلة الثقة بين الناس . وهنالك نتيجة اخرى لهذه المشكلة هي أن الطفل العربي يكبر دون أن

مكتبة جامعة بيرزيت التربوية
Digitized by Birzeit University Library

يقدر اهمية ملاحقة الامور ومتابعة التفاصيل ، اذ كيف يستطيع الاهتمام بالتفاصيل اذا كانت الحقائق والوقائع ضعيفة ؟ وكيف يستطيع الاهتمام بالتطبيق اذا كان تفكيره خياليا عاطفيا والحقيقة عنده ضئيلة وغير مهمة ؟ ونحن طبعا لا نربط كل هذه المشاكل بسبب واحد هو ضعف الحقيقة والواقع في حياة العربي ، فهناك اسباب اخرى منها عدم وجود أيدولوجية للمادة في حياته واضمحلال القيم الدينية وضعف الشعور مع الآخرين empathy في قيمه الاجتماعية وسايكولوجيته ، وتربيته في بيئة ينقصها النشاط العملي .

ولا شك أن التربية لا تدرك اهمية التربية النفسية الا عن طريق الدين . فالناس لا تسأل عن النتائج النفسية للطرق التربوية . والتربية عند العرب طبيعية بمعنى انها لا ترضخ لقواعد علمية مدروسة وأنها تتصف بعاملين : العاطفة والعفوية spontaniety ، فعلاقة الوالدين بالأبناء هي علاقة عاطفية وتتغير حسب تغير الشعور او تغير الظروف ، فاذا كان الأب غاضبا مثلا تجده يغضب على ابنائه وحتى على زوجته واذا كان فرحا تجده يشاركهم بفرحه . واذا عالج مشكلة من المشاكل او اعطى امرا من الاوامر فهو لا يفكر كثيرا بالنتائج النفسية على العائلة . واذا اراد أن يمنع ابناءه عن عمل شيء لا يريده هو استعمل الطريقة التي تلائمه وتوصله الى غايته ان كانت بالضرب او بالتهديد أو بالاهانة او بالتوسل أو باستغلال العاطفة .

ولكن يجب أن لا نعطي السايكولوجية اهمية اكثر من اللازم لأن في ذلك خطرا كبيرا على الانسان فالمجتمعات التي تربى اطفالها على قواعد علمية ، كالمجتمع الامريكي ، تنتج افرادا حساسين للغاية . وعندما يكبرون تزداد حاجتهم للسايكولوجيين ويذهبون لهم لاتفه الاسباب . وهناك

Digitized by Birzeit University Library

ضرر آخر للاعتماد الكلي على الطريقة العلمية وهو أن الناس يصيرون مثل بعضهم البعض من وجهة تركيب الشخصية والتركيب النفسي لهذه الشخصية . وهذا التشابه له مشاكل عاطفية كثيرة ، (كما أن له عناصر ايجابية أخرى) .

ولكن من الممكن انشاء اجيال جديدة بالاستعانة بالسايكولوجية العلمية دون تجاهل منفعة العناصر الطبيعية او الطريقة الطبيعية للتربية . فالسايكولوجية ضرورية لتنظيم او تركيب الشخصية الاساسية للفرد العربي لأن هذه الشخصية يجب أن تكون جديدة اذا اردنا تطورا عصريا حضاريا جديدا وانشاء جيل جديد وحياة جديدة . وبنفس الوقت نستطيع أن نقدر معنى العفوية والعاطفية في التربية فهي تعطي الطفل القدرة على العيش في مجتمع غير تركيبي . هذا النوع من التربية ينتج افرادا يستطيعون العيش مع الناس بمرونة اكثر من الامريكي مثلا . فهذا الانسان الاخير يضطرب اذا لم يفهم الامور فهما منطقيا او اذا كانت الحياة غير تركيبية (اي طبيعية) وهو لا يفهم الشخصية غير المركبة من الناس وتسامحه معها ضعيف . فالانسان في الحقيقة يحتاج الى العقل والشعور والمنطق والعاطفة ، لأنه يتكون من هذه الازدواجية الطبيعية ، واي تركيب نفسي لا يأخذ هذه الازدواجية بعين الاعتبار يسبب للانسان عدم الاتزان .

وفي الوقت نفسه هنالك مساوىء للعفوية والعاطفية في التربية . خذ مثلا تعليق الآباء والامهات على صفات الابناء الشخصية وعلى احوالهم الشخصية بطريقة تجعلهم يدركون هذه الصفات والاحوال ويتنافسون من اجلها . فالاب الذي يتحدث للاخرين عن ابنائه ويقول "ابني احمد اذكى من ابني محمود" او "احمد اشطر اخوته بالمدرسة" يضطر الابناء أن يدركوا

Digitized by Birzeit University Library

الصفات والعناصر الضعيفة (وكذلك القوية) فيهم عن طريق السمعة . وهذا معناه استحالة معالجته السلبي في الشخصية اذ أن السمعة تكون ابدية ولا يستطيع الخلاص منها . وهذه التعليقات في شكل الدعاية تساعد على خلق نوعين من الشخصية كلاهما متطرف : شخصية الغرور والشخصية التي تعاني من مركب النقص . ومن نتائج هذا النوع من التربية تشجيع المنافسة بين الاخوة والاقارب والمعارف . هذا النوع من المنافسة يناقض التربية التقليدية التي تعطي الاولية حسب السن والجنس لا حسب السمعة والخصال الشخصية .

والمشكلة هي أن العربي لا يوجد عنده فكرة عن نوع الشخصية التي يريد خلقها لانه لا يوجد عنده فكرة عن نوع الحياة العصرية التي يريد أن يعيشها . ولو كانت عنده هذه الفكرة لكان عنده أيدولوجية لها . وكما قلنا فالأيدولوجيات التي عنده اما أن تكون دينية عتيقة أو يسارية مستوردة . أما الأيدولوجية القومية فهي عنده ضعيفة للغاية . والتربية التي نجدها اليوم بين العرب هي مزيج من عناصر اسلامية وعناصر قبلية . وبينما العناصر الاسلامية ما زالت قوية الا أنها ضعيفة بالنسبة للعناصر القبلية . فعناصر الشخصية العربية تؤكد الصفات التي تدعم العائلة الممتدة والمصلحة الجزئية على حساب الجماعة الكبيرة ، الامة ، والمصلحة العامة . وحيث أن العائلة هي اساس الاقتصاد العربي التقليدي فهذا النوع من التربية لا يتناقض مع واقع الحياة التقليدية . ولكن من الوجهة القومية فان هذا النوع من التربية لا يكفي لبناء الاساس او التركيب النفسي الضروري لبناء أمه ـ دولة اي الوحدة القومية العصرية . فالصفات الشخصية التي تؤكدها الطريقة التربوية هي سبب التجزئة والانقسام في المجتمع وهذا السبب هو اقوى بكثير من الاسباب السياسية التي يشكو منها العرب

Digitized by Birzeit University Library

ويعلقون فشلهم عليها . وباستطاعتنا القول ان اساس الكثير من مشاكل العرب السياسية موجود في التركيب النفسي للشخصية العربية ؛ فمثلا عدم قدرة العرب على الاتحاد وعدم قدرتهم على مواجهة العدو الاسرائيلي لها علاقة بالعوامل النفسية التي هي نتيجة التربية البيتية . وباستطاعتنا القول أيضا أن تركيب الشخصية العربية يدعم الاقليمية اكثر من تدعيمه للقومية .

ولكن النقطة التي يجب أن نشرحها بتفاصيلها والتي تنطبق على الوضع السياسي في الضفة الغربية هي أن العائلة التقليدية في تركيبها الحالي وانواع التربية التي تتبعها تكون مانعا قويا للممارسة الوطنية ضد الاحتلال الاسرائيلي . فنظام الحماية العائلي ينتج نفسية اتكالية في الابناء ، والترابط العاطفي بين افراد العائلة يقوي هذه الاتكالية لدرجة انها تمنع الابناء من تأدية واجباتهم الوطنية .

فالطفل ، خصوصا بين الطبقات والجماعات الميسورة ، يتربى بالخوف وهذا ليس له علاقة مباشرة بالسياسة والوطنية الا بعد أن يكبر الطفل ويواجه مسؤولياته نحو مجتمعه ووطنه . فالأم خصوصا تخاف على الطفل اكثر من اللازم وهي بدون قصد تحرمه من اختبار الحياة فهي تلحقه اذا مشى وتصيح "لا" اذا أخطأ وتهدده في كل خطوة من حركاته الاستطلاعية ، بدلا من أن تراقبه وتسمح له أن يستطلع الحياة البسيطة حتى ولو كلفه ذلك ثمنا قليلا كجرح بسيط او سقطة على الارض تسبب القليل من الألم . ان الام وغيرها من الاقارب والناس الحاضرين يصيحون بالطفل اذا لمس شيئا او تحسسه بيده ، او اذا قرب من شيء ثمين ، او شيء خطر ، ويهرعون لينتشلوه وكأنه على وشك الغرق او على وشك السقوط من على سطح البيت بدلا من أن يقولوا له "لا" ويشرحوا له السبب بهدوء حتى يتعود

Digitized by Birzeit University Library

على الامتناع ليس عن خوف بل عن معرفة واقتناع . وهذا الصياح والهيجان والمبالغة وكثرة المشتركين في هذه الضجة يسبب الخوف للطفل ويعطيه الشعور بأن الحياة ممنوعة وانه سجينها وهو في الوقت ذاته يشعر بأنه انسان خاص ينتبه له الناس كثيرا . وهذا يجعله يتحدى الناس خصوصا عندما يشعر بأن انفعال الام والاقارب مبالغ فيه ، فتجده يريد أن يمسك المكتة أو أن ينزل عن الدرج بنفسه أو أن يعمل شيئا لا يعجب الناس . وفي بعض الاحيان ينقلب الجد الى مزح في علاقة الكبار مع الصغار فالاشياء الممنوعة تصبح مسموحة ويضحك الكبار ويضحك الطفل . وهذا طبعا يزيد في بلبلة الطفل فهو لا يعرف متى يكون الكبار جديين ومتى يكونون غير جديين ومتى يكون سلوكه ممنوعا ومتى يكون مسموحا به ومتى يكون مضحكا ومتى يكون غير مضحك ليس لأنه هو مضطرب وفوضوي بل لأن سلوك الكبار غير مفهوم لديه .

ولا يهيىء الكبار المجال للطفل لكي يتطور ويستطلع الاشياء ويركض ويلعب ويصيح في اماكن سليمة ؛ فهو دائما في اماكن ليست معدة له ، فالعرب يبنون البيوت في المدن ، والشوارع كذلك ، دون التفكير بالاطفال ، فلا يوجد مكان للطفل في المدن العربية الا ، كما قلنا في الشوارع الخطرة والشرفات . ولذلك فالطفل يتعود على الخوف ، وحتى الاستطلاع الذي هو طبيعي في سنه يصير ممنوعا وخطرا عليه ، فاما أن يكبر مكبوتا خائفا ساكتا تظهر على وجهه ملامح الخجل والخوف والهدوء غير الطبيعي أو شيطانا عفريتا تظهر على وجهه ملامح التحدي والعداء وقلة الحياء . والحياة عند الكثيرين من الاطفال غير طبيعية رغم أن تربيتهم كانت طبيعية بمعنى انها عفوية وعاطفية ولذلك فان الطفل إما أن يخافها او يتحداها ويهاجمها . وانني اعتقد أن هذا هو من اسباب التطرف عند العرب فاما ان يخضعوا ويسكتوا

Digitized by Birzeit University Library

او يتحرروا ويهاجموا .

والخوف على الطفل يكون اكثر واقوى في اساليب التربية البرجوازية . فالابن البرجوازي يعيش ، عادة ، بمعزل عن الآخرين من الناس العاديين . فالام والاب يعطيانه الفكرة في صغره بأنه احسن من غيره من الصغار وبأن "العاديين" من الناس هم اقل منه قيمة ومكانة . وهما عادة يمنعانه من الخروج الى الشارع ليلعب مع الصغار . فيتربى وهو يدرك أن الشارع له ابناؤه ويربط الشارع بالسيء من الناس ، فتصير عبارة "ابن الشارع" ذات معنى سيء لديه . ولذلك فاختلاطه يجب أن يكون مع امثاله مع ابناء البرجوازية . والكثيرون من هذا الصنف لا يكونون وطنيين بسبب هذه النظرة الا اذا نشأ لديهم الادراك العكسي عندما يكبرون ويفسرون الامور لانفسهم . وانني اعتقد ان هذه التربية هي من اسباب التطور الطبقي في العالم العربي فالبرجوازيون والاغنياء عموما لا يشعرون بالمسؤولية نحو بلادهم ، والانعزال يستمر حتى النهاية فالاحياء التي يسكنونها منعزلة وتظهر عليها الكبرياء ونظرتهم الى الناس هي نظرة احتقار غير مسؤولة فالناس عندهم هم "العالم الآخر" . والوطنية عند هؤلاء الناس معناها سيء وفي الحقيقة أن معناها سيء عند الكثيرين من الناس حتى غير البرجوازيين ولا سيما الذين تعلموا من البرجوازيين او توصلوا الى نتيجة أن البلاد هي لمن يملكها وحيث أن الاغنياء ومسيوري الحال لا يقاتلون من اجل الوطن فلماذا يقاتلون هم . والوطنية عند الطبقات العليا هي شيء تافه وهي مربوطة بالفقراء وبالفقر .

والخوف ظاهرة عامة تؤثر على الكثيرين من الناس . واذا اردت أن تعرف مدى هذه المشكلة لاحظ طباع الناس ونظرتهم للسباحة بالنسبة لاطفالهم . فالعائلة تخاف على

Digitized by Birzeit University Library

ابنائها الصغار من السباحة ومن الصغار من يتعلم السباحة سرّا . ولكن هذه المشكلة تتغير مع الوقت لأن الادراك بدأ يؤثر على البرجوازيين بأن هناك دروسا يعطيها العارفون والمهنيون لتعليم السباحة . ولكن ابن الفقير الذي يعيش في المناطق الساحلية لم تكن عنده هذه المشكلة ابدا ، فهو من البداية لم يخف من البحر وحاول أن يتعلم السباحة ، الا البنات فالتقليد يمنعهن جميعا من السباحة ولا يجرؤ على هذا النشاط الا العصريات وبنات المدن الكبيرة وهؤلاء بالطبع اقلية في العالم العربي .

وعلى العموم يتربى الشباب العربي بعيدا عن العمل والممارسة الوطنية . ففي البيت وفي المجتمع المحلي وخصوصا المدرسة تظل الوطنية ظاهرة مبهمة mystical ورمزية يتأثر بها الصغار عن طريق الاناشيد والغناء والشعر ، وفي السنين الاخيرة عن طريق دراسة التاريخ والأيدولوجيات والتعابير الفنية . والرموز شيء والممارسة شيء اخر فالتركيز على الرموز يجعل الوطنية غير واقعية ويعطيها مظهرا مثاليا يهزأ منه من يميل الى المادة . ومن اسباب ضعف الوطنية القمع السياسي ، ولكن ممارسة الوطنية ليس معناها النشاطات المقموعة فقط كالمظاهرات بل ايضا النشاطات المسموحة كالمشاريع العامة والخيرية من مثل المساعدة في المجهود العام اللاسياسي . والوطنية حتى تمارس يجب أن تدعمها تربية بيتية ونظرة اجتماعية تحترمها وتقدرها وتنظر اليها نظرة ايجابية وتعتبرها واجبا اساسيا . هذه التربية مفقودة الا ، كما قلنا ضمن الرموز والاغاني والاشعار .

وما قلناه عن نظام الحماية الذي يسلب الصغار الاستقلال الذاتي والذي يدعمه الاقتصاد القومي المبني على العائلية

Digitized by Birzeit University Library

والفردية والاتكالية هو ايضا من اسباب قلة الوطنية او ضعفها في المجتمع العربي . وهذا النظام لا يشجع الشعور بالمسؤولية ، والعمل القومي الوطني هو مسؤولية كبيرة خصوصا في عالم ومجتمع مظلوم ومحتل .

ورغم تربى الصغار بالخوف وعدم المسؤولية فهناك عنصر شجاعة له علاقة بالسن بغض النظر عن مشاكل التربية والاتكال المادي على الأب . فالصغير لا يخاف لأنه صغير . والحماس هو من صفاته . ولذلك فنحن نجد في الضفة الغربية أن الشاب والشابة اصبحا عماد الحركة الفدائية . ولكن النظام العائلي يمنعهما من ممارسة الوطنية . فعندما تعتقل السلطات الاسرائيلية ، سلطات الاحتلال ، الشاب او الشابة يغضب الأب وتبكي الأم الا القلائل من الاباء والامهات الذين يفتخرون بوطنية ابنائهم ويشاركونهم في الاعمال الوطنية . فالأب يشعر بخيبة الامل وكأن كارثة حلت به وهو ينظر لابنه وبنته وكأنهما سببا الكارثة . ومن الآباء من يدافع عن ابنه المعتقل بالتنصل من المسؤولية اي انه بدلا من أن يؤيده ويفتخر به تجده يدعي بأن ابنه "ولد عاقل" ومعنى ذلك انه لم يشترك في العمل الوطني . وهذا التعبير يدل على نظرة الأب وهو أن العاقل هو من لا يتدخل في السياسة او من لا يمارس العمل الوطني . والوطنية تجدها على اشدها في المخيمات ، لاسباب واضحة ، وبين المثقفين ، وهي بين الفلسطينيين الذين هم خارج البلاد اقوى بكثير عما هي بين الفلسطينيين في الضفة الغربية . وعلى العموم نجد الارض عنصرا محافظا والتقاليد هي اقوى عند الشعب الزراعي الذي لم يخسر ارضه عما هي عليه عند الذين خسروا ارضهم وخسروا الكثير من تقاليدهم . فالتقليد عند من خسر الارض هو ذكرى memory ورمزية لها قوة هائلة في العمل الوطني . والطبقية والدين هما مشكلتان كبيرتان في الضفة الغربية .

Digitized by Birzeit University Library

وكلا المشكلتين في شكلهما الحالي هما من عناصر الرجعية في البلاد . ولكن هناك اسباب اخرى لضعف الوطنية والعمل الوطني في الضفة الغربية ومنها عدم وجود قيادة سياسية وسبب هذا القمع الاسرائيلي وكون الضفة جغرافيا محصورة وقيادتها في لبنان بعيدة عنها . فالشبيبة في الضفة الغربية - وهي العنصر الوطني الاساسي فيها - ليس لها قيادة سياسية فعالة ولها عدوان : الاسرائيليون ونظام العائلة العربي .

والوطنية عند شبيبة الضفة الغربية لها علاقة جزئية بالرجولة . والرجولة معناها تحدي سلطة الاب . وحيث أن هذا التحدي لا يمكن أن يكون ضد الاب مباشرة للروابط الاقتصادية والعاطفية القوية فهو يكون في العمل الوطني ضد العدو ، والسبب هو أن الوطنية ، رغم سخرية البعض وعدم وطنية الكثيرين من الكبار في السن ، هي محترمة في العالم كله ومشروعة في نظر الحركات التحررية . وهذا يعطي للشبيبة الفرصة لتحدي سلطة الأب وتعسف التقليد العائلي ونظامه دون الظهور بمظهر الولد العاق . وفي المعنى السايكولوجي هذا التحدي معناه الاستئناف لسلطة اعلى من سلطة الأب وهي سلطة الوطن .

وهناك نسبة عالية من المناضلين في الضفة الغربية من الاناث . وهنا تجد العوامل السايكولوجية والتربوية قوية جدا . فالبنت في التقليد العربي مضطهدة وهي في الحقيقة السجينة الاولى لهذا التقليد . ونظام الحماية بالنسبة لها كامل ولا يوجد فيه منفذ الا في جماعات معينة عددها النسبي ضئيل . فالعمل الوطني للانثى هو تحدي هذه التقاليد وهذا التعسف وهذا الظلم العربي وذلك بجعلها تشعر بالحرية وهي قابعة في سجن العدو . وانني اعتقد أن العمل الفدائي للبنت هو عملية تحرر من الظلم العربي لأن هذا النوع

Digitized by Birzeit University Library

من العمل الوطني يشعرها وكأنها رجل وهذا ما تصبو له كل بنت مثقفة او كل بنت تشعر بالظلم العربي . وهناك شباب وشابات من عائلات غير سياسية ربتهم بعيدين عن الوطنية والسياسة في نظرة سخرية نحو الوطن والوطنية هم اليوم في السجون الاسرائيلية ويعدون من خيرة الشباب الفلسطيني . والعامل النفسي الذي دفعهم للعمل الفدائي هو التحدي ، تحدي الأب واسلوبه التربوي وتحدي تقاليد المجتمع التي جعلت من الواحد منهم طفلا وهو في سن الرجولة .

ولكن يجب أن لا ننسى أن الابناء يصبحون آباء وعندما يصبحون آباء يصيرون كآبائهم الا القليليين منهم خصوصا الذين تأثروا بثقافة جديدة او ايدولوجيات جديدة . وهذا معناه أن الوطنية لها علاقة بالسن في المجتمعات التي تنقصها البيئة البيتية والاسلوب التربوي وهما ضروريان لخلق الانسان المقاتل والانسان الحر . ومعناه ايضا ان الحركات التحررية التي تنجح هي الحركات التي تفصل السن الوطني ، اذا شئت أن تسميه كذلك (وهو سن الصغار خصوصا من هم تحت سن التاسعة عشرة من العمر) عن بيئته البيتية المحافظة وهذا الفصل لا يمكن أن يكون الا عن طريق الاقتصاد اي تحطيم اتكالية الابناء المادية على الآباء . اما تحطيم اتكاليتهم العاطفية على العائلة فهذا شيء صعب للغاية وشيء لا نراه مناسبا ولا نرغبه ابدا لأن نتائجه النفسية ستكون سلبية والضرر منه سيكون كبيرا . هذه العلاقة العاطفية يجب أن تخف وأن تتغير نوعيتها ولكنها يجب أن لا تزول لأن العائلة هي دعامة المجتمع وبدونها يكون المجتمع قد خسر روابطه الروحية .

واخيرا يجب أن نعود لموضوع التطور العصري . فنحن لا نقترح تحطيم العائلة والتقاليد ولكننا نحث العرب أن تكون

Digitized by Birzeit University Library

هذه المؤسسات متزنة كتوازن الروح والمادة والسلطة والحرية وأن لا يقبلوا بأن يصير جميل العائلة قبيحا وذلك بجعله مشكلة بدلا من أن يكون عنصرا ايجابيا يساعد على التطور العصري المتزن .

والمؤسسات السياسية يجب أن تدرس الوضع العائلي وتعمل على تغييره ليس على الطريقة الشيوعية بل على الطريقة القومية البناءه . وهذه الطريقة تبقي الطفل لعائلته وتحاول ان تغير الاب والام عن طريق التنظيم الفعال وعن طريق المؤسسات الثانوية . فالمدرسة كوسيط للتغيير لا تكفي ابدا والمؤسسات السياسية يجب أن لا نكتفي بها كوسيط للتطور ويجب أن تساعد على تغيير النظام العائلي وفلسفته التربوية لأن الشخصية الفردية تتكون اولا واساسا في العائلة وفي البيئة البيتية .

Digitized by Birzeit University Library

١) هذا الفصل يجد قواعده الاساسية في الفصل الثالث من المرجع التالي :

Robert P. Clark, Power and Policy in The Third World (New York: John Wily and Sons, 1978), pp. 51-67.

ان استعمالنا للاصطلاحين "التقليدي" و "العصري" يجب ان لا يختلط باصطلاحين آخرين وهما "المحافظ" و "الليبرالي" .

الاصطلاحان الاولان مرتبطان في نماذجهما المثالية ideal models خصوصا عندما نستعملهما كتعاميم شاملة . وهذا الاستعمال هو ضروري لفهم الفوارق بين النموذجين التقليدي والعصري ، رغم عدم انطباقه في الواقع النسبي .

٢) Erik Erikson, Childhood and Society (New York : Norton, 1963).

٣) Clark, Power and Policy, p. 52.

٤) المرجع السابق ، ص ٥٢ .

٥) المرجع السابق ، ص ، ٥٥ .

٦) Gabriel Almond and Sidney Verba The Civic Culture (princeton, N.J.: Princeton University Press, 1963).

Digitized by Birzeit University Library

٧) في المقدمة التي وضعها لكتاب :
Abram Kardiner, et al., The Psychological Frontiers of Society (New York:Columbia, 1945), p. viii.

وايضا كلارك ، ص ٥٧ .

٨) كلارك ، ص ٥٧ .

٩) Ted Robert Gurr, Why Men Rebel (Princeton, N.J. : Princeton University Press, 1970).

١٠) Leon Festinger, A Theory of Cognitive Dissonance (Evanston, Ill.: Row, Peterson, 1956).

Digitized by Birzeit University Library مكتبة جامعة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library